
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد
مباحث
في
علم التفسير
الدكتور عبد الستار حامد

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد

مباحث
في علم التفسير

تأليف

الدكتور عبد الستار حامد

نظرًا لفَقد هذا الكتاب من السوقِ وعدمِ توفرهِ بشكل إلكتروني (pdf) على شبكةِ النت وحاجة الناس إليه ولا سيّما خارج العراق، إستعنتُ الله في توفيرهِ إلكترونيًا خِدمةً لطلاب العلم، وخصوصًا طُلاب الدراسات العُليا.

وقد تركتُ الصفحات الفارغة، بعد المقدمة وفي نهايةِ كلِ فصلٍ، فلم أسحبها والتي بلغت ٢٢ صفحة وهي:

(١-٢-٤-١٠-١٢-٧٢-٧٤-٩٨-١٠٠-١٤٠-١٤٢-١٥٨-١٦٠-٢٠٢-٢٠٤-٢٠٦-٢٣٨-٢٤٠-٢٦٢-٢٦٤-٢٩٢-٢٩٤)

وقد ذكرتها حتى لايظن ظانٌ أن في الكتابِ نقصًا، والله المُوفِق والهادي لسواءِ السبيل...دعوةٌ بظهرِ الغيبِ تكفيني.

أخوكم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله حمداً يوافي نعمه، ويكافئ مزيده والصلاة والسلام على خاتم انبيائه الذي هدانا لهذا الدين وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيلهم الى يوم الدين وبعد، فهذه الطبعة الثانية لكتابنا (مباحث في علم التفسير) نقدمها الى كل مسلم مثقف يريد ان يقف على اصول التفسير ويطلع على مناهجه وتطوره منذ نشأته حتى العصر الحاضر مقروناً بنماذج من تفسير آيات كريمة في الاخلاق الاسلامية، والعلاقات الاجتماعية والقوانين العلمية، والظواهر النفسية والكونية تحقيقاً لقوله تعالى «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق» وقد حرصت على ابراز هذا الكتاب بشئ من الاضافة الضرورية على طبعته الاولى باسلوب واضح وعبارة مشرقة مسايرة لروح العصر، كما حاولت اخراج بعض موضوعاته باطر جديدة، وعناوين مستحدثة لا نجدها في كتاب آخر مواكبة للنهضة الاسلامية المعاصرة وخدمة للقرآن الكريم.

وفي هذه المناسبة الفت نظر المسؤولين عن المناهج في أقسام اللغة العربية في الجامعات بتدريس طلابهم هذا العلم الضروري لكل مثقف مسلم لما له من أثر كبير في وقاية الشباب الجامعي من التشكك في دينهم القويم وضعف الثقة في كتابهم العظيم واني لأبتهل الى الله أن يتقبله ويعمم النفع به وهو مولانا ونعم النصير.

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعه الاولى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الهداة والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه الى يوم الدين وبعد

فان الاسلام دين الله الذي آمنت به الملايين من البشر منذ بعث الله نبيه محمداً صلوات الله وسلامه عليه الى الآن وستؤمن به الملايين كذلك حتى قيام الساعة، لأن أساسه كلام الله الخالد، ومعجزة رسوله الى الناس اجمعين، إذ هو كتاب الحياة المثالية الفاضلة الذي ينظم علاقة الانسان بخالقه، كما ينظم علاقته بأبناء مجتمعه وبالناس أجمعين، فهو ينير لهم طريق الحياة الكريمة، ويرسم لهم المنهج السوي في كل ما يعترضهم من مشكلات بفضل ما جاء به من مبادئ حكيمة وقوانين عادلة، ونظم سديدة فيها أسباب السعادة للدنيا والآخرة، قال تعالى في وصفه وهو أصدق القائلين :

«إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجراً كبيراً، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما[1]، من أجل ذلك كلف سبحانه نبيه محمداً بأن يبين للناس هذه المبادئ والنظم التي احتواها كتابه فقال :

---

(١) سورة الاسراء الآية ٩-١٠.

«وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون»[1] كما طالب سبحانه عباده بأن يتعظوا بهذا القرآن، ويعتبروا بآياته بعد أن يتدبروها ويتفكروا فيها فقال:«أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها»[2] ؟

وقال أيضاً :«ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون».[3]

ومما لاشك فيه أن فهم الاسلام، وفقه شريعته لا يكون إلا عن طريق التفسير السليم، والايضاح القويم لهذا الكتاب الالهي العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

فلا يخفى على كل باحث ان علم التفسير له قواعد واصول كأي علم من العلوم وتتوقف سلامة التفسير وصحته على مدى إحاطة المفسر بها، وهذه القواعد والاصول هي ما سميت بعلم التفسير. وقد أدخل هذا العلم كمادة أساسية ضمن مناهج الصف الثاني بناء على المنهج الموحد بين كليتي الشريعة والفقه. وقد أسندت دراسته اليّ لذلك عمدت الى وضع هذه المباحث في علم التفسير وفق مفردات المنهج المقرر ومهمتها دراسة اكاديمية هدفها الوصول الى حقيقة ما في كتاب الله على ضوء البحث الموضوعي الذي يعد بحق المعيار الحقيقي اذا أردنا لتفسير القرآن السلامة من أي إنحراف أو خضوع لهوى أو إبتعاد عن النص القرآني بحشو

(١) سورة النحل الآية / ٤٤

(٢) سورة محمد الآية / ٢٤

(٣) سورة الروم الآية / ٥٨

مختلف الثقافات التي تخرج القرآن عن مقصوده الأسمى وهو هداية الناس وهذا ما لاحظناه في معظم تفاسير القرآن التي ألفت في مرحلتي التأصيل والتقليد، فالمفسر إذا كان فقيها ملأ تفسيره بالفروع الفقهية والحجاج لمذهبه فيها والرد على المخالف، والنحوي ليس له هم في تفسيره إلا الاعراب، والمؤرخ ليس له شغل إلا القصص وإستيفاؤها والأخبار عمن سلف سواء أكانت صحيحة أم باطلة كالاسرائيليات والموضوعات، وعالم الكلام يشبع تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة. والمبتدع ليس له قصد إلا تحريف الآيات وتطويع ألفاظ القرآن لما فهمه من المعاني وتسويتها على مذهبه. وقد صور الامام الشيخ محمد عبده، هذا الغلو فقال : ((ان الاكثار في مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الالهي ويذهب بهم مذاهب تنسيهم معناه الحقيقي))(١).

كل هذه الامور عقبات في طريق المفسر الذي ينبغي أن يكون موضوعياً في البحث عن المعنى الحقيقي المراد من كتاب الله، لذلك جاءت هذه الدراسة في قسمين عرضت في القسم الاول لتعريف التفسير والتأويل وتحديد الفرق بينهما، وبيان أهمية التفسير وذكر أقسامه وسرد شروطه وشرح آدابه وبيان مراحله ومظاهر تطوره وذكر مصادره وشرح مناهجه مع ذكر آراء العلماء ونقد بعضها مرجحاً ما أراه صحيحاً ليكون ذلك باعثا لطلبة الدراسات الاسلامية الى تحرير عقولهم من ربقة التقليد وتمرينهم على اسلوب النقد وطريق الاجتهاد، لأن كل هذه الامور توجه المفسر نحو الحق،

---

(١) تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا ١٨/١ الطبعة الثانية

وتسدد خطاه، وهذا ما يتناسب مع سلامة القرآن من التحريف، وينسجم مع المناهج التفسيرية الجديدة في العصر الحديث.

وعرضت في القسم الثاني صوراً من التفسير لبعض الآيات في العقيدة والاخلاق، والعلاقات الاجتماعية والظواهر الكونية، فجاءت الدراسة وافية لمفردات مادة علم التفسير وفق المنهج الجديد، والله الموفق للسداد.

المؤلف

القسم الأول

التعريف بعلم التفسير

ويشتمل على خمسة فصول

الفصل الأول

في مفهوم التفسير
وبيان أهميته

ويشتمل على أربعة مباحث

المبحث الأول : في تعريف التفسير والتأويل لغة واصطلاحا .

المبحث الثاني : في الفرق بين التفسير والتأويل .

المبحث الثالث : في أهمية التفسير .

المبحث الرابع : في أقسام التفسير .



المبحث الأول

في تعريف التفسير والتأويل لغة واصطلاحاً

١- تعريف التفسير لغة واصطلاحا :

التفسير في اللغة : مصدر فسر بتشديد السين مأخوذ من الفسر بمعنى البيان، تقول فسر الشئ يفسره بالكسر، ويفسره بالضم فسراً، وفسره أبانه، والتفسير مثله، والفسر كشف الغطاء، والتفسير كشف المراد من اللفظ(١).

فالتفسير هو التبيين مطلقاً، ومن هنا ندرك إن التفسير في الاصل ليس خاصاً بالقرآن الكريم، ويؤيد ذلك القرآن نفسه فقد جاء فيه التفسير بمعنى مطلق البيان. قال تعالى :

«ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا(٢) أي أحسن بيانا وتفصيلاً بما نضربه من الامثلة وما نسوقه من الادلة، لكن لفظ التفسير شاع واشتهر بين الناس بحيث اذا اطلق يكون المراد منه بيان المعنى الذي يقصده القرآن سواء كان حقيقة ام مجازا، الا ان بعض العلماء يرى ان لفظ التفسير خاص بما أبان عن الحقيقة دون المجاز، فهذا ضياء الدين الموصلي يقول في كتابه المثل السائر: ((لقد ذهب بعضهم في الفرق بين التفسير والتأويل الى شئ غير مرض فقال التفسير بيان وضع اللفظ حقيقة كتفسيرالصراط بالطريق،والتأويل اظهار باطن اللفظ

---

(١) لسان العرب، مادة فسر ٣٦١/٦ وانظر البرهان للزركشي١٤٢/٢. الطبعة الاولى.

(٢) سورة الفرقان آية / ٣٣.

كقوله تعالى «ان ربك لبالمرصاد» فتفسيره من الرصد يقال : رصدته اذا رقبته والمرصاد مفعال منه. وتأويله : تحذير العباد من تعدي حدود الله ومخالفة اوامره(١).

ولكننا لو رجعنا الى مادة التفسير في اللغة لوجدناها تدل على الكشف والبيان وهذا لا يختص ببيان حقيقة اللفظ دون مجازه بل يشملهما معاً، وهذا هو الراجح في نظري.

التفسير في الاصطلاح: أما تعريف التفسير إصطلاحاً فقد اختلف اساليب المفسرين في تعريفه، فهذا ابو طالب الثعلبي يعرفه فيقول : ((هو بان وضع اللفظ القرآني أما حقيقةً أو مجازا)).(٢) وعرفه ابو حيان في البحر المحيط : ((بأنه علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم ومدلولاتها وأحكامها الافرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك)).(٣)

وعرفه الزركشي : بأنه علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان واصول الفقه والقراءات،

---

(١) المثل السائر ٧٥/١ تحقيق الدكتور احمد الحوفي وبدوي طبانه، طبع مطبعة نهضة مصر بالقاهرة، الطبعة الاولى سنة ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م.

(٢) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ١٧٣/٢.

(٣) البحر المحيط ١٠/١ والاتقان ١٧٤/٢.

ويحتاج الى معرفة اسباب النزول، والناسخ والمنسوخ[1] وعرفه الطبرسي : بأنه كشف المراد عن اللفظ المشكل.[2]

والمتأمل في هذه التعاريف يلحظ تعريف الزركشي أدقها تحديدا وأوضحها أسلوباً، وأيسرها فهماً، إلا أنه قد أدخل في تعريف التفسير ما ليس من ماهيته كعلم اللغة والنحو، والتصريف وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وهذه كلها كما نعلم وسائل ينبغي على المفسر اتقانها جيداً والإلمام بها حتى يتمكن من تفسيركتاب الله

على الوجه الصحيح، وعلى ضوء ما سبق نستطيع أن نعرف التفسير تعريفاً أكثر تحديداً فنقول : إنه الكشف عن مراد الله في قرآنه بقدر الطاقة البشرية، وبيان ما انطوت عليه آياته من أسرار دقيقة وحكم نيرة، واخلاق سامية، ومثل عليا وأحكام شرعية تهدف الى هداية الافراد واصلاح المجتمعات. وتقييد التعريف بقدر الطاقة البشرية لابد منه، لأن البشر ليس في مقدورهم ان يعرفوا مراد الله تعالى على وجه الحقيقة، وإنما يعرفون مراد الله تعالى بقدر طاقتهم كبشر.

٢- تعريف التأويل لغة واصطلاحاً :

التأويل في اللغة : مأخوذ من الاول، وهو الرجوع، تقول آل الشئ يؤول أولاً ومآلاً بمعنى رجع، والتأويل تفعيل من أول يؤول تأويلا، ومعنى أول

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١/١٢، الطبعة الاولى سنة ١٣٧٦. هـ - ١٩٥٧م تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم.

(٢) مجمع البيان ١/١٢.

الكلام، وتأوله دبره وأوله وتأوله فسره، وقال الليث : ((التأويل والتأويل، تفسير الكلام الذي تختلف معانيه)). وقال الجوهري : ((التأويل تفسير ما يؤول اليه الشئ)).(1)

اما التأويل في الاصطلاح فقد اختلفت أساليب العلماء في تعريفه أيضاً، فهذا البغوي يقول : ((التأويل صرف الآية الى معنى موافق لما قبلها وما بعدها تحتمله الآية غير مخالف للكتاب من طريق الاستنباط)).(2)

وعرفه الطبرسي فقال : ((التأويل رد احد المحتملين الى ما يطابق الظاهر)).(3)

وقال ابن حزم الظاهري : ((التأويل نقل اللفظ عما اقتضاه ظاهره، وعما وضع له في اللغة الى معنى آخر، فان كان نقله قد صح ببرهان وكان ناقله واجب الطاعة فهو حق، وإن كان نقله بخلاف ذلك طرح ولم يلتفت اليه، وحكم بذلك النقل انه باطل)).(4)

وعرفه آخرون بأنه حمل الكلام على معنى غير المعنى الذي يقتضيه الظاهر بموجب دليل اقتضى ان يحمل على ذلك، ويخرج على ظاهره.(5)

---

(1) انظر لسان العرب مادة اول ١٣/٣٣.

(2) الاتقان في علوم القرآن ٢/١٧٣.

(3) مجمع البيان ١/١٣.

(4) الاحكام في اصول الاحكام ٣/٣٦ وما بعدها.

(5) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزئ الكلبي ١/٧.

وقسم الراغب الاصفهاني التأويل الى قسمين : تأويل منقاد وتأويل مستكره وعرّف التأويل المنقاد بانه هو الذي لا يجافي منطق اللغة، ولا ينأى عن دلالتها.

اما التأويل المستكره فهو الذي يلوى فيه المفسر او المؤول النص حتى يوافق هواه ويسير مع رغباته، ويدعم مذاهبه واتجاهاته.(١)

ولو تأملنا في هذه التعاريف لوجدنا تعريف البغوي أسهلها تعبيرا وأيسرها فهماً، وإنه لابد للمؤول الماهر إذا أراد التأويل السليم أن يستخدم فكره ويعمل عقله في الآية لإستنباط المعاني التي تحتملها في حدود الكتاب والسنة، واللغة وإلا فقد عرض نفسه للوقوع في الأخطاء وارتكاب الآثام.

---

(١) مقدمة في التفسير للراغب الاصفهاني الملحقة بكتاب تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٤٠٢-٤٠٣.

المبحث الثاني

في الفرق بين التفسير والتأويل

لو دققنا النظر في تعاريف التأويل السابقة لاتضح لنا أن التأويل عند معظم العلماء هو تفسير الآية بمعنى غير المعنى الذي يقتضيه ظاهرها بموجب دليل يقتضي صرف معنى ظاهر اللفظ الى معنى آخر، وإلا كان التأويل فاسداً، من أجل هذا فرق بعض العلماء بين التفسير والتأويل، فقال الراغب الاصفهاني التفسير أعم من التأويل ، واكثر استعماله في الالفاظ ومفرداتها، واكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل واكثر ما يستعمل في الكتب الالهية. والتفسير يستعمل في الكتب الالهية وغيرها.(١)

وبناء على هذا فان كل تأويل تفسير، وليس كل تفسير تأويلا، لهذا يقال تفسير القرآن، ومن تفسيره ظاهر وباطن.

وذهب الماتريدي الى أن التفسير خاص ببيان اللفظ الذي لا يحتمل إلا وجهاً واحداً بدليل مقطوع به، والباطن إرجاع اللفظ المحتمل لمعان مختلفة الى معنى واحد يختاره منها من غير دليل مقطوع به، فقال : التفسير هو القطع بأن المراد من اللفظ هذا ، والشهادة على الله بإنه عنى باللفظ هذا،فان قام دليل مقطوع به فصحيح، وإلا فتفسير بالرأي، وهو المنهى عنه، والتأويل ترجيح احد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله.(٢)

---

(١) الاتقان ٢/١٧٣. والتفسير والمفسرون ١/١٩.

(٢) الاتقان ٢/١٧٣.

ويبدو لي ان الذي حمل القائلين بالفرق بين التأويل والتفسير على الذهاب الى هذا المذهب هو ورود كلمة التأويل في قوله تعالى :

«هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، وما يذكر إلا أولوا الالباب».(١)

فقد ذكر الله في هذه الآية ان من القرآن ما هو محكم(٢) كالآيات التي ارست أصول العقيدة، فهي مفهومة المعنى قاطعة الدلالة لا لبس في دلالة ألفاظها عليها ولا شبهة، وان ألفاظها تصرف الى احد المعاني التي يحتملها بدليل قطعي كتفسير قوله تعالى :

«لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد»(٣)، وقوله :

«والله بكل شئ عليم»(٤)، وقوله :

«وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا»(٥) وقوله :

«واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة»(٦) وقوله :

---

(١) سورة آل عمران آية /٧.

(٢) المحكم ما عرف المراد منه او ما اتضح منه.

(٣) سورة النحل ، آية /٥١.

(٤) سورة البقرة ، آية / ٢٨٢.

(٥) سورة الاسراء ، آية /٢٣

(٦) سورة البقرة، آية / ٤٣.

«فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع»[1] فأن المراد من الآية الاخيرة هو اباحة الجمع بين اثنتين أو ثلاث او أربع.

فكل هذه الآيات المحكمة وأمثالها واضحة جلية. فينبغي في تفسيرها أن يكون المعنى الذي يقال فيها مأخوذاً بطريق قطعي، فلا تحتمل التأويل ولا تقبل النسخ، وانه يستعصى على المنحرفين ان يحرفوا في معانيها حسب أهوائهم.

ومن القرآن ما هو متشابه والآيات المتشابهات اما ألا تكون في مستوى الادراك الانساني واما ان تكون في مستوى الادراك الانساني فاما التي لا تكون في مستوى الادراك الانساني فهي كالسمعيات والغيبيات التي اختص الله بعلمها، فقد جاءت للوقوف عند مدلولاتها القريبة، ويجب التصديق بها لأنها صادرة عنه سبحانه وتعالى، من ذلك قوله تعالى في عيسى عليه السلام :

«وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه»[2]، وقوله تعالى :

«ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام»[3]، وقوله تعالى :

«الرحمن على العرش استوى»[4]، وقوله تعالى :

---

(١) سورة النساء ، اية / ٣.

(٢) سورة النساء ، آية / ١٧٩.

(٣) سورة الرحمن ، آية / ٢٧.

(٤) سورة طه ، آية / ٥.

«يد الله فوق أيديهم» وقوله تعالى: «وهو معكم اينما كنتم»[1]،

الى غير ذلك من الآيات التي يصعب على الانسان ادراك ما هيتها، او يستحيل عليه معرفتها كمعرفة حقيقة الذات الالهية وآيات قيام الساعة وآيات العلم بالغيب، والروح لانها بطبيعتها فوق وسائل الادراك الانساني المحدود وهذا ما عبر عنه ابن عباس بالوجه الرابع من تقسيمه لتفسير القرآن الكريم حيث قال ما نصه:((التفسير على اربعة اوجه، وجه تعرفه العرب من كلامها، ووجه لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء خاصة، وتفسير لا يعلمه الا الله))[2]، أما الآيات المتشابهة التي هي في مستوى الادراك الانساني فقد لحقها التأويل وهو صرف اللفظ عن المعنى الظاهر الى معنى آخر بدليل يؤيد ذلك، وبسبب يقتضي تأويل النص، ولتوضيح ذلك نجتزئ بالأمثلة الآتية :

١- قوله تعالى : «ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام» فتأويل الوجه مخالفة الله تعالى للحوادث مطلقاً سواء أكان في ذاته أم في صفاته أم في أفعاله، كقوله تعالى :

«ليس كمثله شئ» ومثل الوجه اليد كذلك.

٢- وقوله تعالى : «والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء»[3] فان القرء يطلق لغة على الحيض وعلى الطهر ولا يتيسر العمل بالآية إلا بعد بيان

(١) سورة الحديد ، آية / ٤.

(٢) البرهان ٢ / ١٦٤.

(٣) سورة البقرة آية / ٢٢٨.

المراد به وقد ذهب الشافعية الى تأويله بالطهر مستدلين بان لفظ ثلاثة في الآية مؤنث، ومن المعلوم عربية ان العدد يذكر مع المؤنث ويؤنث مع المذكر، فكان ذلك دليلاً على ان المعدود مذكر وهو الاطهار، وذهب الحنفية الى تأويله بالحيض واستدلوا بأن الحكمة الرئيسية من تشريع العدة انما هو التعرف على براءة الرحم وهو يعرف بالحيض لا بالطهر وكل منهما اعتمد على ما صح عنده من اخبار. ولأن لفظة قرء مشتركة في اللغة العربية وضعت لعدة معاني ولا يمكن معرفة المراد منها الا بمعرفة القرائن المحيطة باللفظ.

٣- وقوله تعالى،

«يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا ان تكون تجارة عن تراض منكم»[١] فهذا النص يبيح كل مبادلة تتم برضا المتبايعين ولكن قد روى ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) نهى عن بيع الغرر، وعن تلقي الركبان دفعا للضرر عن الناس، ولأن البيع في الحالين لم يبن على رضا صحيح والتأويل هنا تقييد المطلق[٢] فالتأويل في هذه الامثلة ضروري لأن اللغة تقتضيه والعقل يؤيده فلا معنى للاحجام عنه.

أما المنحرفون الذين في قلوبهم زيغ فانهم يتركون آيات أصول العقيدة الواضحة ويطلقون أهواءهم تجري وراء الآيات المتشابهة ليؤولوها

(١) سورة النساء الآية / ٢٩.

(٢) انظر الى اصول التشريع الاسلامي ص ٢٦٩

بما يتفق مع مبادئ دون الرجوع الى اللغة والالتزام بمبادئ الاسلام الواضحة.ومن ذلك على سبيل المثال تأويلهم قوله تعالى :

«وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه» فان أهل الزيغ يأخذون هذه الآية على ظاهرها ويؤولونها حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم دون الرجوع الى الاصول المحكمة في القرآن التي تبين المراد منه فيقولون : الله روح، والمسيح روح منه فهو من جنسه وجنسه لا يتبعض فهو هو أي فعيسى هو الله لاتحادهما في الروح، ولا يرجعون الى الاصل المحكم الذي يبطل مثل هذا التأويل وهو قوله تعالى :

«قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد»[١] وقوله تعالى :

«وإلهكم إله واحد»[٢] وقوله :

«ليس كمثله شئ وهو السميع العليم»[٣] وقوله :

«لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا»[٤] وقوله :

«ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله اذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون»[٥] لذلك حذرنا الرسول

---

(١) سورة الاخلاص آية / ٢.

(٢) سورة البقرة آية / ١٦٢.

(٣) سورة الشورى آية / ١١.

(٤) سورة الانبياء آية / ٢٢.

(٥) سورة المؤمنون آية / ٩١.

(صلى الله عليه وسلم) من هؤلاء فقال : (فاذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم)[١]، ولأن المتشابه الذي لا يصح الخوض فيه ما كان خارجاً عن طاقة العقل الانساني ومن ذلك أيضاً تأويل اليهود لليد في قوله تعالى :

«وقالت اليهود يد الله مغلولة»[٢]، بالنعمة لقول العرب لي عند فلان يد أي نعمة ومعروف، ولا يجوز أن تكون اليد ها هنا بمعنى النعمة، لأنه قال «غلت أيديهم» معارضة عما قالوه فيها ثم قال : «بل يداه مبسوطتان». ولا يجوز أن يكون أراد غلت نعمهم بل نعمتاه مبسوطتان، لان النعم لا تغل ولان المعروف لا يكنى عنه باليدين كما يكنى عنه باليد إلا ان يريد جنسين من المعروف، فيقول : لي عنده يدان، ونعم الله تعالى أكثر من أن يحاط بها.[٣]

وقد أوّل علماؤنا اليد بمعنى الغلبة والقهر والحفظ وهو كناية عن القدرة الالهية، والمعية كناية عن العلم.

وبسبب هذا التأويل الباطل فيما يبدو فرق الاصوليون وبعض علماء التفسير بين التفسير والتأويل وأحاطوا التأويل المقبول لآيات الله بشروط تخرج صاحبه من تبعة هذا الزيغ والانحراف وأهم هذه الشروط ما يأتي :

(١) صحيح البخاري ٦ / ٤٢.

(٢) سورة المائدة آية / ٦٤.

(٣) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٨٤ نقلاً عن كتاب دراسات في اصول تفسير القرآن للدكتور محسن عبد الحميد ص ٦٢ – ٦٣.

الاول – أن يكون التأويل موافقاً لوضع اللغة وعرف الاستعمال، وكل تأويل يخرج عن هذا فليس بصحيح.

الثاني – ان يقوم الدليل على أن المراد بذلك اللفظ هو المعنى الذي حمل عليه اذا كان لا يستعمل كثيراً فيه.

الثالث – اذا كان التأويل بالقياس فلا بد أن يكون جليا[1] لاخفياً، وقيل لا يجوز التأويل بالقياس أصلا[2].

الرابع – الا يكون المعنى المستنبط من الآية مخالفاً للكتاب والسنة فكل تأويل لا تتوفر فيه هذه الشروط يكون باطلاً والواقع ان العرف السائد بين علماء السلف هو ان التأويل له معنيان، ويعبر عن ذلك ابن تيمية فيقول: ((ان التأويل في لفظ السلف له معنيان أحدهما تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق ظاهره أو خالفه فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقارباً او مترادفاً، وثانيهما هو نفس

---

(١) القياس الجلي او القياس في معنى النص هو الحاق مسكوت عنهمساويا للمنطوق به او هو اولى منه بالحكم ومن المساوي قوله تعالى :

«ان الذين يأكلونأموال اليتامى ظالماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً» ومن الاولى قوله تعالى :

«ولا تقل لهما أف» ذلك لان المسكوت عنه كالضرب او الشتم اولى بالحكم (التحريم) لان علة الحكم (الايذاء)فيه اقوى.

(٢) ارشاد الفحول للشوكاني ص ١٧٧ وبهامشه شرح الورقات.

المراد بالكلام،فاذا قيل طلعت الشمس فتأويل هذا نفس طلوعها)).[1]

ويعبارة اخرى فان التأويل اذا تعلق بكلام الله تعالى يكون المراد منه ارجاعه الى حقيقته التي تراد منه فاذا قلنا تأويل الآية كذا يكون معناه ارجاع الآية الى المراد منها، وهذا ما فهمه ابن جرير الطبري فسوى بين التفسير والتأويل وسار على ذلك في تفسيره جامع البيان، فانك لونظرت فيه لوجدته يستخدم في تفسير الآيات دائماًعبارة القول في تأويل قوله تعالى كذا، وتأويل ذلك ... كذا وينحو الذي قلنا قال أهل التأويل، ثم يذكر ما يرى من المعاني التي تدل عليها، فهو بهذا يريد من التأويل التفسير ومن أهل التأويل أهل التفسير، كما ان بعض المفسرين سموا تفاسيرهم بأسماء لا تفرقة فيها بين التفسير والتأويل، فالزمخشري سمى تفسيره بالكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل، والبيضاوي سمى تفسيره بأنوار التنزيل وأسرار التأويل، والقاسمي سمى تفسيره محاسن التأويل.

يتضح من هذا ان لفظي التأويل والتفسير مترادفان وان كلا منهما يكشف عن المعنى المراد لذلك عرف بعضهم التأويل بما عرف به التفسير، فهذا ابو العباس أحمد بن يحيى حينما سئل عن معنى التأويل أجاب : أن التأويل والمعنى والتفسير واحد[2] ،وقال ابن فارس في كتابه الصاحبي

---

(١) الاكليل في المتشابه والتأويل ٢١ – ٢٤ نقلاً عن كتاب دراسات في اصول تفسير القرآن للدكتور محسن عبد الحميد ، ص ٥٩ – ٦٠.

(٢) لسان العرب مادة اول ٣٤/١٣ وانظر مقدمة الراغب الاصفهاني ص ٣٥٦، ومجمع البيان ١٣/١.

((معاني العبارات التي يعبر بها عن الاشياء ترجع الى ثلاثة : المعنى والتفسير والتأويل، وهي وان إختلفت فالمقاصد بها متقاربة)).(١)

وعلى هذا المعنى سار كثير من العلماء منذ الصدر الاول الى عصرنا هذا وخاصة بالنسبة للقرآن الكريم، فالنفس أميل الى اعتبار المعنى والتفسير والتأويل شيئاً واحدا وان اختلفت في اللفظ لانها تعني تفسير القرآن الكريم. وكشف ما يحتويه من معان واحكام.

---

(١) قصة التفسير للدكتور أحمد الشرباصي ص ٩، نشر دار القلم بالقاهرة.

المبحث الثالث
في أهمية التفسير

ان أهمية كل علم ترتبط بأهمية موضوعه، فأهمية التفسير نابعة من القرآن الكريم الذي هو من أشرف الموضوعات، وأقدسها لانه كتاب الله الخالد الذي «احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» وهو الكتاب الذي «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» وهو الضياء الذي ينير للانسانية طريق الحياة الفاضلة، ويرسم لها المنهج السوي في حل ما يعترضها من مشكلات بفضل ما جاء فيه من مبادئ حكيمة وقوانين عادلة ونظم سديدة، ومثل عليا تبني العقيدة السليمة في العقول وتغرس الاخلاق الحميدة في النفوس، انه رسالة الحياة المثالية كاشمل ما تكون الحياة، اذ فيه المجالات الفسيحة للنظم التربوية والاجتماعية والسياسية ونظم المعاملات وقواعد العلاقات في شتى صورها على مستوى الفرد، والاسرة والدولة، وبيان علاقتها بغيرها من الدول وصدق الله العظيم حيث يقول :

«ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون، قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون».(١)

ولقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في وصفه كما روى عن علي (رضي الله عنه) : (عليكم بكتاب الله فيه نبا ما قبلكم، وخبر ما بعدكم،

---

(١) سورة الزمر آية / ٢٧ - ٢٨.

وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره اضله الله، هو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الاهواء ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن حكم به عدل ومن خاصم به أفلح، ومن دعي اليه هدى الى صراط مستقيم).[1]

فالعمل بهذا القرآن لا يكون الا بعد فهم ألفاظه، وشرح آياته، والوقوف على ما حواه من عقائد وأحكام وعظات، والالمام بمبادئه وأهدافه، وهذه الامور لا يهتدي اليها، ولا يتحقق العلم بها الا بعلم التفسير، ولهذا كانت ألفاظ القرآن وآياته وحكمه موضع اهتمام المسلمين منذ الصدر الاول، فالصحابة رضوان الله عليهم مع علو كعبهم في الفصاحة والبلاغة كانوا يسألون الرسول عما يصعب عليهم فهمه من آياته وأحكامه، فهذا عدي بن حاتم لما أشكل عليه فهم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر من قوله تعالى :

«فكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر»[2] رجع الى الرسول فأفهمه ان المراد بهما بياض النهار وسواد الليل.

وقد ازدادت الحاجة الى التفسير عصرا بعد عصر نظرا لضعف

---

(١) روح السنة لمحمد بن ادريس ص ١٦. وأخرجه الدارمي ٥٢٦/٢ كتاب فضائل القرآن باب فضل من قرأ القرآن واخرجه احمد في مسنده ٩١/١ والترمذي ١٥٨/٥.

(٢) سورة البقرة الآية / ١٨٧.

الملكة العربية بسبب اختلاط العرب بغيرهم وشيوع اللحن الذي أفسد الفصاحة والبلاغة بين صفوف المثقفين، فالتفسير له أهمية عظيمة، ومكانة كريمة بين سائر العلوم لانه المفتاح لعلوم القرآن وكنوزه الرائعة وأسراره المعجزة. من أجل ذلك نجد معظم المفسرين يتحدثون عن أهميته، فهذا الراغب الاصفهاني يتحدث في عبارة له عن أهمية التفسير فيقول : ((ان أشرف صناعة يتعاطاها الانسان تفسير القرآن وتأويله)).[1] وذلك لان الصناعة انما تشرف بشرف موضوعاتها، وهل هناك موضوع اشرف من موضوع كتاب الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، ومفتاح كل نهضة وتقدم وازدهار، ويقول السيوطي بعد أن يشير الى موضوع التفسير والغرض منه وشدة الحاجة اليه : ((فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث اما من جهة الموضوع فلان موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة فيه نبا ماقبلكم، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه.

وأما من جهة الغرض، فلان الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول الى السعادة الحقيقية التي لا تفنى. وأما من جهة شدة الحاجة فلان كل كمال ديني او دنيوي، عاجل او اجل، مفتقر الى العلوم الشرعية، والمعارف الدينية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى[2].

---

(١) الاتقان ٢ / ١٧٥.

(٢) المرجع السابق.

ويقول الطبرسي:[١] ((علم التفسير هو أجل العلوم قدرا لانه الموصل الى فهم مراد الله من كتابه، ومعرفة احكام الله في وحيه، وما فرضه على عباده، وهذه الغاية كما لا يخفى هي أشرف الغايات، وأحسن الطرق لنيل السعادات)).[٢]

فلو دققنا النظر في هذه الاقوال لا تضحت لنا أهمية التفسير ومكانته الجليلة، ومدى حاجتنا اليه، لذلك بذل العلماء جهودهم في خدمة كتاب الله منذ الصدر الاول الى عصرنا هذا اداء للامانة، وتبليغا للرسالة، وحرصوا كل الحرص على تفهمه، وطلب تفسيره، فهذا التابعي الجليل ابو عبد الرحمن السلمي[٣] يصف لنا ذلك فيقول : ((حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما انهم كانوا اذا تعلموا من النبي (صلى الله عليه وسلم) عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا))[٤] لاشتمالها على العقائد الحقة، والاخلاق السامية والاحكام الشرعية العادلة التي تقود المسلم الى السعادة في الدارين من اجل ذلك

(١) هو الشيخ ابو علي بن الحسن الطبرسي من اكابر علماء الامامية في القرن السادس المتوفي سنة ٥٣٨ ه.

(٢) مجمع البيان ١/٣ نشر شركة المعارف الاسلامية.

(٣) هو عبد الله بن حبيب السلمي من خيار التابعين وثقاتهم اخذ القراءة من عثمان بن عفان وغيره من القراء المعروفين من اصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم.

(٤) تفسير القاسمي ١/١٧ الطبعه الاولى سنة ١٣٧٦ ه - ١٩٥٧ م مطبعة دار أحياء الكتب العربيه بالقاهره ، تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي.

حثنا الله عز وجل في آيات كثيرة على التوجه الى هذا الكنز النفيس اللامتناهي لفقه آياته وتدبر حكمته، والاعتبار بأسراره وعظاته، فخاطب نبينا محمدا قائلا «كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولوا الالباب».[1]

ففي هذه الآية وما اشبهها من آيات[2] يأمر سبحانه عباده بفهم كتابه فيحثهم على تدبره، والاعتبار بامثاله والاتعاظ بمواعظه، وقد فهم ذلك المفسرون قاطبة فعدوا الكشف عن معاني كلام الله واجبا، فهذا ابن كثير يعبر عن ذلك في مقدمة تفسيره فيقول : ((فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله وتفسير ذلك وطلبه من مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه كما قال تعالى :

«واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون».[3] وقال ايضا :

«ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا اولئك لاخلاق لهم في الاخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب

---

(١) سورة ص آية / ٢٩.

(٢) ومن هذه الآيات قوله تعالى «وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون » وقوله تعالى « افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها » .

(٣) سورة آل عمران آية / ١٨٧.

اليم». [١] فذم الله تعالى في هذه الايات أهل الكتاب قبلنا باعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم واقبالهم على الدنيا وجمعها واشتغالهم بغير ما امروا به من اتباع كلام الله، فعلينا ايها المسلمون ان ننتهي عما ذمهم الله تعالى به، وان نأتمر بما أمرنا به من تعلم كتاب الله المنزل الينا وتعليمه، وتفهمه وتفهيمه. [٢]

بل لقد ذهب الزمخشري الى ابعد من هذا فجعل الخوض في تفسير القرآن فرض عين. [٣] ولعل ذهاب هذين العالمين الى هذا المذهب يعتمد على ما في القرآن والسنة من نصوص تدل على الدعوة الى العناية بتفسير القرآن وكشف معانيه فمما ورد في القرآن قوله تعالى في سورة النساء :

«أفلا يتدبرون القرآن» [٤] وقوله فيها ايضا :

«واذا جاءهم أمر من الامن او الخوف أذاعوا به، ولو ردوه الى الرسول والى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم» [٥] وقوله في سورة المؤمنون :

«أفلم يدبروا القول ام جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين» [٦] وقوله في

---

(١) سورة آل عمران الآية / ٧٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/١ ، طبع دار المعرفه ببيروت ، سنة ١٣٨٨ ه ١٩٦٩ م.

(٣) انظر الكشاف ١٩/١.

(٤) سورة النساء الآية /٨٢.

(٥) سورة النساء الآية /٨٣.

(٦) سورة المؤمنون الآية / ٦٨.

سورة محمد :

«أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها»[1].

ومما جاء في السنة ما رواه الشيخان عن عثمان بن عفاف (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : ((خيركم من تعلم القرآن وعلمه))[2] كما أن الاشتغال به خير من الاشتغال بصلاة النوافل، ويؤيد ذلك ما رواه ابن ماجة في سننه من حديث ابي ذر عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) انه قال : ((لان تغدو وتتعلم اية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مئة ركعة))[3].

ومن ذلك ايضا قوله (صلى الله عليه وسلم) من حديث ابن عباس : (القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهه) أخرجه ابو نعيم وغيره.[4]

فالناظر في هذه النصوص يدرك أن تفسير القرآن وفهمه من أجل الاعمال وأفضل العبادات، وان تعلمه وتعليمه لا يصعب على طالبه، وأنه ذو وجوه فاذا تدبره فقد يفهم منه مقاصد مطوية ووجوها من المعاني خفية فينبغي أن يحمله على أحسن معانيه، وأوضح مقاصده، وأصح مراميه مما يدل على أن التفسير مطلوب وأنه فرض ولكن على وجه الكفاية لا العين لأن

---

(١) سورة محمد الآية / ٢٤.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ٦/٢٣٦.

(٣) الترغيب والترهيب للمنذري ٣/١٧٢.

(٤) تفسير القاسمي ١/١٠.

نهضة المسلمين ورقيهم في الدنيا وسعادتهم في الآخرة متوقفة على العمل بكتاب الله، والعمل بكتاب الله لا يتأتى الا اذا فهمت نصوصه حق الفهم، وذلك عن طريق علم التفسير، وان السر في نجاح سلفنا الصالح مع قلة العدد وضيق ذات اليد هو توفرهم على دراسة كتاب الله والعمل به على الرغم من ملكاتهم السليمة ومواهبهم الفطرية اذن فنحن الآن في اشد الحاجة الى تفسير كتاب الله والعمل به حتى لا تضعف ملكة البيان العربي، ولا تضيع خصائص اللغة العربية. وهذا ما

. أجمع عليه العلماء[1] وما أجمل قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) في التحريض على قراءة القرآن وتفهم معانيه : (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده)[2]. وروى عبد الله بن مسعود إنه (صلى الله عليه وسلم) قال : ((ان هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا

---

(١) الاتقان ١٧٥/٢.

(٢) هذا الحديث جزء من حديث رواه مسلم عن ابي هريرة (رضي الله عنه) قال :

((قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا الى الجنة وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه)رواه مسلم)).

صحيح مسلم بشرح النووي ٢٢/٢١/١٧ الطبعة الثانية.

من مأدبته ما استطعتم ان هذا القرآن هو حبل الله وهو النور المبين والشفاء النافع عصمة من تمسك به ونجاة من تبعه، لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد فاقرأوه فان الله عز وجل يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات اما اني لا اقول لكم الم حرف ولكن الف ولام وميم ثلاثون حسنة))(١).

ومع هذا كله فلا يحل لكل مسلم أن يمارس التفسير الا اذا كان أهلا له وعالما به ومتمكنا من أسبابه، ومستكملا كل مقوماته وشروطه حتى يسلم كلام الله من جهل الجاهلين وضلال المضلين، لان الجاهل بذلك يهرف فيه بما لا يعرف فيظل الناس عن سواء السبيل.

من اجل ذلك ارى ان طلبة الدراسات الاسلامية أولى الناس بحفظ القرآن والقيام بتفسيره، ونشر مبادئه واحكامه، وأنهم أجدر الناس بالتزامه سلوكا وعملا في كل شأن من شؤون الحياة.

لانهم هم الذين يقدرون على الرد على كل مبتدع في تفسير الايات او مؤول لها على غير معناها المراد، كالمشبهة والمجسمة حيث اتبع الاولون طريقة منحرفة في معالجة النص القرآني ومحاولة تفسيره، فلم يكلفوا انفسهم كما يقتضي الامر عادة بالرجوع الى الاصول الشرعية الاخرى والقواعد الاصولية التي تجلي حقيقة النص وتبرز معناه الصحيح، أو تدرأ عن تفسيره كل زيغ وانحراف.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٥٥٥/١ كتاب فضائل القرآن وانظر مجمع الزوائد ١٤٧/٧.

فالمؤولة فسروا بعض الايات على غير وجهها الصحيح لانحرافهم في المنهج واتباعهم طريقة تعتمد على اقتطاع آية او جزء من آية عن سياقها الذي يقتضيه تفسيرها، ومن ثم تأويلها بما يتفق ومذهبهم ولذلك انبرى العلماء قديما وحديثا لنقد هذه الطريقة فهذا الدكتور محمد يوسف موسى يقول في هذه الطريقة : ((ليس من الحق في شئ، والواجب في تأويل القرآن ملاحظة السياق الذي وردت فيه الآية وعدم اكراهها لتؤدي وجهة نظر خاصة[1] ولذلك فأن التفسير الذي يقوم على هذا المنهج يعد ضلالا وزيفا وسوف نتناول ذلك بصورة مفصلة حين الكلام عن المناهج التفسيرية)).

---

(١) القرآن والفلسفه ص ١٠٥.

المبحث الرابع

في أقسام التفسير

ان التفسير المعتد به عند جمهور العلماء سلفا وخلفا قسمان :

الاول : التفسير بالمأثور.

الثاني: التفسير بالرأي.

فأما التفسير بالمأثور، ويسمى التفسير بالرواية : او التفسير النقلي فهو ما أثر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) من قرآن او سنة او عن الصحابة سواء اكانوا من اهل البيت أم من غيرهم، أو عمن عاصرهم من التابعين.

فعلى هذه الانواع الاربعة يدور التفسير بالمأثور.

١-فمن أمثلة تفسير القرآن بالقرآن قوله تعالى :

«ان الانسان خلق هلوعا» فقد فسر بما بعده :

«اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا».[١] ومنها قوله تعالى:

«اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين». فقد فسر المنعم عليهم بقوله تعالى :

«ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا».[٢] ومنها قوله تعالى :

---

(١) سورة المعراج آية /٩.

(٢) سورة النساء آية / ٦٩.

«فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم»[1]. فقد فسرت الكلمات في اية اخرى. قال تعالى :

«قالاربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين».[2] وقد روى هذا عن كثير من التابعين.[3]

ب-ومن أمثلة تفسير القرآن بالسنة النبوية تفسيره (صلى الله عليه وسلم) مفاتح الغيب في قوله تعالى :

«وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو»[4] بقوله (صلى الله عليه وسلم) : (مفاتح الغيب خمس : ان الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الارحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت : ان الله عليم خبير).[5]

ومن ذلك ايضا ما رواه أحمد والشيخان وغيرهم عن ابن مسعود قال: ((لما نزلت هذه الآية :

«الذين آمنوا، ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الا من وهم مهتدون» شق ذلك على الناس فقالوا يارسول الله : وأينا لم يلبس ايمانه بظلم، فقال

---

(١) سورة البقرة آية /٣٧.

(٢) سورة الاعراف آية /٢٣.

(٣) انظر تفسير ابن كثير والبغوي ١/١٤٦ - ١٤٧.

(٤) سورة الانعام : آية /٥٩.

(٥) صحيح البخاري ٦/٧١.

(ليس كما تظنون وانما هو الشرك ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه : يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم))[1]. لان السنة النبوية تشرح القرآن وتفسره، وقد قال (صلى الله عليه وسلم) : (الا أنني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه الا لا يحل لكم الحمار الاهلي ولا كل ذي ناب من السباع ولا لقطة معاهد الا ان يستغني عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم ان يقروه، فان لم يقروه فعليه ان يعقبهم[2] بمثل قراه).

وسأل رجل عمران بن حصين فحدثه فقال الرجل :((حدثونا عن كتاب الله عز وجل ولا تحدثونا عن غيره، فقال عمران بن حصين : انك امرؤ احمق، أتجد الظهر في كتاب الله أربعا لا يجهر فيها بالقراءة ؟ ثم عد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ثم قال : أتجد هذا مفسرا في كتاب الله ؟ ان كتاب الله قد أبهم هذا والسنة تفسره.[3]

وقال الامام أحمد بن حنبل : ان السنة تفسر الكتاب وتبينه.[4] وهكذا

---

(١) الاتقان في علوم القرآن ١٩٦/٢ . البرهان ١٨٤/٢ – ١٨٥ صحيح البخاري ١٤٣/٦ – ١٤٤.

(٢) من المعاقبة ان يأخذ من اموالهم بقدر الضرورة ، وهذا يدل على منزلة التكافل الاجتماعي في الاسلام.

(٣) اصول التشريع الاسلامي للاستاذ علي حسب الله ص ٣٨ الطبعة الرابعة.

(٤) اعلام المحدثين لمحمد ابو شهبة ، ص ٩. تفسير القاسمي ١٩١/١.

جاءت السنة النبوية تفسيراً للقرآن، وبياناً لما جاء به من احكام، ولو أن امرءاً قال لا نأخذ الا ما وجدناه في القرآن لكان كافراً باجماع الأمة، وان الاقتصار على القرآن رأي قوم لاخلاق لهم خارجين عن السنة النبوية المطهرة.

جـ- ومن أمثلة تفسير الصحابة للقرآن ما رواه ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى :

«أيود أحدكم ان تكون له جنة من نخيل وأعناب له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت . كذلك يبين الله لكم الايات لعلكم تتفكرون».[1] ان عمر (رضي الله عنه) سأل الناس عن هذه الآية فما وجد احدا يشفيه حتى قال ابن عباس وهو خلفه : ((يا أمير المؤمنين أني أجد في نفسي منها شيئا فتلفت اليه فقال تحول ها هنا قال ابن عباس هذا مثل ضربه الله عز وجل فقال : ((أيود احدكم ان يعمل عمره بعمل أهل الخير، وأهل السعادة حتى اذا كان أحوج ما يكون الى ان يختمه بخير حين فنى عمره واقترب أجله، ختم ذلك بعمل من أعمال أهل الشقاء فأفسده كله، فحرقه أحوج ما كان اليه.(٢)

ومنها تفسيره ايضاً لقوله تعالى :

---

(١) سورة البقرة الآية / ٢٦٦.

(٢) خطوات التفسير البياني للدكتور محمد رجب البيومي ص ١٩ نقلاً عن تفسير ابن جرير ٣/٤٧.

«وفرعون ذي الاوتاد»[1] قال : الاوتاد اي الجنود الذين يشدون له امره ويقال كان فرعون يوتد ايديهم وارجلهم على اوتاد من حديد يعلقهم بها[2].

ومنها ماروى عن الامام علي في تفسير قوله تعالى :

«وأتموا الحج والعمرة لله ان اتمامها ان تحرم بها من دويرة أهلك».[3]

ومنها ما روى عن السيدة عائشة (رضي الله عنها) لما سألها ابن أختها عروة بن الزبير عن قوله تعالى :

«وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع : فقالت يا ابن اختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله، ويعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره : فنهوا عن ان ينكحوهن الا أن يقسطوا لهن ويبلغوا لهن أعلى سنتهن في الصداق، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن.[4]

---

(١) سورة الفجر الآية /١٠.

(٢) تفسير الطبري ١١٤/٣٠ وتفسير ابن كثير ٤١٩/٨.

(٣) تفسير القرطبي ٧٣٩/١ طبع دار الشعب.

(٤) صحيح البخاري كتاب التفسير ، سورة النساء باب وأن خفتم الا تقسطوا في اليتامى ٥٣/٦ - ٥٤.

د-اما تفسير التابعين، فمن امثلته ما رواه الرضا عن ابيه عبد الله (رضى الله عنه) في تفسير قوله تعالى :

«والمستغفرين بالاسحار» اي المصلين وقت السحر[١].

ومنها تفسير سعيد بن جبير لقوله تعالى :

«ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب» فقد فسره بقوله : لا تتبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالهم.[٢]

ومنها ما روى عن الامامين محمد الباقر وجعفر الصادق في تفسير وقت الانصات في قوله تعالى :

«واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون [٣] بأنه اذا كنت خلف الامام، تأتم به فأنصت وسبح في نفسك، وفي قول آخر لابي عبد الله (رضى الله عنه)(يعني الامام الصادق) انه يجب الانصات للقرآن في الصلاة وغيرها قال ذلك على وجه الاستحباب.[٤]

ومنها تفسير مجاهد وسعيد وابن سيرين لقوله تعالى :

«ولا تأكلوا اموالهم الى اموالكم» بأنه لا تخلطوها فتأكلوها جميعا.[٥]

---

(١) مجمع البيان للطبرسي ٤١٩/١.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٩٤/١.

(٣) سورة الاعراف الآية /٢٠٤.

(٤) مجمع البيان ٥١٥/٢.

(٥) تفسير ابن كثير ٤٩٤/١.

ومنها تفسير مجاهد بقوله تعالى :

«ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة»[1] اي لا تمنعكم النفقة في حق خيفة العيلة.[2]

ومنها تفسير مجاهد ايضاً لقوله تعالى :

«ولا تمنن تستكثر»[3] اي لا تضعف ان تستكثر من الخير[4].

فالتفسير بالمأثور قديم نشأ من عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكان المفسرون من الصحابة والتابعين يلتزمون به، ولا يقولون باجتهادهم في اية من الايات او كلمة من الكلمات الا ما اخذوا عن رسول الله، وما علموه من لغات العرب وثبت عندهم استعماله في أكثر الاحيان، والا اجتهدوا.

ومن اصح التفاسير بالمأثور التي تجمع بين اقوال الرسول واصحابه من اهل البيت وغيرهم، تفسير جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري

المتوفى سنة ٣١٠هـ وتفسير بحر العلوم للسمرقندي المتوفى سنة ٣٧٣هـ وتفسير الكشف والبيان في تفسير القرآن لابي اسحق احمد بن

---

(١) سورة البقرة الآية /١٩٥.

(٢) تفسير مجاهد ١/٩٩ طبع مجمع البحوث الاسلامية اسلام آباد تحقيق عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي.

(٣) سورة المدثر الآية /٦.

(٤) تفسير مجاهد ٢/٧٠٣

ابراهيم الثعلبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٧هـ والتبيان في تفسير القرآن للطوسي المتوفى سنة ٤٦٠هـ، ومعالم التنزيل لمحيي السنة البغوي المتوفى سنة ٥١٠هـ والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الاندلسي المتوفى سنة ٥٤٦هـ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ والجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي الجزائري المتوفى سنة ٨٧٥هـ، والدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ. وبحر العلوم للامام السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٣هـ وقبل سنة ٣٧٥[1] واسباب النزول للواحدي علي بن احمد المتوفى سنة ٤٦٨ والناسخ والمنسوخ لابي جعفر النحاس احمد بن محمد بن اسماعيل الصفار المرادي المتوفى سنة ٣٣٨هـ.

---

(١) انظر كشف الظنون ٢/١١٨٧.

المآخذ الموجهة الى التفسير بالمأثور

ان التفسير الاثري المنسوب الى النبي (صلى الله عليه وسلم) والى أصحابه من أهل البيت وغيرهم كعلي وابن عباس وابن مسعود والمنسوب كذلك الى بعض التابعين كمجاهد وقتادة والامامين محمد الباقر وجعفر الصادق ومسروق وسعيد بن جبير والحسن البصري وغيرهم كان مرويا بالاسناد، والطابع الغالب على هذا التفسير الصحة، لانه اما تفسير قرآن بقرآن، او قرآن بسنه ثبتت صحتها عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) سندا ومتنا او تفسير قرآن باقوال الصحابة وتابعيهم، لان الصحابي كان اذا لم يجد تفسيرا بالقرآن الكريم او السنة المطهرة اجتهد رأيه مستعينا على ذلك بقوة فهمه للغة العربية وادراكه لاسرارها، ومعرفته لعادات العرب واخلاقهم، وفقهه لاسباب النزول والمامه بما أحاط بالقرآن من ظروف ومناسبات، ولكن هذا النوع من التفسير قد تأثر بالبيئة التي أحاطت بالمسلمين وخاصة بعد اسلام الكثير من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام[1].

---

(١) عبد الله بن سَلام : هو أبو يوسف عبد الله بن سلام بن الحارث من بني قينقاع، أسلم اول ما دخل النبي المدينة فروى عنه في التفسير روايات اسرائيلية وقد اجتمع لديه علم التوراة وعلم القرآن وقد اتخذ اسمه لترويج فكرة معينة اوأشاعة خبر معين ولهذا نسب اليه كثير من الاخبار تحتاج الى تحقيق والرجل مسلم جيد الاسلام ولا يمكن ان يكون عبد الله قد اسلم خداعا ولهذا اثنى عليه العلماء.

وكعب الاحبار[١] ووهب بن منبه[٢] وكان هؤلاء اذا سئلوا عن الانبياء والامم الغابرة التي ذكرها القرآن بايجاز لغرض العظة والعبرة، أفاضوا في شرحها كما وردت في التوراة والانجيل وفصلوها بجزئياتها، والنفس تميل دائما الى الاستيعاب والاستقصاء من كل ناحية مستندين في ذلك الى قوله (صلى الله عليه وسلم) : (بلغوا عني ولو اية، وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار[٣].

وقد فهم الصحابة والتابعون هذا الحديث فهما تاما لهذا ما كانوا يأخذون من اهل الكتاب الا ما يتفق وعقيدتهم ولا يتعارض مع القرآن ومراميه، كما انهم لم يخالفوا قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : (لا تصدقوا اهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل الينا، وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له

---

(١) هو كعب بن مانع بن عمرو بن قيس وكان يهوديا في حياة النبيعالما بكتبهم ولهذا لقب بالحبر الذي جمعها احباروكان اسلامه في خلافة عمر وحسن اسلامه وقد نسبت اليه اسرائيليات كثيرة ولا يمكن تصديق هذه النسبة الا بعد التحقيق منها.

(٢) وهب بن منبه الصنعاني اليمني وهو من خيار التابعين ولد في آخر خلافة عثمان وثقه الجمهور وضعفه بعضهم لكثرتما اسند اليه من اسرائيليات والقرآن منها برئ لذلك ينبغي الرجوع الى هذه الروايات بالنقد والتمحيص لمعرفة الصحيح من الموضوع.

(٣) سنن الترمذي ١٤٧/٤ نشر محمد عبد المحسن ، طبع المطبعة السلفية بالمدينة المنورة. ومقدمة في اصول التفسير ص ٩٨.

مسلمون.[1]

وقد يبدو لبعض الناس أن بين الحديثين شيئا من التعارض ولكن من يدقق النظر لا يجد اي تعارض بينهما، لان الاول اباح للصحابة ان يتحدثوا عما وقع لبني اسرائيل من وقائع عجيبة بشرط ان تكون الواقعة صادقة لما فيها من العبرة والعظة وموافقة لمعاني القرآن الكريم، وليس من المعقول ابدا ان يبيح النبي (صلى الله عليه وسلم) رواية المكذوب وهو المعصوم من الكذب.

وأما الحديث الثاني فالمراد منه التوقف عند كل ما يحدث به أهل الكتاب مما يحتمل الصدق والكذب، اذ ربما كان الحديث صدقا فيكذبونه او كذبا فيصدقونه فيقعون حينئذ في الحرج، وقد أكد الشافعي رحمه الله هذا الفهم فقال: من المعلوم ان النبي (صلى الله عليه وسلم) لا يجيز التحدث بالكذب فالمعنى حدثوا عن بني اسرائيل بما لا تعلمون كذبه، اما ما تجوزونه فلا حرج عليكم في التحدث عنه.[2]

فموقف الصحابة من الرجوع الى اهل الكتاب هو التحري عن الصواب ما استطاعوا ونبذ ما خالف شرعنا لانهم في حل من تكذيبه، ولكن، على الرغم من صحة هذا الموقف في اخذ الصحيح من بني اسرائيل

---

(١) فتح الباري ١٧/١٠١،. انظر التفسير والمفسرون ١/ ١٧٠ ومقدمة في اصول التفسير ص ٥٧ هامش.

(٢) انظر فتح الباري ٦/ ٣٢٠ ومقدمة ابن تيمية هامش ص ٩٨.

فانه كان البداية في تسرب الاسرائيليات الى تفسير القرآن الكريم ولو على نطاق ضيق جدا، مما ادى الى بداية ضعف الثقة في التفسير بالمأثور.

اهم اسباب الضعف بالمأثور

لما انقضى عصر الصحابة، واقبل عهد التابعين تساهل بعضهم كقتادة ومسروق ومجاهد في الاخذ عن اهل الكتاب فازداد دخول الاسرائيليات في تفاسيرهم فكان فيها الصحيح والحسن والضعيف، وقد علل ابن خلدون قبول هذه النقول عن بني اسرائيل وأوعزها الى اعتبارات اجتماعية ودينية فقال ((والسبب في ذلك ان العرب لم يكونوا اهل كتاب ولا علم، وانما غلبت عليهم البداوة والامية، واذا تشوقوا الى معرفة شئ مما تشوق اليه النفوس البشرية في اسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فانما يسألون عنه أهل الكتاب ويستفيدون منهم، ثم يذكر من الاعتبارات الدينية أن مثل هذه المنقولات مما لا تعلق له بالاحكام الشرعية التي يحتاطون لها))[1].

وهذه الاسرائيليات[2] كانت تدور حول كثير من القصص والشخصيات المذكورة في القرآن، ولها ذكر في الكتب التي كانت متداولة في ايدي اهل الكتاب ولكنها لم تكن مكتوبة بالعربية فاذا سألهم المسلمون عنها للاستفادة منها في تفسير القرآن الكريم قرأها اليهود بالعبرانية

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٩، المطبعة التجارية الكبرى بالقاهرة .

(٢) الاسرائيليات : جمع مفردة اسرائيلية وهي كل ما تطرق الى التفسير والحديث من اساطير منسوبة الى اصل يهودي أو نصراني .

وفسروها لسائلين بالعربية، ولم يكن لدى المسلمين حينذاك الوسيلة للتأكد من صدقهم في الترجمة او تحريفهم لها وهذا مما لا يمنع اليهود من الاسترسال في الشرح، والافاضة في التعليق عليها من عند انفسهم، فكان المسلمون السائلونَ يستأنسون بهذه الاسرائيليات في تفسير بعض ما أجمل في القرآن الكريم، وهكذا نمت الاسرائيليات، وشغلت جزءا كبيرا من تفاسيرنا، ومعظمها كان يدور حول أصل الخليقة، وقصص القرآن كقصة أصحاب الكهف، ولون كلبهم وعددهم، وعصا موسى من أي الشجر ؟ وحول أسماء الطيور التي أحياها الله تعالى لابراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله فيها موسى وقصة يوسف (عليه السلام)[١] وقصة الخلاف الذي وقع بين ابني آدم[٢] وقصة الهدية المرسلة من ملكة سبأ الى النبي سليمان (عليه السلام)[٣] الى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن مما لا فائدة من تعيينه[٤].

وهكذا كان للاسرائيليات اكبر الاثر في ضعف التفسير بالمأثور، وبعد عصر التابعين وتابعيهم، انقسم المسلمون الى أحزاب، وظهرت الفرق

---

(١) انظر معالم التنزيل ٣/٢٧٥ للبغوي الطبعة الثانية على هامش الخازن سنة ١٩٥٥ بالقاهرة.

(٢) انظر المرجع السابق ٢/٣٨-٣٩.

(٣) انظر المرجع نفسه ٥/١٤٥-١٤٧.

(٤) انظر مقدمة في اصول التفسير ص ١٠٠ والاسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص ٢٢٤-٢٦٦.

المذهبية وبرزت الخلافات السياسية ولعبت دورا خطيرا في تشويه الاسلام، وتفرقة المسلمين حتى ان بعضهم سولت لهم انفسهم ان يضعوا ما يشاؤون من احاديث واقاويل تؤيد مذاهبهم كالخوارج[١] والقدرية[٢] والمرجئة،[٣] والكرامية[٤]، والباطنية[٥]، ففسروا آيات من القرآن الكريم بخرافات واباطيل ما أنزل الله بها من سلطان كما فسروا بعض الالفاظ القرآنية بغير مدلولاتها.[٦] مما كان له اثره الكبير في ضعف الثقة بالمأثور، هذا من جهة، ومن جهة اخرى فقد استغل هذا الانقسام اعداء الله الزنادقة من اليهود والفرس والروم الذين هدم الاسلام مصالحهم لباطلهم فراحوا يتسترون بالاسلام ويضمرون له الشر والكيد والعداوة فانفسح لهم المجال بالدس في الرواية الاسلامية المروية بعد ان عجزوا عن مواجهة الاسلام بالسنان والحجة والبرهان، وبذلك توصلوا الى بعض أغراضهم الدنيئة عن طريق الوضع والاختلاق والدس فيما روى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم)

---

(١) فرقة ظهرت في عصر علي كانت من انصاره ثم خرجت عليه وكفرته لانه قبل التحكيم.

(٢) قوم كانوا يخوضون في القدر مع نهى النبي عنه مع وجوب الايمان به.

(٣) جماعة من المسلمين يقولون ان أمر مرتكب الكبيرة يرجا الى الله تعالى يوم القيامة.

(٤) الكرامية : هم اصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام وقد كان يثبت الصفات الله، الا انه ينتهي فيها الى التجسيم والتشبيه، انظر : الملل والنحل للشهرستاني ١/١٤٤.

(٥) فرقة من فرق الشيعة الاسماعيلية سميت بالباطنية لاتجاههم الى الاستخفاء عن الناس.

(٦) انظر امثلة ذلك في مقدمة في اصول التفسير ص ٨٧.

واصحابه والتابعين. قال حماد بن زيد : وضعت الزنادقة اربعة عشر الف حديث، ولما

جئ بعبد الكريم بي أبي العوجاء خال معن بن زائدة الذي قتله محمد ابن سليمان بن علي العباسي أمير البصرة بعد سنة ١٦٠هـ في زمن المهدي اعترف حينئذ بوضع اربعة الاف حديث يحرم فيها الحلال، ويحلل فيها الحرام وكان عبد الكريم هذا متهما بالمانوية[١]، وكان يضع احاديث بأسانيد يغتر بها من لا معرفة له بالجرح والتعديل، وتلك الاحاديث ضلالات في التشبيه والتعطيل وبعضها بعيد عن احكام الشريعة.[٢]

ويقول ابن قتيبة : الحديث مدخله الشوب والفساد من وجوه ثلاثة : الزنادقة، واجتيالهم للاسلام، وتهجينه ببث الاحاديث المستبشعة والمستحيلة.[٣]

ولا يخفى علينا ما لهذه الموضوعات من اثر كبير في ضعف التفسير بالمأثور حيث ان كثيرا من خرافات الزنادقة واباطيلهم مما هو مسطور في كتبهم قد دسوها في المرويات الاسلامية وفسروا بها بعض الايات القرآنية

---

(١) المانوية : فرقة من فرق المجوس نسبة الى ماني بن فاتك الحكيم الذي ظهر في زمان شابور بن ازد شير وكان دينه مزيجا من المجوسية والنصرانية. الملل والنحل للشهرستاني ٢/٧٤/٧٥.

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٢٥٦ نقلا عن الاسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص ١٢٤.

(٣) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٣٥٥.

ونسبوها الى النبي واصحابه والتابعين زورا وبهتانا.

نخلص مما مضى الى ان اهم اسباب الضعف التي طرأت على التفسير بالمأثور هي :

١- الاسرائيليات : وهي كل ما تسرب الى التفسير والحديث من أساطير قديمة منسوبة في اصل رواياتها الى مصدر يهودي او نصراني.

٢- ما دسه الزنادقة الذين يتسترون بلباس الاسلام من الفرس والروم.

٣- ما وضعه ضعفاء الايمان من الفرق الاسلامية، تأييدا لمبادئهم.

نقد العلماء المسلمين للتفسير بالمأثور

ولما حل عصر التصنيف، ودون فيه ما نقل عن الصحابة والتابعين بالاسناد وجد العلماء بجانب هذه الثروة المثرية روايات منسوبة الى بعض الصحابة والتابعين واتباعهم كابن عباس وقتادة والسدى وعكرمة ومجاهد وغيرهم، من غير اسناد صحيح، ولا سيما فيما يتصل بالآيات الكونية وبقصص الانبياء، وبكل وصف يتناول القرآن وصفه، لذلك انصب النقد على هذا اللون من التفسير بسبب وجود هذه الظاهرة الضعيفة ولقي هجوما عنيفا من بعض الائمة، فهذا الامام الشافعي يقول : لم يثبت عن ابن عباس في التفسير الا شبيه بمائة حديث[1].

واما الامام مالك فقد شكك في بعض روايات التفسير عن قتادة :

---

(١) الاتقان ٢/٢٢٥.

فكان لا يروي عنه في التفسير ولا يروي عمن يراه يروي عن قتادة[1] ويقول الامام أحمد بن حنبل : ثلاثة ليس لها أصل، التفسير والملاحم والمغازي[2].

وعلى الرغم مما في هذا النقد من مبالغة فان كلمتي الامامين مالك والشافعي تدلان على كثرة ما وضع على ابن عباس وقتادة والصق بهما زورا وبهتانا، ويريد أحمد بن حنبل من التفسير هنا التفسير الذي ليس له اصل، اي ليس له اسانيد صحيحة متصلة او لأن الغالب عليه المراسيل، ومعنى هذا ان كثيرا مما روى من هذا النوع تتوجه اليه أصابع الاتهام والشك بسبب ما أدخله القصاص من بني اسرائيل والوضاع من الزنادقة وأهل الفرق على التفسير بالمأثور مما ليس بصحيح ولا علاقة له بالتفسير، وقد ذكرت انفا ما دارت حوله الاسرائيليات ومن يريد الاطلاع بصورة

---

(١) مناهج المفسرين مقالة للمرحوم محمد ابو زهرة، منشورة في مجلة لواء الاسلام العدد ٨ السنة ٥.

(٢) مقدمة في اصول التفسير ص ٥٩، وقد شك بعض الدارسين المحدثين في صحة هذه العبارة المنسوبة الى الامام أحمد (انظر السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي للدكتور مصطفى السباعي ص ٢٢١، مطبعة المدنى).

وفي رأيي ان الواقع يؤكد صحة هذه العبارة، ونسبتها الى الامام أحمد لان العصر الذي عايشه كان ينطبق عليه ما قاله، لكثرة ما دسه المتسترون بالاسلام من الزنادقة واليهود والفرس والروم في التفاسير والحديث، لذلك قال ابن قتيبة :

الحديث مدخله الشوب والفساد من وجوه ثلاثة : الزنادقة واجتيالهم للاسلام وتهجينه ببث الاحاديث المستبشعة والمستحيلة كالاحاديث، عرق الخيل، وعبادة الملائكة، تأويل مختلف الحديث ص ٣٥٥ نقلا من كتاب الاسرائيليات والموضوعات لمحمد محمد ابو شهبة ص ١٢٣.

واسعة على الاسرائيليات والموضوعات فليراجع كتاب الاسرائيليات في كتب التفسير[1] ليكون القارئ على بينة.

ولما جاء القرن الثالث وقف المفسرون ازاء هذه الاسرائيليات والموضوعات فريقين :

الاول : اقتصر على الاثار ولم يتجاوزها الا قليلا وعلى رأس هؤلاء ابن جرير الطبري فهو ينتقي منها ما يراه انسب للقرآن، وأقرب الى اللغة العربية الصحيحة، وما يتفق مع جملة المأثور عن النبي (صلى الله عليه وسلم) من أحوال وأعمال وأقوال، وما عرف من هذا الدين بالضرورة ولم يتقيد في الرواية بما قيد به المحدثون انفسهم من تحري السند تحريا دقيقا بل تساهل قليلا في ذلك مما سمح بدخول بعض الخلط الاسرائيلي في قصة زيد وزينب بنت جحش.

الثاني : التزم طريقة السلف، واجتهد في انتقاء الرواية، وحاول دراسة الاسانيد وان لم يتقيد تقييدا مطلقا بنقد الرواية في الحديث، وعلى رأسهم ابن كثير، فقد عني بالنقد والفحص اكثر من غيره ولذلك رد كل روايات ابن جرير في قصة زيد وزينب، وبهذه الطريقة استطاع سلفنا الصالح ان يميز الاصيل من الدخيل، والصحيح من الموضوع، وان يطهر تلك المجموعة الاثرية من التفسير بالمأثور مما اقترن بها من اسرائيليات، وموضوعات شوهت جمالها وعكرت نقاءها وكانت ثغرة نفذ منها المستشرقون الى الطعن في تراثنا.

---

(١) انظر كتاب الاسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير للدكتور الشيخ محمد محمد ابو شهبة، ص ٢٢٤-٤٦٧، طبع الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية بالقاهرة.

الثاني : التفسير بالرأي

بعد انقضاء عصر الرسالة ابتدأ بجانب التفسير بالمأثور ظهور نوع آخر من التفسير يقيم للرأي الصحيح وزنا، وللعقل الصائب اعتبارا وهو التفسير بالرأي والمسمى بالتفسير العقلي، ولكن على نطاق ضيق جدا، لان التفسير بالرأي في الصدر الاول كان موضع تحرج حتى في تفسير الالفاظ كما سنرى ذلك بعد قليل.

وقد تجلى هذا النوع من التفسير واضحا في تفسير ابن عباس حينما كان يعتمد على الشعر العربي في التفسير اللغوي باطلاقه العام وقد أثر عنه أنه قال : اذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فان الشعر ديوان العرب[1] وقال ايضا : اذا تعاجم شئ من القرآن فانظروا في الشعر فان الشعر عربي[2] فقد اورد السيوطي في الاتقان معظم الاجوبة التي سأل عنها نافع بن الازرق عبد الله ابن عباس مشفوعة بما يصدقها من شعر العرب منها ما يلي :

قال : اخبرني عن قوله تعالى :

«شرعة ومنهاجا» قال : الشرعة الدين والمنهاج الطريق.

قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم اما سمعت ابا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو يقول :

---

(١) تفسير القرطبي ٢١/١.

(٢) قصة التفسير للدكتور احمد الشرباصي ص ٦٦.

لقد نطق المأمون بالصدق والهدى وبين للاسلام دينا ومنهجا

ومنها :

قال : أخبرني عن قوله تعالى :

«اذا أثمر وينعه» قال نضجه قال : وهل تعرف العرب ذلك قال نعم، اما سمعت قول الشاعر :

اذا مشت وسط النساء تأودت كما اهتز غصن ناعم النبت يانع[1]

كذلك صدر عن ابي عباس وتلاميذه ما يسمى بالتفسير البياني بروحه ومرماه قبل تحديد تعريفه، وبيان مصطلحاته التي تأخر تأصيلها العلمي الى ما بعد عهده بزمن طويل ومن ذلك على سبيل المثال تفسيره لقوله تعالى :

«كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه».

قال ابن عباس : مثل المشرك الذي عبد مع الله الها اخر كمثل العطشان ينظر الى خياله في الماء من بعيد يريد تناوله فلا يقدر[2].

وكذلك اتجه ابن عباس الى عادات العرب قبل الاسلام لأن منها ما يستعين به على التفسير، فمن ذلك على سبيل المثال تفسيره لقوله تعالى :

«يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرها» قال : كان

---

(١) الاتقان ١٢٢/١.

(١) خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، للدكتور محمد رجب البيومي، ص ٣٢ نقلا عن معجم غريب القرآن.

الرجل اذا مات أبوه فهو أحق بامرأته ان شاء امسكها او حبسها حتى تفتدي منه بصداقها. أو تموت فيذهب بمالها.[1]

وقد حذا حذوه في التفسير بالرأي تلميذه مجاهد، فقد فسر قوله تعالى :

«وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة» بأن المراد بالنظر هنا ليس النظر بالعين بل هو الرغبة في انتظار جزاء الله، وقد ارتضى هذا التفسير الشريف المرتضى في كتابه امالي المرتضى فقال : ان الاية هنا تحمل على انه اراد النظر الى نعمة الله[2].

وهذا هو مذهب المعتزلة ايضا حيث يرون ان رؤية الله مستحيلة، ولكن اهل السنة يرون ان الرؤية التي أخبر الله عنها حاصلة يوم القيامة كما دل على ذلك كثير من الاحاديث الصريحة وذلك على سبيل التمثيل لا الحصر ما رواه جرير بن عبد الله (رضي الله عنه) قال : كنا عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنظر الى القمر ليلة البدر وقال في جواز رؤية الله يوم القيامة : (انكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر، ولا تضامون في رؤيته[3] ولكنها رؤية لا يعرف كنهها. كذلك يرى مجاهد ان المراد بقوله تعالى :

---

(١) تفسير الطبري ٢٠٨/٤. وانظر صحيح البخاري ٥٥/٦.

(٢) الامالي في التفسير والحديث والادب لابي القاسم احمد الحسين ٤٨/١، الطبعة الاولى، مطبعة السعادة سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م.

(٣) صحيح البخاري ١٦٨/٨ ونزهة المتقين شرح رياض الصالحين ١٢٩٤/٢.

«فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين»[1] فان المسخ في نظره لم يقع على أجسامهم بل على قلوبهم فصارت لهم نفوس قردة والمعنى ضربت عليهم الذلة والمسكنة فحالهم حال القردة الخاسئين. وهذا تفسير يخالف التفسير المشهور هو ان المسخ وقع بالفعل على أجسامهم وحواسهم[2].

ولما تقدم الزمن وحل القرن الثالث اتسع التفسير بالرإي، فكان على شكل محاولات شخصية اولا قام بها الطبري شيخ المفسرين في ترجيح بعض المنقولات على بعض بالرجوع الى اللغة تارة والى ما عرف من عادات العرب تارة اخرى، واهتمامه بالاحكام النحوية، والاستنباطات الفقهية واعتماده في ذلك على البحث الحر، والتأمل الدقيق في احتكامه الى المعروف من كلام العرب والرجوع الى شعرهم بشكل واسع متأسيا في هذا المسلك بعمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم، وليس هذا في الحقيقة الا مظهرا من مظاهر التفسير العقلي ثم تتابع المفسرون في السير بهذا النوع من التفسير بين ثنايا المنقول حتى كثر التفسير العقلي وصار النقلي فيه قليلا، ونرى هذا واضحا في مدرسة المعتزلة التي يرأسها الزمخشري صاحب الكشاف، وغيره ممن جرى على منواله، وقد توسعوا كثيرا وكان لهم الفضل في احياء الكثير من المفردات اللغوية والشواهد الشعرية، والقواعد النحوية والوجوه البلاغية في اعجاز القرآن الكريم، والى هذين النوعين من التفسير يشير ابن خلدون في مقدمته فيقول ((صار

---

(١) سورة البقرة الآية / ٦٥.

(٢) انظر تفسير الطبري ٢٥٣/١.

التفسير على قسمين تفسير تقلي مستند الى الآثار المنقولة عن السلف، والصنف الآخر من التفسير وهو ما يرجع الى اللسان من معرفة اللغة والاعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والاساليب، وهذا الصنف من التفسير قل ان ينفرد عن الاول اذ الاول هو المقصود بالذات، وانما جاء هذا بعد ان صار اللسان وعلومه صناعة، نعم قد يكون في بعض التفاسير غالبا، ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا اللون من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري[1].

وقد استمر هذا النوع من التفسير بالرأي السديد وظل هو الغالب حتى عصرنا هذا بفضل ما بذله المفسرون من جهد واخلاص في خدمة القرآن الكريم.

ويبدو لي ان الذي دفع المفسرين الى التوسع في هذا النوع من التفسير اربعة دوافع هي :

اولا – ان التفسير بالمأثور لم يغط كل الايات القرآنية اذ كان يهمل بعضها لعدم ورود النقل الصحيح فيها فكان الناس بحاجة الى من يفسرها.

ثانيا – لما ضعفت السليقة العربية في العصور التي تلت القرن الثالث بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الامم التي دخلت الاسلام أدى الى ضعف الاساليب العربية وغموض بعض تعابيرها والقرآن كما نعلم في أعلى درجات البلاغة، يجمع المعاني الكثيرة في الالفاظ القليلة فكان الناس بحاجة الى بسط ما أوجز والكشف عما أجمل.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٩.

ثالثا – ان الخلاف المذهبي بين الفرق الاسلامية التي ظهرت دفعهم الى تلوين التفسير باللون المذهبي فكانت كل فرقة تفسر بعض آيات القرآن بما يتفق مع عقائدها وينسجم مع أهدافها مبطلة بذلك تفسير الفرق الاخرى.

رابعا – ان تطور العلوم وتقدمها في عصرنا الحاضر يقتضي ان تفسر بعض الايات العلمية والكونية والنفسية بحسب مستوى تطورنا العلمي، فنحن نعيش في عصر برزت فيه مشكلات متجددة ومسائل اجتماعية مستحدثة لا تزال تتحدانا للنظر في حلها ولم ينقل الينا فيها عن السلف تفسير، لأنها لم تظهر في عصرهم، فالاقتصار على التفسير بالمأثور فاسد، ويبين لنا القرطبي هذا المعنى فيقول : اما قول بعض العلماء ان التفسر موقوف على السماع لقوله تعالى :

«فان تنازعتم في شئ فروده الى الله والرسول[١] فاسد، لأن النهي عن التفسير لا يخلو اما ان يكون المراد به الاقتصار على النقل المسموع وترك الاستنباط او المراد به أمر آخر، وباطل ان يكون المراد به ان لا يتكلم احد في القرآن الا بما سمعه فان الصحابة (رضي الله عنهم) قرؤوا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه وليس كل ما قالوه سمعوه من النبي (صلى الله عليه وسلم)[٢] فاذن لابد من التفسير بالرأي السديد والعقل السليم والعلم الثابت ثبوت اليقين.

وهكذا اتسع التفسير بالرأي فكان هو الغالب الى عصرنا هذا.

---

(١) سورة النساء الآية / ٥٩.

(٢) تفسير القرطبي ٢/٣٣.

اختلاف العلماء في جواز التفسير بالرأي

لقد بدأ الخلاف بين العلماء في جواز التفسير بالرأي منذ عصر الصحابة وانقسموا الى فريقين :

فالفريق الاول - ذهب الى انه لايجوز لاحد ان يجرأ على تفسير شيء من القرآن مالم يرد فيه قول للنبي صلى الله عليه وسلم او للصحابة وان كان عالماً متبحراً في معرفة الادلة الفقهية والعلوم العربية والاخبار.

اما الفريق الثاني، فقد ذهب الى جواز التفسير بالرأي الصحيح والاجتهاد السديد ولكل فريق ادلة فيما ذهب اليه نجملها على الوجه الآتي :

اولا - ادلة المانعين :

لقد احتج المانعون بالكتاب والسنة واقوال الصحابة والتابعين

اما الكتاب فقوله تعالى :

«فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول»[1] اي ان التفسير موقوف على السماع.

واما السنة فاحاديث كثيرة، منها ما رواه ابو داود والترمذي والنسائي:

ان النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ)[2] ومنها ما رواه ابن عباس عنه (صلى الله عليه وسلم)

---

(١) سورة النساء آية / ٥٩.

(٢) مقدمة في اصول التفسير ص ١٠٦.

انه قال (من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار)[1].

واما اقوال الصحابة فمنها ما روى عن ابي بكر (رضي الله عنه) انه قال :

حينما سئل عن معنى الاب في قوله تعالى :

«وفاكهة وابا» إي ارض تقلني واي سماء تظلني ان انا قلت في كتاب الله برأيي او بما لا اعلم[2]. وورد عن علي (رضي الله عنه) انه قال : ((لو كان الدين بالرأي لكان اسفل الخف اولى بالمسح من اعلاه))[3] الى غير ذلك من الاقوال التي وردت عن الصحابة (رضوان الله عليهم).

ومن اقوال التابعين قول الشعبي : والله ما من اية الا وقد سألت عنها، ولكنها الرواية عن الله تعالى[4]، وقال مسروق : اتقوا التفسير فانما هو الرواية عن الله تعالى[5]. لذلك لم يتصدوا لتفسيره تحرجاً، او لعدم حاجتهم في ذلك الوقت، لأن الوحى قريب العهد اليهم، ولا زالت معاني الذكر الحكيم تطوف في اذهانهم ماثلة في عقولهم.

ثانيا - ادلة المجوزين :

أما المجوزون فقد استدلوا بما يأتي :

---

(١) المرجع نفسه ص ١٠٥ ، واعلام الموقعين ١/ ٥٩.

(٢) مقدمة في اصول التفسير ص ١٨ ، واعلام الموقعين ١/ ٥٤.

(٣) اعلام الموقعين ١/ ٥٨.

(٤) مقدمة في اصول التفسير ص ٨٣.

(٥) مقدمة في اصول التفسير ص ٣٨ ، وتفسير القاسمي ١/ ١٦٦.

١- يقول الله تعالى :

«كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا اياته وليتذكر أولوا الالباب[١]، فتدبر الآيات لازم ليعرف ما فيها من أحكام ومواعظ

حتى يمكن العمل بموجبها، ولا يمكن تدبرها الا بفهم معناها، لانه لا يمكن ان يؤمر الناس بتدبرها دون أن يفهموها.

واما السنة فقد روى ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) دعا لعبد الله ابن عباس فقال : (اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل)[٢] وتأويل القرآن ليس الا فهمه الذي يُمنحه الله اياه.

واما قول الصحابة فقد روى أن عليا (رضي الله عنه) سئل هل خصكم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بشئ سوى القرآن فقال : ما عندنا غير ما في هذه الصحيفة او فهم يؤتاه الرجل في كتابه.[٣]

وما روى عن ابن عباس في معنى الحكمة التي جاءت في قوله تعالى:

«ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا»[٤] انه قال هي : التفسير، وهو فهم القرآن ولا يتوقف فهمه على المنقول من التفسير[٥].

---

(١) سورة ص آية /٢٩.

(٢) إحياء علوم الدين الغزالي ١/٢٨٩.

(٣) انظر فتح البازي ١٥/٢٨٥ - ٢٨٦.

(٤) سورة البقرة الآية /٢٦٩.

(٥) انظر في هذا الموضوع : إحياء علوم الدين للغزالي ١/٢٩١ - ٢٩٢.

وقد رد فريق المجوزين بالاضافة الى الادلة التي ذكرناها على أدلة المانعين بما يلي :

١- ان الدليل الاول غير صحيح، لان النهي عن تفسير القرآن لا يخلو اما ان يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط والاستقلال بالفهم او المراد به امر آخر وليس بصحيح ان يكون المراد به الا يتكلم أحد في تفسير القرآن الا بما سمعه، لان الصحابة أنفسهم قد فسروا بعض آيات القرآن واختلفوا في تفسيرها وليس كل ما قالوه قد سمعوه، ويمكن ان يحمل النهي على وجهين.

الوجه الاول - ان يكون المفسر له ميل من طبعه وهواه، فيتأول القرآن على وفق هواه محتجا بذلك على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الهوى لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى وهذا قد يكون مع العلم بأن المراد من الاية ليس ذلك كتفسير بعض الفرق لبعض الايات(٥) كالمعتزلة فقد فسروا قوله تعالى :

«وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة» بما يتمشى مع مذهبهم الذي ينفي جواز رؤية الله، ومن ذلك ايضاً تأويلهم المنحرف في تفسير قوله تعالى:

«وكلم الله موسى تكليما» التي تؤكد صفة الكلام لله تعالى، فقد بادروا الى تأويل هذا النص بما يتفق ومذهبهم فقرأوه هكذا «وكلم اللهَ موسى تكليما» بنصب لفظ الجلالة على انه مفعول ورفع موسى على انه فاعل! وبعض المعتزلة يبقى النص القرآني على قراءته المتواترة ولكنه يحمله على معنى بعيد حتى لا يبقى مصادماً لمذهبه فيقول : ((ان كلم من الكلم

بمعنى الجرح، فالمعنى وجرح الله موسى باظفار المحن ومخالب الفتن وهذا ليفر من ظاهر النظم الذي يصادم عقيدته ويخالف مذهبه.

الوجه الثاني - ان يسارع الى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغريب القرآن وما فيه من الالفاظ المبهمة والاختصار والحذف والاضمار والتقديم والتأخير، فالنقل والسماع لابد منه في ظاهر التفسير اولا ليتقي به مواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع للرأي والاجتهاد والاستنباط[1].

٢- وقالوا عن الدليل الثاني : بأن الحديث الاول في صحته وثبوته نظر لان احد رواته وهو سهيل بن ابي حزم القطعي[2] قد تكلم فيه، فقد قال الترمذي عنه : غريب.

وعلى فرض صحة الحديثين والتسليم بهما فقد أجاب عنهما العلماء بما يأتي :

أ- يحمل الحديثان على من يريد ان يفسر القرآن بمجرد رأيه وهواه، ولم يأخذه عن السلف، ومن غير ان يعرف من العلوم اللغوية والشرعية ما يؤهله لهذا فمثل هذا وان اصاب فقد اخطأ.

ب- يحمل الحديثان على كل من يفسر المتشابه الذي لا يعلمه الا الله تبارك وتعالى، ولهذا قال ابو جعفر الطبري : ان ما كان من تأويل اي

---

(١)انظر : تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٤٨/١. واحياء علوم الدين ٢٩١/١. الاتقان ٢١٢/٢.

(٢) انظر : مقدمة في اصول التفسير ص ١٠٧.

القرآن الذي لا يدرك علمه الا بنص بيان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) او بنص به الدلالة عليه فغير جائز لاحد القول فيه برأيه، بل القائل في ذلك برأيه وان اصاب الحق فيه فمخطئ لان اصابته ليست اصابة موقن انه الحق، وانما هي اصابة خارص وظان، والقائل في دين الله بالظن قائل على الله بما لا يعلم وقد حرم الله جل ثناؤه ذلك في كتابه على عباده وهذا هو معنى : من قال في القرآن برأيه فاصاب فقد اخطأ، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار[1].

٣- وأجابوا عن الدليل الثالث بقولهم : ان الذين أحجموا عن القول في القرآن وتفسيره من السلف انما كان احجامهم عنه حذرا الا يبلغ أداء ما كلفوا به من اصابة صواب القول فيه، لاعلى ان تفسير ذلك محجوب عن علماء الامة وقد وضح ذلك ابو بكر الانباري قائلا : وقد كان الائمة من السلف الماضي يتورعون عن تفسير المشكل من القرآن فبعض يقدر ان الذي يفسره لا يوافق مراد الله عز وجل فيحجم عن القول، وبعض يشفق من ان يجعل في التفسير اماما يبنى على مذهبه، ويقتفى طريقه، فلعل متأخرا ان يفسر حرفا برأيه ويخطئ فيه ويقول : امامي في تفسير القرآن بالرأي فلان الامام من السلف[2]، فضلا عن ان هذه الآثار قد عورضت

---

(١) انظر : تفسير جامع البيان للطبري ٢٦/١، والجامع لاحكام القرآن للقرطبي ٣٢/١-٣٣ ومقدمة في اصول التفسير ص ١٠٥-١٠٨.

(٢) انظر : جامع احكام القرآن ٣٤/١ واحياء علوم الدين ٢١١/١ وجامع البيان ٢٩١/١.

بما يخالفها، فقد روى عن ابي بكر (رضي الله عنه) انه سئل عن الكلالة[١] فقال اني اقول فيها برأيي فان يكن صوابا فمن الله وان يكن خطأ فمني ومن الشيطان[٢].

ولما ولي الخلافة عمر (رضي الله عنه) قال : اني لاستحي ان اخالف ابا بكر في رأي[٣] رآه وهذا يدل على ان قوله : ((اي ارض تقلني واي سماء تظلني ... الخ انما أراد به ما لم يقم عليه دليل، وما لا علم له به، او تخوفا من ان لا يصيب مراد الله ويؤكد هذا الامام ابن تيمية فيقول : فهذه الآثار الصحيحة وماشاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه، ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم اقوال في التفسير ولا منافاة في ذلك لانهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل واحد، فانه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه لقوله تعالى :

«لتبيننه للناس ولا تكتمونه» ولما جاء في الحديث المروى من طرق عدة : من سئل عن علم فكتمه الجم يوم القيامة بلجام من نار[٤].

ولهذا وجدنا كثيرا من الصحابة يفسرون القرآن برأيهم كابن عباس

---

(١) الكلالة : من لا ولد له ولا والد.

(٢) اعلام الموقعين ٨٢/١ وتفسير القاسمي ١٦٤/١.

(٣) انظر الاتقان ١٧٩/٢-١٨٣.

(٤) مقدمة في اصول التفسير ص ١١٤-١١٥.

وعلي وابي بن كعب وابن مسعود وابي موسى الاشعري وكثير من التابعين كمجاهد وسعيد بن جبير ومسروق والشعبي وغيرهم.

هذه هي ادلة الفريقين، ومن يقف موقف المتأمل لا يرى فيما استدل به الفريق الاول ما ينهض حجة على القول بمنع التفسير بالرأي السديد، كما لا ينهض دليلا على وجوب الوقوف عند حد التفسير بالمأثور لان الاعراض عن بذل الجهد واعمال العقل في كتاب الله يؤدي الى عدم معرفة المراد من بعض آياته وعدم استنباطاحكامه، بهذا نقد الماوردي الفريق الاول الذين استدلوا بقوله (صلى الله عليه وسلم) : من تكلم في القرآن برأيه فاصاب فقد اخطأ قائلا : (قد حمل بعض المتورعة هذا الحديث على ظاهره، وامتنع من ان يستنبط معاني القرآن باجتهاده، ولو صحبتها الشواهد ولم يعارض شواهدها نص صريح، وهذا عدول عما تعبدنا الله بمعرفته من النظر في القرآن واستنباط الاحكام كما قال الله تعالى :

«لعلمه الذين يستنبطونه منهم» ولو صح ما ذهب اليه لم يعلم شئ من الاستنباط ولما فهم الاكثر من كتاب الله شيئا)[1].

نخلص مما مضى الى ان التفسير بالرأي السديد المعتمد على الدراية باللغة واساليبها وما يتصل بذلك من العلم بالاصول والفقه وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وغيرها هو الراجح، اذ لو لم نفسر القرآن بالرأي الصحيح والاجتهاد الصائب لاعرضنا عما تعبدنا الله به من النظر في آيات القرآن، واستنباط أحكامه، ولضاع معنى التدبر والتعقل الذي حثنا الله عليه

---

(١) البرهان ٢/١٦٢، الطبعة الثانية.

في آيات كثيرة منها قوله تعالى :

«افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب أقفالها»، ولما تمكنا من الوصول الى فقه ما اكتنف كتاب الله من اسرار علمية وكونية ونفسية، لهذا قال الامام الغزالي : ان في فهم معاني القرآن مجالا رحبا ومتسعا بالغا، وان المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الادراك فيه(١).

معنى هذا ان خير منهج لتفسير القرآن الكريم هو المنهج الذي يجمع بين هذين النوعين من التفسير. أي التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي السديد، وقد ازدهر هذا اللون من التفسير نتيجة لازدهار العلوم الاسلامية و تفرق العلماء فيها، فتعددت مؤلفاتهم ومن بينها التفاسير الأصيلة ألتي سندرس اهمها في مرحلة التأصيل في الفصل الثالث من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى اما من لم يكن تفسيره بالرأي مطابقاً للقواعد اللغوية ولا المبادئ الاسلامية فيرفض ويرد وذلك كمن خاض في تفسير ما استأثر الله بعلمه، او كان منحرفاً بأن يجعل المذهب اصلاً والتفسير تابعاً، او فسر مع القطع بان مراد الله تعالى في هذه الآية كذا وكذا من غير دليل، وكذلك كل تفسير قائم على الالحاد والزندقة كتفاسير الباطنية والقاديانية والبابية والبهانية، فكل تفسير صادر عن هؤلاء مصيره الرفض والبطلان لمخالفته للقواعد اللغوية والمبادئ الاسلامية.

---

(١) احياء علوم الدين ١/٢٩١-٢٩٢.

ومن التفاسير بالرأي :

١- انوار التنزيل واسرار التأويل للبيضاوي المتوفى سنة ٦٩١هـ.

٢- مدارك التنزيل واسرار التأويل للنسفي المتوفى سنة ٧٠١هـ.

٣- لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن المتوفى سنة ٧٤١هـ.

٤- البحر المحيط لابي حيان المتوفى سنة ٧٤٥هـ.

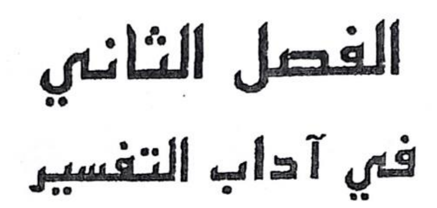
٥- غرائب القرآن وغرائب الفرقان للنيسابوري المتوفى سنة ٧٢٨هـ.

٦- السراج المنير في الاعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للشربيني المتوفى سنة ٩٧٧هـ.

٧- تفسير الجلالين لجلال الدين المحلي المتوفى سنة ٨٦٤ وجلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ.

٨- ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم لابي السعود المتوفى سنة٩٨٢هـ.

٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع الثاني للآلوسي المتوفى سنة ١١٢٧هـ.



ويشتمل على ثلاثة مباحث

المبحث الاول : في الآداب الموضوعية

المبحث الثاني : في الآداب النفسية

المبحث الثالث : في الآداب الفنية



المبحث الاول

في الآداب الموضوعية

القرآن كلام الله الخالد وتفسيره من أهم ما يجب الاعتناء به وان التعرف على آدابه وشروط تفسيره من الفروض التي ينبغي على كل مفسر الاهتمام بها حتى يصفو مشربه ويحفظ للنص القرآني روعته وجلاله ومن أهمها الآداب الموضوعية، فينبغي على كل دارس يقبل على تفسير كتاب الله عز وجل ان يؤمن بكل جوارحه أنه أمام أقدس كتاب عرفه الوجود وان الله سبحانه وتعالى قد انزله لهدف سامٍ هو هداية الناس الى سبيل الحق والرشاد لايصالهم الى شاطئ السعادة في الدنيا والآخرة.

كما ينبغي ان يشعر بأن على عاتقه أمانة كبرى لا يحملها الا المؤمنون بهذا الدين المخلصون لدستوره القويم الذي غرس الايمان في قلوب العرب والمسلمين، فوحد كلمتهم ولم شعثهم ورأب صدعهم فكانوا خير أمة اخرجت للناس، لهذا احتضن المسلمون هذا الكتاب العظيم وعنوا بتفسيره عناية فائقة ولا سيما علماؤنا في الصدر الاول ولكن مع مرور الزمن وتغير تيار الحياة انتاب التفسير بعض الرياح الهوج، فعكرت صفاءه وشوهت نقاءه وذلك بما دسه اهل الزيغ والبدع من موضوعات واسرائيليات وأكاذيب وانحرافات في الفكر استرسالا لدواعي الفتنة واستجابة لاغواء الشيطان، وقد حدث هذا منذ بدأ الضعف يدب في صفوف المسلمين الى عصرنا هذا. فالمفسر الموضوعي لا يمكن ان يغمض عينيه عن احوال المسلمين وما الوا اليه من تفكك وانقسام وما الصق بتفسير كتابهم من

اضاليل واباطيل وانه بمجرد النظر يوقن كل الايقان انه لا يصلح اخر هذه الامة بما صلح به اولها، لان المفسر الموضوعي لايحيا الا في القرآن، لذلك يتمنى للمجتمع الاسلامي الذي يعيش فيه ان يحيا هو الاخر فيه باقامة اوامره واجتناب نواهيه وتنفيذ احكامه ورعاية حدوده وتطبيقه في شتى مجالات الحياة اذا اراد الحياة. قال الله تعالى: « يا ايها الذين امنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم».[1]

فالمفسر الموضوعي لا يؤتي ثمار تفسيره يانعة طيبة الا ببذل الجهد واعمال الفكر للبلوغ الى العمق الموضوعي للقرآن الكريم[2] على وجه يجتذب الارواح ويمتلك النفوس ويفتح القلوب ويدفع الناس الى الاهتداء بهدي الله تعالى ولا يتحقق ذلك الا على ايدي الاذكياء الاتقياء من المفسرين الذين يتسمون بالتخلي عن مؤثرات البيئة ويتصفون بالنزاهة عن الهوى والانحراف ويتجردون من التعصب لمذهب او طائفة او فرد. ان القرآن الان بحاجة الى من يفسره على حقيقته النازلة من رب العالمين، والسير في تفسيره على هدى وتدبر لمحو ما التصق به من خرافات واساطير وبدع، واقصاء كل تأويل مضلل ادى الى وضع الحواجز التي شعبت المسلمين وفرقتهم الى فرق وطوائف، لذا ارى ان الموضوعية في تفسير القرآن شرط اساسي في كشف معاني القرآن على حقيقته النازلة، وبيان مراميه، وشرح

---

(١) سورة الانفال آية / ٢٤.

(٢) انظر المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم للدكتور محمد حسين الصغير ص ٣٠ وما بعدها ملزمة مطبوعة على الآلة الكاتبة.

اهدافه، ولا يتسنى ذلك لكل مفسر الا بمعرفة المواضيع التي تفهم فيها الالفاظ على حقائقها وباتباع الاساليب البلاغية التي تفهم فيها على طريق المجاز والاستعارة والتمثيل، فليس من الآداب الموضوعية اطلاق العنان للاقلام ان تستطرد في التفسير بذكر مباحث لا يتوقف عليها فهم القرآن من حيث انه هداية او بحشر مباحث لا يحتاج اليها في تقرير وجه من وجوه اعجازه، وانما هي مسائل ترجع الى علوم اخرى مستقلة بنفسها فادخالها لا يعدو ان يكون حشوا بثقافات شتى، وتحميلا للالفاظ القرآنية فوق ما تحتمل وفي هذا خروج بالقرآن عن غايته التي نزل من اجلها.

فالتفسير الموضوعي اذن يأبى اقحام كل الحركات الدينية والمذاهب الفلسفية، والتفسيرات الباطنية المنسوبة الى طائفة من الزنادقة التي ما قالوا بها الا لتعطيل احكام الشريعة. وليقلبوا حكمة القرآن الى معان اخرى باطلة في نظر العقل بالبداهة، لما فيها من انحراف عن الصواب في بيان معنى آيات الله، وبعد الالفاظ القرآنية عن مدلولاتها في اللغة الى هذيان من القول افتروه على الله تعالى وفي هذا يقول النسفي في عقائده :

النصوص على ظواهرها والعدول عنها الى معان يدعيها اهل الباطن الحاد[1].

كذلك يأبى التفسير الموضوعي تفسيرات بعض المتصوفة التي يطلق عليها التفسير الاشاري الذي سلكوا فيه مسلكا اشاريا يتمشى مع تعاليمهم ومبادئهم الى درجة انهم ابعدوا القرآن بذلك عن ان يكون هداية

(١) الاتقان ٢/١٨٤.

للناس، وجعلوه الغازا، لا تتفق مع وصف الله سبحانه له بقوله :

«وانه لتنزيل رب العلمين نزل به الروح الامين، على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين[1]. لأنهم تعسفوا في فهم النصوص القرآنية وفسروها بما يخرجها عن الظاهر الذي يؤيده الشرع وتشهد له اللغة.

وللتدليل على ذلك لا بأس من ذكر نموذج واحد من التفسير الاشاري، قال الالوسي في تفسير قوله تعالى

«يا ايها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد، ولا امين البيت الحرام، يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا، واذا حللتم فاصطادوا».

«يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله» من المقامات والاحوال التي يعلمها السالك الى حرم ربه، من الصبر والتوكل والشكر، ونحوها : اي لا تخرجوا عن حكمها. ولا الشهر الحرام، وهو وقت الحج الحقيقي،وهو وقت السلوك الى ملك الملوك، واحلاله بالخروج عن حكمه والاشتغال بما فيه ولا الهدى : وهي النفس المستعدة للقربان عند الوصول الى الحضرة، واحلالها باستعمالها بما يعرفها، او تكليفها بما يكون سبب مللها، (ولا القلائد) وهي ما قلدته النفس من الاعمال الشرعية التي لا يتم الوصول الا بها، واحلالها بالتطفيف بها، وعدم ايقاعها على الوجه الكامل.

«ولا امين البيت الحرام» وهو السالكون، واحلالهم بتنفيرهم وشغلهم بما يصدهم ويسلكهم، «يبتغون فضلا من ربهم» متجليات الافعال، رضوانا

(1) سورة الشعراء آية / ١٩٣.

بتجليات الصفات «واذا حللتم فاصطادوا» اي اذا رجعتم الى البقاء بعد الفناء فلا جناح عليكم في التمتع «ولا يجر منكم شنآن قوم ان صدوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا» اي لا يكسبنكم بعض القوى النفسانية، بسبب صدها اياكم عن السلوك ان تعتدوا عليها وتقهروها بالكلية فتتعطل، او تضعف عن منافعها[1].

فهذا المنحى الصوفي في تفسير القرآن، وفهم اياته يتمشى مع ما يفهمه اهل الطريق من الصوفية حسب اشاراتهم التي لا يعرفها سواهم، فجعل الشعائر عبارة عن المقامات التي يعلمها السالك في طريق الصوفية وهي الصبر والتوكل والشكر، مع ان الوارد فيها عن الرسول غير هذا، وجعل الشهر الحرام هو وقت السلوك اي وقت العمل بما تفرضه الطريقة على التلاميذ، وجعل المراد بالهدى : النفس، وجعل القلائد : ما كلفت به من الاعمال التي لا يتم الوصول الى الله الا بها.

وجعل المراد بالآمين للبيت الحرام : السالكين في الطريق اي طريق التصوف الى آخر الآية.

فلو عرضنا ما فسره الالوسي على ما يعطيه ظاهر اللفظ وما جاء عن رسول الله والصحابة الذين شهدوا التنزيل لا تجده متفقا معه في كثير ولا قليل، لذلك لقى الالوسي نقدا لاذعا من علماء زمانه وانكارا شديدا لهذا النوع من التفسير من قبل المحققين الذين عابوا على الصوفية هذا المنهج لانهم يكونون قد سلكوا بهذا مسلك الباطنية الذين يؤولون القرآن

---

(١) تفسير الالوسي ٦٧/٦.

على اهوائهم، ويعبر عن هذا ابن الصلاح في فتاويه فيقول : وجدت عن الامام ابي الحسن الواحدي المفسر انه قال : ((صنف ابو عبد الرحمن السلمي حقائق التفسير فان كان قد اعتقد ان ذلك تفسير فقد كفر))[1].

ويقول السيوطي : ((واما كلام الصوفية في القرآن فليس بتفسير))[2].

ويقول التفتازاني في شرحه : سميت الملاحدة باطنية لادعائهم ان النصوص ليست على ظاهرها بل لها معان باطنية لا يعرفها الا المعلم وقصدهم بذلك نفى الشريعة واما ما يذهب اليه بعض المحققين من ان النصوص على ظواهرها ومع ذلك فيها اشارات خفية الى دقائق تنكشف على ارباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال الايمان، ومحض العرفان[3] . وكذلك يرفض التفسير الموضوعي نزعة التعصب لمذهب معين والسير في ركابه، منتصرا له على مذهب آخر باذلا في ذلك جل اهتمامه في التماس آيات التأييد له، والتفنيد لمعارضيه، وهذا ما يمجه المثقف المعاصر ويأباه اصحاب الضمائر الحية لما يسببه من اتهام بعضهم بعضا يقرب من السفاسف اللاذعة، واللامبالاة في الطعن بشعور الاخرين.

---

(١) الاتقان ١٨٤/٢. ومن الكتب المؤلفة في هذا اللون من التفسير ما يأتي

(١)تفسير القرآن العظيم للتستري.

(٢) عرائس البيان في حقائق القرآن للشيرازي.

(٢) المصدر نفسه،

(٣) المصدر نفسه.

وفضلا عن هذا فهو أسرع عامل لدفع الشباب الى استهجان الدين والاستخفاف بمبادئ الاسلام والتنكر لقيم القرآن المجيد.

من اجل هذا كله يقول السيد رشيد رضا في مقدمة تفسيره ((كان من سوء حظ المسلمين ان اكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن مقاصد القرآن العالية وهدايته السامية، فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الاعراب وقواعد النحو ونكت المعاني ومصطلحات البيان، ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين وتخريجات الاصوليين واستنباط الفقهاء المقلدين وتأويلات المتصوفين، وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض، وبعضها يلفته عنه بكثرة الروايات وما مزجت به من خرافات الاسرائيليات وقد زاد الفخر الرازي صارفا آخر عن القرآن هو ما أورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها وقلده بعض المعاصرين بايراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولا طويلة بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والارض من علوم الفلك والنبات والحيوان تصد قارئها عما انزل الله لاجله القرآن فكانت الحاجة شديدة الى تفسير تتوجه العناية الاولى فيه الى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة في وصفه[1].

فاذا تحققت هذه الآداب الموضوعية، وفسر القرآن تفسيرا موضوعيا برزت حقيقة القرآن، وتجلت فيه وجوه الهداية التي أرشد اليها سبحانه في

---

(١) تفسير المنار ١/٧، طبع دار المعرفة، بيروت.

العقائد والعبادات والاخلاق والاداب واحكام المعاملات وغير ذلك من الموضوعات التي اصلحت حياة العرب الاوائل، وانتشلتهم من حياة التفكك، ومظاهر التواكل والانقسام الى حياة الوحدة والتقدم والرقي.

المبحث الثاني
في الآداب النفسية

ان المقصود بالاداب النفسية هو الكمال الانساني الذي ينبغي ان يتصف به كل مفسر من صحة الاعتقاد بالله، واخلاص القلب له، ونقاء السريرة، وتحري الصدق، والتزام الامانة في النقل، وصدق النية في استنباط المعاني، واستلهام روح النصوص القرآنية، وبيان مراميها. ويمكن بيان ذلك في الامور الآتية :

الاول - صحة الاعتقاد

لا يخفى علينا ان للعقيدة أكبر الاثر في نفس صاحبها فاذا لم تكن سليمة، تحمل صاحبها على تحريف النصوص والخيانة في نقل الاخبار، فهذا الطبري يتحدث في اوائل تفسيره عن آداب المفسر فيذكر من ذلك أنه يجب أن يتوافر في المفسر صحة الاعتقاد، ولزوم سنة الدين، فان كان متهما في دينه لا يؤتمن على الدنيا، فكيف يؤتمن على الدين ثم لا يؤتمن في الدين على الاخبار عن عالم فكيف يؤتمن في الاخبار عن أسرار الله تعالى، ولانه لا يؤمن ان كان متهما بالالحاد ان يبغي الفتنة، ويغر الناس بلباسه وخداعه كدأب الباطنية.(١) الذين فسد اعتقادهم فأولوا الايات التي تخالف اعتقادهم مؤيدين في ذلك مذهبهم الباطل ليصدوا الناس عن اتباع السلف، ولزوم طريق الهدى، بلين الكلام، وحسن البيان لذلك كانت صحة

---

(١) الاتقان ١٧٦/٢، وانظر قصة التفسير ص ٢٩.

الاعتقاد أمرا ضروريا تمليه على المفسر طبيعة الايمان بالقرآن، وسلامة تفسيره من الانحراف والزيغ عما اراده الله سبحانه وتعالى.

الثاني - اخلاص القلب لله والتفويض اليه

فاذا كانت صحة الاعتقاد السليمة من كل شائبة، جاءت النية صادقة : والاخلاص لله مكملا للنفس، وخاصة اذا اقترن بهما تفويض الامر الى الله والتوكل عليه، لان التوكل صفة من صفات المؤمنين الموقنين، كما عبر عن ذلك القرآن نفسه حين قال :

«انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون»(١).

فاذا وجل قلب المفسر وخشعت جوارحه لله اغدق عليه سبحانه من فيوضاته الربانية، وأورثه من العلم ما لم يعلم، ويؤيد هذا ما رواه الامام جعفر الصادق عن أبيه عن جده (رضى الله عنه) قال قال : رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (الا ان من زهد في الدنيا، وقصر فيها امله اعطاه الله علما بغير تعلم، وهديا بغير هداية ومن رغب في الدنيا، وطال فيها امله اعمى الله قلبه على قدر رغبته فيها)(٢).

وهذا ابو عمر عثمان المازني من اوائل العلماء الذين اكدوا على الاخلاص والتفويض بل لقد اشترط على كل مفسر ان يكون عالما بهما

---

(١) سورة الانفال، الآية / ٢.

(٢) مقدمتان في علوم القرآن ص ١٧٥، طبع مطبعة السنة المحمدية سنة ١٩٥٤. وانظر المبادئ العامة ص ٣٦.

فقال: ((ان يكون عالما بأبواب السر من الاخلاص، والتوكل، والتفويض والاذكار الباطنة التي افترضها الله تعالى على عباده، والالهام والوسوسة، وما يصلح الاعمال، وما يفسدها، وبافات الدنيا ومعايب النفس وسبيل التوقي من فسادها ... وأن يكون مفوضا أمره الى الله تعالى، متضرعا اليه أن يلهمه الرشد والتوفيق، وتحذير الاعجاب بنفسه والاتكال على عقله، وجودة قريحته فان المعجب مخذول))[١]، فبالاخلاص لله، والتوكل عليه، وتفويض الامر اليه تتطهر نفس المفسر من أعراض الدنيا، ويسدد الله خطاه فينتفع بالعلم كثمرة من ثمرات هذا الاخلاص والتفويض.

الثالث - صحة المقصد وحسن النية في ما يكتب، لان الاعمال بالنيات

فينبغي ان يتجنب البدع والمحدثات ويكون اعتماده الاول في التفسير على النقل عن رسول الله وعن اصحابه من اهل البيت وغيرهم، وممن عاصرهم، فاذا تعارضت اقوال المنقول عنهم وامكن للمفسر ان يجمع بينها فعل ذلك، وان لا يكون قصده من وراء التفسير هوى من أهوائه او غرضا من اغراض دنياه، ولا أثر فيه ذلك فانحرف او اعتسف لذلك ينبغي ان يترفع عن الهوى وسفاسف الامور، ويتطهر من اعراض الدنيا وشهواتها ليسدد الله خطاه يقول الطبري في ذلك : ومن شروطه[٢] صحة المقصد فيما يقول، ليلقى التسديد، فقد قال الله تعالى :

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن ص ١٧٤-١٧٥.

(٢) أي من شروط المفسر للقرآن الكريم.

«والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وان الله لمع المحسنين»[1] وانما يخلص له القصد اذا زهد في الدنيا، لانه اذا رغب فيها لم يؤمن ان يتوسل به الى غرض يصده عن صواب قصده، ويفسد عليه صحة عمله[2]، ولان الهدف من العلوم الشرعية هو بيان مزايا الاسلام حتى يقبلوا عليه ويمتثلوا اوامره، ويجتنبوا نواهيه، وفي هذا كل الخير للفرد والمجتمع.

الرابع- التدبر والتفكر

ان تفسير القرآن بحاجة الى تدبر عميق، وتفكير دقيق وفهم سديد لادراك ما في القرآن من أسرار، والوصول الى ما احتواه من حكم تكمن وراء كل تشريع وتوجيه وهذه الحكم والاسرار لا تبدو الا للمتدبر الفاقه، والمتفكر البصير من اجل هذا يقول الزركشي :

((اصل الوقوف على معاني القرآن التدبر والتفكير، واعلم انه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي حقيقة، ولا يظهر له اسرار العلم من غيب المعرفة، وفي قلبه بدعة، واصرار على ذنب او في قلبه كبر او هوى او حب الدنيا، او يكون غير متحقق الايمان او ضعيف التحقيق او معتمدا على قول مفسر ليس عنده الا علم بظاهر، او يكون راجعا الى معقوله، وهذه كلها حجب وموانع وبعضها أوكد من بعض اذا كان العبد مصغيا الى كلام ربه))[3]

---

(١) سورة العنكبوت، الآية / ٦٩.

(٢) قصة التفسير ص ٣٠.

(٣) البرهان ٢/ ١٨٠-١٨١.

فالتدبر والتفكر يشحذ الفكر، ويمكن المفسر من اجتلاء حكم القرآن، وكشف مراميه، وفهم دقائقه، واكتناه ما حواه من اسرار.

الخامس : علم الموهبة

وهو علم يورثه الله لمن اتقى الله بترك محارمه، وتنفيذ اوامره وعمل بما علم، واليه الاشارة بقوله تعالى :

«واتقوا الله ويعلمكم الله» وبقوله ايضا :

«يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم[1]، فهذا قانون الله المقرر ودستوره الذي لا يتغير فالمسلمون الذين عاشوا حياة التقوى فتح الله عليهم ابواب السماء والارض ويؤكد الرسول (صلى الله عليه وسلم) هذا القانون الالهي فيقول :

(من عمل بما علم ورثه الله علم ما لا يعلم).[2] وجواب علي (رضي الله عنه) حين سئل : هل خصكم رسول الله بشئ سوى القرآن ؟ قال لا، الا فهما يؤتيه الله لرجل في القرآن.[3]، فعلم الموهبة ثمرة من ثمار التقوى وترك الاثام والبعد عن الفسوق والعصيان، فقد روى عن الامام الشافعي انه قال :

---

(١) سورة الحديد الآية /٢٨.

(٢) الاتقان ٢, ١٨١.

(٣) القرآن والتفسير، ص ١٤٨، وقد ورد هذا في حديث طويل رواه البخاري انظر فتح الباري ١٥/٢٨٥-٢٨٦.

شكوت الى وكيع سوء حفظي فأرشدني الى ترك المعاصي
واخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي[1]

فعلم الموهبة نور يلقيه الله في قلوب الاتقياء من العلماء فينالون الفهم ويتذوقون العلم بالعمل وهذا لا يكون الا عند اهل الورع والصدق والزهد والتقوى. قال تعالى :

«يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا». وكان السيوطي قد خشى ان يعترض او يتوقف متوقف امام ما سماه علم الموهبة، ولذلك قال ولعلك تستشكل علم الموهبة؛ وتقول هذا شئ ليس في قدرة الانسان وليس كما ظننت من الاشكال والطريق في تحصيله ارتكاب الاسباب الموجبة له من العمل والزهد.[2]، فعلم الموهبة لا يحصل للمفسر الا اذا كان في الذروة العليا من التقوى وصدق الايمان بالله، والاخلاص لله في القول والعمل فلا يخاف الا الله، ولا يرجو الا اياه، ولا يبالي الا برضاه، وينبغي ان يترجم واقع حياته ما قاله ابو فارس الحمداني :

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والانام غضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب
اذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب ترابُ

فهذا النمط من المفسرين هو الذي يحصل له علم الموهبة لصلته القوية بالله العظيم وثقته العجيبة فيه والا صرف الله عنه علوم القرآن

---

(١) ديوان الامام الشافعي ص ٥٤ طبع دار الجيل للنشر بيروت / لبنان.

(٢) الاتقان ٢/١٨٢.

ونزع منه فهم اسراره، وكان ممن يتحدث عنهم بقوله سبحانه :

«سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق».[1]

هذه هي اهم الاداب النفسية التي ينبغي ان يتصف بها كل مفسر لان التفسير مهمة علمية من اشق المهمات لا يستطيع ان يتحملها الا من سلك طريق الرسل والانبياء الذين صاغهم الله صوغة خاصة بما خصهم من العلوم والاسرار والحكم، وهؤلاء هم العلماء الذين ورثوهم، وتربوا في مهدهم الايماني فهؤلاء وحدهم هم الذين يدركون ابعاد معنى علم الموهبة.

(١) سورة الاعراف، الآية / ٤٦.

المبحث الثالث
في الآداب الفنية

ويقصد بالاداب الفنية تلك العلوم التي لابد لكل مفسر ان يستكملها والا وجب عليه الكف عن التفسير، لانه لا يحل لكل مسلم ان يفسر القرآن الكريم الا اذا كان عالما متمكنا من اسباب التفسير ومقوماته حتى لا يكون تفسيره مفسدا لمراد الله من كلامه، وقد اورد السيوطي اختلاف العلماء في تفسير القرآن في أنه : هل يجوز لكل احد الخوض فيه ؟

فقال قوم : لا يجوز لاحد ان يتعاطى تفسير شئ من القرآن وان كان عالما اديبا متسعا في معرفة الادلة والفقه والنحو والاخبار والاثار وليس له الا ان ينتهي الى ما روى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) في ذلك.

ومنهم من قال : يجوز تفسيره لمن كان جامعا للعلوم التي يحتاج المفسر اليها[1].

والرأي الثاني، هو ما نميل اليه ونرجحه، لان العمل بالرأي الاول حجر على الفكر، وهدر للعقل، ومنع للاجتهاد، وكل هذا معارض لما امرنا به سبحانه من النظر والتدبر في كثير من آياته كقوله تعالى :

«وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما أنزل اليهم ولعلهم يتفكرون» وقوله : «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها».

---

(١) الاتقان ٢/١٨٠.

ويرجح هذا الرأي ايضا ما اثر عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) انه قال :

((من اراد علم الاولين والاخرين فليثور القرآن[1] وتثوير القرآن لا يتم الا بالتدبر والنظر والاجتهاد، والتمكن من اسباب التفسير ويمكننا اجمال هذه الاسباب على الوجه الآتي :

اولا - فقه اللغة العربية : ليعرف بها معاني المفردات ومدلولاتها ولا تكفي المعرفة اليسيرة بذلك، لانه قد يكون اللفظ مشتركا بين معنيين او اكثر فيعلم احد المعنيين، ولا يعلم الآخر الذي هو المراد فيكون في تفسيره آثما فلفظة المطهرون مثلاً الواردة في قوله تعالى :

«لا يمسه الا المطهرون» ولفظة طاهر الواردة في حديث عبد الله بن عمر الذي اورده الهيثمي في مجمع الزوائد ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : (لا يمس القرآن الا طاهر[2] مشتركة بين معاني عدة فيطلق ويراد به الطاهر من الحدث الاكبر كما يطلق ويراد به الطاهر من الحدث الاصغر كما يطلق ويراد به المؤمن وكما يطلق ويراد به من ليس على بدنه نجاسة[3] فلفظة طاهر مشتركة في اللغة العربية وضعت لعدة معان لا يمكن معرفة المراد منها الا بمعرفة القرائن المحيطة باللفظ، وهكذا شأن كل لفظة مشتركة وردت في نص من كتاب او سنة لابد من تعيين المراد منها/

---

(١) النهاية لابن الاثير ٢٢٩/١ والبرهان ١٥٤/٢.

(٢) رواه الطبراني في الكبير والصغير انظر مجمع الزوائد ٢٧٦/١.

(٣) انظر سبل الاسلام ٦٨/١.

لذلك قال مجاهد : لا يحل لاحد يؤمن بالله واليوم الآخر ان يتكلم في كتا
الله اذا لم يكن عالما بلغات العرب.[١]

ثانيا : النحو : وبه يدرك المعنى لان المعنى فرع الاعراب فهو يتغير باختلاف الاعراب، فلابد من معرفة وجوه الاعراب لتحديد المعنى المراد من اجل ذلك يقول ابن مسعود لتلاميذه : اعربوا القرآن فانه عربي، والله يحب ان يعرب به.[٢]

ثالثا : الصرف : وبواسطته يعلم المفسر ابنية الكلمات وموازينها وصيغها وتصريفها واشتقاقها فاذا وجد كلمة مبهمة استطاع تصريفها وتمكن من الوصول الى معناها.

رابعا: علوم البلاغة الثلاثة البيان والمعاني والبديع، فبالبيان يعرف حقيقة الكلام ومجازه وتشبيهه وكنايته، وبالمعاني يدرك خواص تراكيب الكلام من جهة افادته المعنى. وبالبديع يعرف وجوه تحسين الكلام، ويعبر السيوطي عن اثر هذه العلوم في التفسير فيقول : وهذه العلوم الثلاثة هي من اعظم اركان المفسر، لانه لابد له من مراعاة ما يقتضيه الاعجاز، وانما يدرك بهذه العلوم.[٣]

خامسا: ان يعرف اصول الدين المسمى بعلم الكلام (التوحيد) اذ به يعلم ما يجب لله تعالى وما يجوز له وما يستحيل عليه واحكام النبوة.

---

(١) الاتقان ٢/١٨١.

(٢) تفسير القرطبي ١/٢٠.

(٣)الاتقان ٢/١٨١.

سادسا : اصول الفقه لان المفسر يدرك بهذا العلم وجه الاستدلال على الاحكام من تقييد المطلق وتخصيص العام وتفصيل المجمل وتبيين المبهم ومعرفة الناسخ من المنسوخ ودلالة الامر والنهي وما اشبه ذلك. ونضرب لذلك مثلاً واحداً على الناسخ والمنسوخ من القرآن الكريم في الصدقة بين يدي نجوى الرسول قال تعالى في الامر بتقديم الصدقة بين يدي نجوى الرسول في اول الاسلام :

«يا ايها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم واطهر فان لم تجدوا فان الله غفور رحيم» لقد نسخت هذه الآية بالآية التي بعدها وهي :

«فاذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم» من قوله تعالى :

«أأشفقتم ان تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ؟ فاذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فاقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون» فمعرفة اصول الفقه بالنسبة للمفسر امر ضروري لكي يسلم تفسيره من الخطأ.(١)

سابعا : السنة النبوية : لان القرآن الكريم ذكر بعض الاحكام الشرعية بصورة مجملة او كلية كالصلاة والزكاة والحج والصوم واحكام الزواج والطلاق والعقود والقصاص والحدود وغير ذلك من الاحكام التي بينت السنة مبهمها وفصلت مجملها وخصصت عامها وقيدت مطلقها ومن ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر تقييد السنة لقطع يد السارق في قوله تعالى :

---

(١)انظر النسخ في القرآن الكريم للدكتور مصطفى زيد ص٨١٩ - ٨٢٠.

«السارق والسارقة فاقطعوا ايديهما» ، جاءت السنة الفعلية فقيدت القطع بان يكون من الرسغ فلابد عند تفسير النص القرآني من الرجوع الى السنة لانها خير مفسر للقرآن بعد القرآن.

ثامنا : بعض علوم القرآن كالقراءات التي يعرف بها المعاني المترتبة عليها والمكي والمدني واسباب النزول وغير ذلك.(١) ونضرب مثلاً واحداً على اسباب النزول لأنها وسيلة مهمة من وسائل فهم النص لذلك كانت عناية الصحابة بها عناية عظيمة حتى اثر عن ابن مسعود انه قال : ((والذي لا اله غيره ما من كتاب الله سورة الا أنا اعلم حيث نزلت وما من آية الا انا اعلم فيما نزلت ولو اعلم احداً هو اعلم بكتاب الله مني تبلغه الابل لركبت اليه))(٢).

ومن اسباب النزول ما ورد في سورة المجادلة ان خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت اراد زوجها مواقعتها يوماً فابت فغضب عليها وظاهر منها فأتت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقالت يا رسول الله : ان أوساً ظاهر مني بعد ان كبرت سني ورق عظمي وان لي منه صبية صغاراً ان ضممتهم اليه ضاعوا وان ضممتهم اليَّ جاعوا فما ترى؟ : فقال لها ما اراك الا قد حرمت عليه فقالت يا رسول الله، والله ما ذكر طلاقاً وهو ابو ولدي، واحب الناس اليّ فجعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعيد قوله ما اراك الا قد حرمت عليه وهي تكرر قولها ، فما زالت تراجعه ويراجعها حتى نزل قوله تعالى :

(١) انظر هذه العلوم في الاتقان ٢/ ١٨٠-١٨١.

(٢) صحيح مسلم رقم ٢٤٦٣ مجلد.

«قد سمع الله قول تجادلك ذلك في زوجها الخ ...»[1]

تاسعا : العلم بالتاريخ ولا سيما تاريخ الدعوة الاسلامية في مكة والمدينة حيث كان القرآن ينزل لتصحيح اوضاع العرب وارشادهم الى الاخلاق الفاضلة، وانقاذهم من الشرك والالحاد كما تكفل بالاجابة على دعاوي المشركين، وتفنيد حججهم وفي هذا يقول الامام محمد عبده :

((يجب على المفسر ان يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم. لان القرآن ينادي بأن الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال، وان النبي (صلى الله عليه وسلم) بعث لهدايتهم واسعادهم، وكيف يفهم المفسر ما قبحته الايات من عوائدهم على وجه الحقيقة، او ما يقرب منها اذا لم يكن عارفا باحوالهم وما كانوا عليه))[2] حتى يأتي التفسير سليما من كل انحراف فمن جهل بعض هذه العلوم تعرض للاخطاء في تفسير كلام الله.

وهذه العلوم ينبغي ان تكون مفسرة للقرآن ومبينة لاياته لا ان تطغى عليه فتخرج القرآن عن مقصوده الاسمى وهو هداية الناس وهذا ما أشار اليه بعض المفسرين قديما وحديثا، فهذا ابو حيان الاندلسي يقول :((كثيرا ما يشحن المفسرون تفاسيرهم عند ذكر الاعراب بعلل النحو، ودلائل مسائل اصول الفقه، ودلائل مسائل الفقه، ودلائل اصول الدين، وكل ذلك يقرر في

---

(١) صفوة التفاسير للاستاذ محمد علي الصابوني القسم ٦/١٨ الطبعة الاولى ١٤١٠هـ-١٩٨١م.

(٢) القرآن والتفسير للدكتور عبد الله شحاته ص ٢٥٠. ص ١٩١٣ فضائل الصحابة.

تأليف هذه العلوم، وانما يؤخذ ذلك مسلما في علم التفسير دون استدلال عليه، وكذلك ايضا ذكروا مالا يصح من اسباب النزول واحاديث في الفضائل وحكايات لا تناسب وتواريخ اسرائيلية، ولا ينبغي ذكر هذا في علم التفسير)).(١)

عاشرا : أن يكون المفسر ملما بعلوم الاجتماع والنفس والتربية والعلوم المعاصرة بقدر ما يتجلى له معنى الآية في عصرنا هذا فان قارئ التفسير اليوم تستهويه التفاسير المدعمة بالمباحث النفسية والاجتماعية والقوانين العلمية والحياتية والطبيعية بل وكل علم يتوقف عليه فهم بعض الآيات ولكن مع مراعاة عدم الاطناب وحشو التفاسير بانواع العلوم والمعارف فان ذلك يخرج القرآن عن مقصوده الذي انزله الله من اجله وهو هداية الناس ولذلك يقول الاستاذ الامام محمد عبده ((ان الاكثار في مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الالهي ويذهب بهم في مذاهب تنسيهم معناه))(٢) . فالالمام بهذه العلوم ينبغي ان يتوقف على مقدار فهم الآية وادراك معناها لا ان نحشو تفسيرها بثقافة خاصة من هذه الثقافات لا تمت اليها بصلة فاذا تحققت هذه الشروط بلغ المفسر اعلى مراتب التفسير وكان من المتخصصين بتفسير القرآن الكريم.

اما مجرد فهم القرآن وادراك المعاني العامة للايات، فهذا قدر يكاد يكون مشتركا بين عامة المثقفين وهذا ما تشير اليه الآية الكريمة «ولقد

---

(١) الاتقان ١٨٦/٢.

(٢)تفسير المنار ٨/١.

يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر»[1] لان كل مسلم مدعو الى قراءة القرآن ومحاولة تفهمه للادلة التي ذكرناها في اهمية التفسير.

اما تفسير الخاصة فهو محتاج الى كل العلوم والاداب التي ذكرناها.

---

(١) سورة القمر، الآية / ٤٠.

الفصل الثالث

مرحلة تطوير التفسير

ويشتمل على اربعة مباحث



المبحث الأول
مرحلة النشأة

لقد كان لتطور الحياة أثره الواضح في تطوير تفسير القرآن الكريم فلو تأملنا تاريخ التفسير لامكننا تحديد هذه المرحلة ابتداء من نزول القرآن على قلب نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وامر الله سبحانه وتعالى له بأن يبينه للناس بقوله تعالى :

«وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون» (١)
وقوله :

«وما أنزلنا اليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يوقنون»(٢)، وانتهاء بعصر تابعي التابعين. فبمقتضى هذا التكليف الالهي الذي تضمنته هاتان الايتان استجاب الرسول لنداء ربه، وشرع يوضح احكام القرآن للناس وبهذا يعد الرسول أول مفسر للكتاب الكريم، وعلى يديه الكريمتين بدأت نشأة التفسير.

ولما كان كثير من افراد المجتمع الذي نزل فيه القرآن أساطين البلاغة وارباب الفصاحة، وأمراء البيان لما أوتوه من ضروب الحكمة وأسرار البلاغة، كانت اساليبهم تزخر بالحقيقة والمجاز والتصريح والكناية والايجاز والاطناب، وكان بلغاؤهم وفصحاؤهم يفهمون ظاهر القرآن ويعرفون كثيرا

---

(١) سورة النحل، الآية / ٤٤.

(٢) سورة النحل، الآية / ٦٤.

من احكامه، ويدركون اعجازه بمجرد التأمل والنظر.

أما سبر أعماق القرآن وفهم دقائقه بحيث لا يغرب عنهم شئ من ألفاظه ومعانيه ولا يند عن افهامهم ادراك اسراره ومراميه، فهذا امر غير ميسور لكل منهم على الرغم من نزول القرآن بلسانهم، وجريه على اساليب كلامهم اذ كان في أعلى درجة من البلاغة سمحت لمفكريهم ان يتباروا في فهمه، ويتسابقوا في ادراك معانيه، ومع ذلك كله فقد استحال عليهم فهم غرائبه، ومعرفة متشابهه فضلا عن الالمام به جملة وتفصيلا.

وقد بين ابن قتيبة هذه الحقيقة قائلاً: ان العرب لا تستوى في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه، بل ان بعضها يفضل في ذلك على بعض[1]، ولعل ابن خلدون كان مبالغا حين قال في مقدمته في مطلع كلامه عن التفسير ان القرآن أنزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه[2].

ومما يؤيد اختلاف العرب في فهم القرآن ايضا قول مسروق (رضي الله عنه): ((جالست اصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) فوجدتهم كالاخاذ[3] فالاخاذ يروى الرجل، والاخاذ يروى الرجلين والاخاذ يروى العشرة

(١) التفسير معالم حياته منهجه اليوم ص ٦ نقلا عن المسائل والاجوبة لابن قتيبة ص ٨، طبع مطبعة دار المعلمين سنة ١٩٤٤، والتفسير والمفسرون للذهبي ١/٣٦.

(٢) المقدمة ١/٤٦٦، المطبعة الاميرية.

(٣) الاخاذ: هي كالغدير يجمع فيها الماء وجمع الاخاذ اخذ، ككتاب وكتب. صحاح الجوهري ٢/٥٠٦.

والاخاذ لو نزل به أهل الارض لاصدرهم، فوجدت عبد الله بن مسعود من ذلك الاخاذ(١).

وعلى الرغم من فهم معظم العرب لظاهر القرآن لنزوله بلسان عربي مبين الا ان ما يخفى عليهم كانوا بحاجة ماسة الى من يفسره لهم ويوضح الفاظه الغريبة ويقرب معانيه البعيدة الى اذهانهم، ومن البديهي إن يكون الرسول الذي اصطفاه الله أمينا على وحيه أول مفسراً لكتابه، فكان اذا أشكل عليهم معنى من معاني القرآن لجئوا الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيبينه لهم بفطرته الصافية.

وقد اختلف العلماء في المقدار الذي فسره النبي (صلى الله عليه وسلم) من القرآن لاصحابه، فذهب بعضهم الى أنه (صلى الله عليه وسلم) بين لاصحابه كل معاني القرآن كما بين لهم الفاظه وعلى رأس هؤلاء ابن تيمية(٢).

وذهب آخرون الى انه لم يبين لاصحابه من معاني القرآن الا القليل وعلى رأسهم الخوبي والسيوطي(٣).

والواقع ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يلتحق بالرفيق الاعلى الا وفسر من القرآن ما احتاج اليه المسلمون من أمور الحلال والحرام لان

---

(١) طبقات ابن سعد ١٠٥/٢ والتفسير والمفسرون ١٣٦/١.

(١) انظر الاتقان ١٧٤/٢. والتفسير والمفسرون ٢٠٦/١.

(٣)انظر مقدمة في اصول التفسير لابن تيمية ص ٣٥. !لاتقان ١٧٦/٢.

القرآن يشتمل على احكام لا تفهم على وجهها الصحيح الا بالسنة ولان فيه تشريعات لا يقدم على توضيحها الا هو (صلى الله عليه وسلم) كما ان في القرآن عمومات كثيرة تحتاج الى تخصيص.

فكان (صلى الله عليه وسلم) يخصص العام ويفصل المجمل، ويقيد المطلق ويوضح المشكل كما بين كثيرا من مجازات القرآن وتشبيهاته وكناياته والالفاظ التي استعملت في معنى اسلامي ما كان يعهده العرب وان كان متصلا بعهودهم فيها، فلابد اذن من توقيف على معناها من رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

وفضلا عن هذا كله، فقد كان القدوة الطيبة في السلوك الانساني، والاسوة الحسنة في التطبيق العملي لاوامر القرآن ونواهيه والالتزام بأحكامه، فهو اذن لم يفسر القرآن كله كما ادعى ابن تيمية، ولا القليل جدا، كما ادعى الخوبي والسيوطي وبهذا يكون الرسول قد فسر الكثير من آيات القرآن الكريم، ولا بأس من الاجتزاء بصور اخرى من تفسيره غير التي سبق ذكرها لاعتباره (صلى الله عليه وسلم) المفسر الاول الذي قامت مرحلة التكوين على يديه فمن ذلك ما يأتي :

١- تفصيله للمجمل[١]

لقد أمر الله بالصلاة في كثير من الآيات كقوله تعالى :

---

(١) المجمل : وهو ما خفيت دلالته على معناه لذاته، ولا سبيل الى ازالة خفائه الا ببيان ممن صدر منه. كما اذا قال لك من له اصدقاء كثيرون : زارني صديقي، فأنه لا سبيل الى معرفة من زاره من اصدقائه الا ببيان منه.

«أقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين»[1] من غير ان يبين كيفية الصلاة وتحديد اركانها وعدد ركعاتها فقال (صلى الله عليه وسلم) في تفسيره للفظ الصلاة المجمل : (صلوا كما رأيتموني اصلي). وكذلك الشأن في الحج الوارد من قوله تعالى :

«ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين» من غير ان يبين الله تعالى كيفية الحج وبيان اركانه ومناسكه فقال (صلى الله عليه وسلم) في تفسير ذلك : خذوا عني مناسككم.

٢- تقييده للمطلق[2]

لقد بين الله من يحرم التزويج بهن من الاقارب بقوله تعالى :

«حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم واخواتكم من الرضاعة»[3] ثم أطلق سبحانه التزويج بمن عدا المحرمات بقوله :

---

(١) سورة هود، آية / ١١٤.

(٢) المطلق : لفظ خاص لم يقيد بقيد لفظي يقلل شيوعه. كقوله طائر وعراقي وكتاب فانها الفاظ وضع كل منها للدلالة على فرد واحد شائع في جنسه. والمقيد لفظ خاص قيد بقيد لفظي يقلل شيوعه كقولك طائر ابيض وعراقي مسلم وكتاب جديد، فقد قيد الخاص بما يقلل شيوعه ويقصره على بعض انواعه.

(٣) سورة النساء آية / ١١.

«وأحل لكم ما وراء ذلكم» فقال (صلى الله عليه وسلم) مقيدا هذا الاطلاق : (لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، ولا على ابنة اخيها ولا على ابنة اختها فانكم ان فعلتم ذلك فطعتم أرحامكم)[1]. وبقوله (صلى الله عليه وسلم) : (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب)

٣- تخصيصه للعام[2]

لقد أوصى الله بان يرث الاولاد الآباء والامهات بقوله تعالى :

«يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين» فخصص (صلى الله عليه وسلم) العموم الوارد في هذه الآية بقوله : (نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة)[3] وبقوله : (ليس للقاتل ميراث)[4] وبقوله ايضا : (لا يتوارث أهل ملتين شتى)(٥).

٤- تبيينه للغريب :

---

(١) انظر سبل السلام للصنعاني ١٣٦/٣ ونيل الاوطار للشوكاني١٤٦/٦.

(٢) العام : هو لفظ وضع للدلالة على افراد غير محصورين على سبيل الشمول والاستغراق، ولا فرق بين ان تكون دلالته على ذلك بلفظه ومعناه بأن كان بصيغة الجمع كالمسلمين والمسلمات والرجال والنساء او بمعناه فقط كالرهط والقوم ومن وما.

الخاص : هو لفظ وضع للدلالة على واحد منفرد سواء أكان واحداً بالشخص كمحمد ام بالنوع كرجل وانسان ام بالجنس كالحيوان، والتخصيص هو قصر العام على بعض افراده.

(٣) رواه الخمسة انظر التاج الجامع للاصول ٢٤٠/٢.

(٤) رواه مالك في الموطأ واحمد وابن ماجة انظر نيل الاوطار للشوكاني ٧٨/٦.

قال تعالى : «التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين».

فقد روى عن ابي هريرة انه (صلى الله عليه وسلم) قال : (ان السائحين هم الصائمون)[1].

٥- توضيحه للمشكل[2]

ومن ذلك ما قاله ابو بكر للرسول (صلى الله عليه وسلم) : كيف الصلاح بعد هذه الآية : (ليس بأمانيكم ولا أماني اهل الكتاب من يعمل سوء يجزبه[3] فكل سوء عملنا جزينا به ؟ فيقول رسول الله غفر الله لك يا ابا بكر، ألست تمرض، ألست تنصب، ألست تحزن، ألست تصيبك اللأواء؟ فهو ما تجزون به[4]. ومن امثلته ايضاً جوابه الكريم لعدي بن حاتم حين سأله عن الخيط الابيض والاسود في قوله تعالى :

«فكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر) اهما الخيطان المعروفان فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : هما

---

(١) الاتقان ١٩٦/٢.

(٢) المشكل : وهو ما خفيت دلالته على معناه لذاته، ويمكن ازالة خفائه بالبحث والتأمل كأن يكون اللفظ مشتركاً بين عدة معاني حقيقة او مجازية، ويمكن تعيين احدهما بالبحث كلفظ القرء فأنه موضوع في اللغة للطير وللحيض وكالمولى والظلم.

(٣) سورة النساء، الآية / ١٢٣.

(٤) مسند الامام احمد بن حنبل ١٨٢/١، طبعة المعارف سنة ١٩٦٨.

سواد الليل وبياض النهار منتقلاً بالمعنى من الحقيقة الى المجاز.

٦- تفسيره البياني :

ومن امثلة تفسيره قوله تعالى :

«كأمثال اللؤلؤ المكنون» بقوله : صفاؤهن كصفاء الدر الذي لم تمسه الايدي(١).

٧- تفسيره لالفاظ قرآنية استعملت في معنى اسلامي:

ومن ذلك لفظ القنوت الذي كان يفسره العرب بإنه الخشوع ولكن الرسول جعل من معانيه السكوت : فقد روى عن ابن مسعود انه قال : اتيت النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو يصلي فسلمت عليه، فلم يرد السلام فلما قضى الصلاة قال:(قال لم يمنعني ان ارد عليك السلام الا أنا أمرنا ان نقوم لله قانتين : لانتكلم في الصلاة(٢).

هذه هي معظم اساليب تفسير القرآن بالسنة النبوية.

أما الآيات المنوطة بنشأة الكون وأسرار الوجود والمتعلقة بالانفس والافاق والقواعد الاجتماعية فلم يفسرها لحكمة ربانية هي توجيه الفكر والنظر الى ما اودعه الله سبحانه في هذا الكون الفسيح من اسرار وسنن من ناحية، ولكي تتطور حركة العقل الانساني، وتتفتح امامه ابواب التقدم العلمي في كل زمان ومكان من ناحية ثانية، ولفسح المجال للأجيال المقبلة

(١) الاتقان ٢/٢٠٣.

(٢) انظر البخاري في كتابه التفسير ٣/١٠٧ وصحيح مسلم ١/٣٨٢، باب تحريم الكلام في الصلاة.

لكي تنال شرف الاسهام في خدمة القرآن الكريم ولا سيما في هذا العصر المسمى بعصر الذرة او الطاقة الذرية للتدليل على الاعجاز العلمي للقرآن الكريم من ناحية ثالثة.

هكذا بدأ التفسير مقترنا بنزول القرآن الكريم، وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) أول مفسر له يبين للناس معاني القرآن ويوضح لهم ما عجزوا عن ادراكه او خفي عليهم فهمه.

التفسير في عصر الصحابة

ولما انتقل الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى الرفيق الاعلى نهض من بعده لتحمل عبء الدعوة ونشر الدين تلاميذه من الصحابة رضوان الله عليهم، اولئكم الذين نزل القرآن بحضرتهم، وشغلتهم أموره منذ انبثاق نوره، فكانوا في ذلك أفقه الامة واعلمهم بمقاصد الشرع واحكامه ولا غرو في ذلك فهم الذين شاهدوا التنزيل وعرفوا التأويل وفهموا مقاصد الرسول وكانوا أبر الناس قلباً واعمقهم علماً واقلهم تكلفاً واكملهم فطرة واتمهم ادراكا واصفاهم ذهناً وقد كان احدهم يرى الرأي فينزل القرآن بموافقته كما رأى عمر في اسارى بدر ان تضرب اعناقهم ورأى ان تحجب نساء النبي، وان يتخذ من مقام ابراهيم مصلى، وقال لنساء النبي لما اجتمعن عليه في الغيرة (عسى ربه ان طلقكن ان يبدله ازواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات، فنزل القرآن بموافقته في ذلك كله. ولما توفي عبد الله بن ابي قام رسول الله ليصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوبه وقال يا رسول الله انه منافق فصلى عليه الرسول فانزل الله «ولا تصل على احد منهم مات ابداً ولا تقم على قبره».

ولما حكم النبي (صلى الله عليه وسلم) سعد بن معاذ في بني قريضة حكم فيهم باجتهاده وقال إني أرى أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذواريهم وتغنم اموالهم، فقال النبي : (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات، وقد اشتهر هؤلاء الصحابة بالتفسير والفقه والافتاء لذلك كان لارائهم مكانة مهمة في تفسير القرآن وفهم آياته لما شاهدوه من القرائن والاحوال التي أحاطت بنزول القرآن الكريم، كانوا ادرى الناس بتفسير القرآن بعد الرسول. ولقد برز منهم عدد كثير من ابرزهم الخلفاء الاربعة وابن عباس وابن مسعود وابي بن كعب وزيد بن ثابت وابو موسى الاشعري وعبد الله بن الزبير[1]، فاذا سئلوا عن تفسير آية او آيات اعتمدوا في تفسيرهم لها على ما يأتي :

١- القرآن الكريم : فهو يفسر بعضه بعضا، فما أطلق في مكان قيد في مكان آخر وما أوجز في سورة فصل في سورة اخرى وما عمم في آية خصص في آية ثانية.

٢- السنة النبوية : فقد كانوا مطلعين عليها حافظين لها لانهم صاحبوا النبي (صلى الله عليه وسلم)، وسمعوه يقرأ القرآن ويفسره، وأدركوا ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات وعايشوا الوقائع التي نزل فيها.

٣- اجتهادهم : معتمدين على تبحرهم في اللغة وعلو كعبهم في الفصاحة والبلاغة وسعة ادراكهم، ومعرفتهم بأسباب النزول وعادات العرب مما كان

---

(١) الاتقان ٢/١٨٧.

يكشف لهم النقاب عن أسرار كتاب الله، ويمكنهم من الفهم الصحيح لآياته[1].

ولنضرب مثلا واحدا على تفسيرهم بالاجتهاد : روى البخاري في تفسير قول الله عز وجل :

«أيود احدكم ان تكون له جنة من نخيل واعناب له فيها من كل الثمرات واصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فاصابها اعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون»[2] عن عبيد بن عمير قال قال عمر (رضي الله عنه) يوما لاصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) فيم ترون هذه الآية نزلت أيود احدكم ان تكون له جنة ؟ قالوا الله اعلم فغضب عمر فقال قولوا نعلم أو لا نعلم فقال ابن عباس في نفسي منها شئ يا أمير المؤمنين قال عمر يا ابن اخي قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس ضربت مثلا لعمل قال عمر اي عمل ؟ قال ابن عباس لعمل قال عمر : لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى اغرق عمله[3] وروى ابن جرير عن ابن عباس ان هذا مثل ضربه الله عز وجل فقال : ((أيود أحدكم ان يعمل الخير واهل السعادة حتى اذا كان احوج ما يكون الى ان يختمه بخير حين فني عمره واقترب أجله ختم ذلك بعمل من عمل اهل الشقاء فافسده كله فحرقه احوج ما كان اليه))[4] فهذا مثل من تفسير

---

(١) انظر التفسير والمفسرون ١/٣٧، ٤٥ ومناهل العرفان ١/٤٨٠-٤٨٢.

(٢) سورة البقرة، الآية / ٢٦٦.

(٣) صحيح البخاري ٦/٣٩ طبع دار الشعب بالقاهرة سنة ١٩٧٨.

(٤) تفسير ابن جرير الطبري ٣/٤٧.

الصحابة بالرأي في اطار ما تواضعت عليه العرب من الاساليب البيانية من اللغة العربية وهو استعارة تمثيلية المح اليها عمر وابن عباس بعبارة هذا مثل ضربة الله عز وجل، فهل يمكن ان يصور البلاغيون معنى الآية تصويراً اجمل من تصوير عمر وابن عباس (رضي الله عنهما).

ميزات التفسير في عهد الصحابة

لقد امتاز التفسير في عهد الصحابة بعدة ميزات نجملها فيما يأتي :

١- لم يفسر القرآن جميعه في عصر الصحابة، وانما اقتصر على تفسير بعض آيات الاحكام، وما غمض منه.

٢- كان التفسير واضحا خاليا من كل تعقيد، لذلك قلت الاختلافات في فهم معاني القرآن، وكان بسيطا كل البساطة لذلك كانوا كثيرا ما يكتفون بالمعاني الاجمالية.

٣- لم يدون التفسير في هذا العصر في كتاب مستقل كما نشاهده الآن لان التدوين لم يكن قد بدأ بعد، وانما كان يلقى شفاها وقد اتخذ شكل الحديث بل كان جزءا منه، وفرعا من فروعه فكانت التفسيرات منشورة لآيات متفرقة كما كان الشأن في رواية الحديث، فحديث صلاة بجانب حديث جهاد وهكذا.

٤- ندرة استنباط الاحكام الفقهية، وعدم وجوب الانتصار للمذاهب لعدم ظهور الاختلاف المذهبي الذي نشأ بعد عصر الصحابة (رضي الله عنهم).

التفسير في عصر التابعين

ولما امتدت الفتوحات الاسلامية، واتسعت رقعتها بفتح الشام ومصر والعراق وفارس، تفرق الصحابة ولم يستقروا في بلد واحد بل نأى الكثير منهم عن المدينة مشرق النور ومبعث الهداية حتى استقر بهم النوى موزعين في البلاد شرقا وغربا فتحلق حولهم كبار التابعين يتلقون أقوالهم ويقتبسون العلم عنهم وينقلونه لمن بعدهم فاتسع الخلاف في معاني القرآن بسبب بعدهم عن عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) اولا، ولاختلاطهم بأهل البلاد المفتوحة الذين أسلموا، وكانوا لا يفهمون اللغة العربية ثانيا، فكانت حاجة الناس الى التفسير في هذا العصر أشد مما كانت عليه في أي عصر مضى، وقد وجد التابعون انفسهم ملزمين بتفسير اكثر ما يمكن تفسيره من القرآن الكريم، وقد اشتهر بالتفسير منهم كثيرون، ومن أعيانهم مجاهد ابن جبير وسعيد بن جبير وعكرمه مولى بن عباس، وعطاء بن ابي رباح، والحسن البصري ومسروق بن الاجدع وسعيد بن المسيب والضحاك ابن مزاحم وغيرهم.

ولقد قامت في هذا العهد على أيدي التابعين مدارس متعددة كان لها خصائصهم وتلاميذها الذين حفظوا منهجها في التفسير ونقلوه الى من جاء بعدهم من الاجيال وأشهر هذه المدارس هي :

أولا – مدرسة مكة – وهي التي أرسى قواعدها عبد الله بن عباس ومن أشهر اصحابها وأبرزهم.

أ- مجاهد بن جبير المكي ويروى عنه انه قال عرضت القرآن على ابن

عباس ثلاث عرضات أقف عند كل آية أسأله عنها فيم نزلت وكيف كانت ؟ وقال الثوري : ((اذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به)) ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم(١).

ب- سعيد بن جبير المتوفى سنة ٢٩٥هـ(٢).

جـ- عكرمة مولي ابن عباس المتوفى سنة ١٠٥هـ(٣).

د- وطاووس بن كيسان اليماني المتوفى سنة ١٠٦هـ(٤).

هـ- وعطاء بن ابي رباح المتوفى سنة ١١٤(٥).

ثانيا - مدرسة المدينة : ومؤسسها الصحابي الجليل ابي بن كعب وهو أحد الذين جمعوا القرآن على عهد النبي، والمقدم بين القراء ومن أشهر تلاميذ هذه المدرسة :

أ- ابو العالية رفيع بن مهران الرياحي وهو من ثقات التابعين المشهورين بالتفسير المتوفى سنة ٩٠هـ(٦).

ب- زيد بن أسلم المدني وقد قال عنه يعقوب بن شيبة : انه ثقة من أهل

---

(١) مقدمة في اصول التفسير ص ٣٧ وطبقات المفسرين للداودي ٢/٣٠٦.

(٢) وفيات الاعيان ١/٣٦٥ والتفسير والمفسرون ١/١٠٣.

(٣) تهذيب التهذيب ٧/٢٧٣.

(٤) المرجع نفسه ٥/١١٠.

(٥) طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٣٩.

(٦) انظر التفسير والمفسرون ١/١١٥.

الفقه والعلم بتفسير القرآن له كتاب في التفسير المتوفى سنة ١٣٦هـ[١].

ثالثا - مدرسة الكوفة وقد أسس بناءها الصحابي الجليل عبد الله ابن مسعود المقرئ المفسر وقد كان الرسول يحب قراءته كما يقول. قال لي النبي (صلى الله عليه وسلم) : اقرأ علي قلت يا رسول الله أأقرأ وعليك انزل؟ قال : نعم فقرأت سورة النساء حتى أتيت الى هذه الآية ««فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا» قال حسبك الان، فالتفت اليه، فاذا عيناه تذرفان[٢] وقال (صلى الله عليه وسلم) معلنا اعجابه بقراءة ابن مسعود : ((من سره ان يقرأ القرآن رطبا كما أنزل فليقرأ قراءة ابن ام عبد[٣].

ومن أبرز تلاميذ هذه المدرسة :

١- مسروق بن عبد الرحمن الكوفي المتوفى سنة ٦٣هـ[٤].

٢- الاسود بن يزيد المتوفى سنة ٧٥هـ.

٣- علقمة بن قيس المتوفى سنة ١٠٢هـ.

٤- عامر الشعبي المتوفى سنة ١٠٥هـ.

٥- الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠هـ.

---

(١) طبقات المفسرين ١٧٦/١ وطبقات الحفاظ ص ٥٣.

(٢) صحيح البخاري ٥٧/٦.

(٣) حلية الاولياء لابي نعيم ١٢٤/١ وغاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري ٥٥١/١.

(٤) انظر تهذيب التهذيب ١٠٩/١٠-١١١.

٦- وقتادة بن دعامة السدوسي المتوفى سنة ١١٧هـ[1].

وقد أشاد ابن تيمية بجهود هذه المدارس ومؤسسيها فقال : وأما التفسير فان أعلم الناس به أهل مكة لانهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء ابن ابي رباح، وعكرمة مولي ابن عباس وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاووس وابي الشعثاء وسعيد بن جبير وأمثالهم، وكذلك أهل الكوفة من اصحاب عبد الله بن مسعود ومن ذلك تميزوا به على غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير وأخذه عنه ايضا ابنه عبد الرحمن وعبد الله بن وهب[2].

ولما بزغ فجر القرن الثاني ابتدأ عصر تدوين العلوم بأمر الخليفة عمر ابن عبد العزيز الذي كان له الفضل الاكبر في تدوين العلوم وبخاصة السنة والتفسير فانطلق العلماء يجوبون الاقطار ويطوفون الامصار يجمعون احاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويدونونها، وقد صحب هذه الحركة تدوين التفسير ايضا على انه باب من الابواب التي اشتمل عليها الحديث حيث كانوا يجمعون الحديث ويجعلون بجواره من تفسير منسوب الى النبي (صلى الله عليه وسلم) او الى أصحابه مضيفين الى ذلك ما فتح الله به عليهم مما لم يؤثر تفسيره عن النبي ولا عن اصحابه فلم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة وآية آية من مبدئه الى منتهاه، وبقى على هذه الحالة لم يتخذ له شكلا مستقلا وانما كان جزءا من ذلك الحديث

(١) انظر طبقات المفسرين للداودي ٤٤/٢.

(٢) مقدمة في اصول التفسير ص ٦١.

وبابا من ابوابه حتى العصر العباسي وبهذا يعد رجال الحديث أول من دون التفسير ويؤيد ذلك ما وجد في كتب المحدثين كموطأ الامام مالك وكتب الصحاح، وبخاصة صحيح البخاري الذي اشتمل على كتاب التفسير الذي رتبه على سور القرآن مترجما لكل سورة بترجمة حتى جاء في مقداره ما يعادل عشر الجامع الصحيح[1]. واليكم نموذجين من تفسير التابعين بالرأي والاجتهاد :

١- قال الحسن البصري في تفسير قوله تعالى :

«وشاورهم في الأمر»[2] ما أمر الله تعالى نبيه بالمشاورة لحاجة منه الى رأيهم، وانما اراد ان يعلمهم ما في المشاورة من الفضل ولتقتدي به امته من بعده[3].

٢- قال مجاهد في تفسير قوله تعالى «توبة نصوحاً» ان يهجر العبد الذنب وهو يحدث نفسه ان لا يعود اليه[4].

ميزات التفسير في عهد التابعين

لقد امتاز التفسير في هذا العهد بميزات نجملها فيما يأتي :

---

(١) انظر التفسير ورجاله للشيخ محمد الفاضل بن عاشور ص ٤٢ وصحيح البخاري ٢١/٦-٢٤٥.

(٢) سورة آل عمران الآية /١٥٩.

(٣) تفسير القرطبي ٤/٢٥٠.

(٤) تفسير مجاهد ٢٩/١ وتفسير الطبري ١٥١/١٧.

١- دون التفسير وصنف فيه وظهرت تفاسير شاملة لاكثر آيات القرآن ولكنها ظلت في شكل رواية الحديث.

٢- اتسع التفسير بالرأي، وظهر في الافق بوادر الخلاف المذهبي حول بعض الآيات مثل تفسير قتادة والحسن البصري حول القدر[١] وهي مسألة تتوجه الى ارادة الانسان وقد إختلف فيها العلماء أيعد الانسان فاعلا مختاراً قادراً على ما يفعل وهذا قول القدرية أم يعد الانسان فيما يفعل كالريشة في مهب الريح ليس لها ارادة تحركها وتوجهها التوجيه الذي تبتغيه وهذا قول الجبرية، والصحيح ان الله خلق الافعال كلها (والله خلقكم وما تعملون) وللعبد الكسب وهو مختار فيه وبهذا الكسب يكون الثواب والعقاب وهذه هي عقيدة السلف الصالح.

٣- ان رجوع بعض المفسرين من التابعين الى من أسلم من علماء أهل الكتاب ككعب الاحبار وعبد الله بن سلام ووهب بن منبه، وتساهلهم في الاخذ عنهم ادى الى دخول بعض الاسرائيليات في تفاسيرهم ولا سيما حول بدء الخليقة وبعض القصص القرآنية.

أما في عهد تابعي التابعين فقد جاء فيما يبدو بعض التطوير في التفسير وتدوينه، حيث اتجهت همم بعضهم الى جمع ما أثِرَ من التفسير عن رسول الله وعن صحابته وعن التابعين من غير تفرقة بين المدارس التي مر ذكرها فصنفوا التفسير في كتب كانت اجمع واوسع من الكتب التي صنفت في عهد التابعين ومن أشهر هؤلاء المفسرين ما يأتي :

---

(١) انظر القرآن والتفسير للدكتور عبد الله شحاته ص ١٤.

١- ابو محمد اسماعيل بن عبد الرحمن القرشي المعروف بالسدي المتوفى سنة ١٢٧هـ.

٢- محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ١٤٦هـ.

٣- ابو حمزة الثمالي صاحب الامام ابي محمد علي بن الحسين زين العابدين (رحمه الله) ذكر تفسيره ابن النديم.

٤- أبو بصير الاسدي صاحب الامام ابي عبد الله جعفر بن محمد الصادق (رحمه الله).

٥- مقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠هـ.

٦- شعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠هـ.

٧- سفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١هـ.

٨- وكيع بن الجراح الكوفي المتوفى سنة ١٩٧هـ.

٩- سفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨هـ.

١٠- يزيد بن هارون المتوفى سنة ٢٠٦هـ.

١١- ابو عبد الله بن عمر الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧هـ.

١٢- عبد الرزاق بن همام الصنعاني المتوفى سنة ٢١١هـ(١).

ومما يؤسف له ان اكثر تفاسير هؤلاء المفسرين قد ضاع، فلم يصلنا

---

(١) انظر مجمع البيان للطبرسي ٧/١ والقرآن والتفسير ص ٩٧ وقصة التفسير للدكتور أحمد الشرباصي ص ٨٩.

منها الا تفسير سفيان الثوري وقد طبع حديثا بالهند، وتفسير عبد الرزاق ابن همام الصنعاني المخطوط بدار الكتب المصرية، وتفسير مقاتل بن سليمان الازدي وقد قام بتحقيقه الدكتور عبد الله شحاته تمهيدا لنشره.

واوضح من يمثل هذا التراث النقلي في التفسير منذ نشأته حتى نهاية عهد تابعي التابعين ابن جرير الطبري الذي جاء بعد عهدهم واشتهر تفسيره المسمى (جامع البيان في تفسير القرآن) الذي يعد مصدرا خصبا جمع كل الملامح النهائية والسمات الواضحة لما يسمى بالمنهج المأثور في التفسير، والذي عرض فيه اقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم مع ذكر أسانيدها دون تعقيب عليها غالبا بتصحيح او تضعيف كما رجح بعضها على بعض ترجيحا يعتمد على النظر العقلي، مستقلا غير مقلد، مجتهدا في استنباط بعض الاحكام الفقهية ذاكرا وجوه الاعراب عارضا الروايات والاخبار الاسرائيلية مع مناقشة الذين يفسرون القرآن بالرأي المجرد.

والحق ان هذا التفسير ما هو الا دائرة معارف غزيرة الثروة جمعت بين ذروة التفسير بالمأثور الى جانب التفسير بالرأي[1].

---

(١) انظر التفسير ورجاله ص ٣٦.

المبحث الثاني
مرحلة التأصيل

مما لاشك فيه ان المرحلة الاولى للتفسير كانت الاساس القوي والنواة الصالحة لتطوير تفسير القرآن، وقد اقترن هذا التطوير بمجئ العصر العباسي الذي تفجرت فيه تيارات فكرية، وتغييرات اجتماعية جديدة دخلت المجتمع الاسلامي نتيجة للاختلاط الحضاري والتلاقح الفكري، فالعراق مثلا قطر له تاريخ عريق في الحضارة والثقافة والمدنية وكان منارا يلقي أشعته على ما حوله من البلدان قبل الاسلام. فبالتلاقح الفكري انتقلت علومه المختلفة وثقافاته المتعددة الى المجتمع الاسلامي فأقبل العلماء على هذه العلوم يستفيدون منها لفهم القرآن الكريم، ولتوسيع معارفهم العقلية والفلسفية والعلمية للرد على أهل الاديان الاخرى ومنكري النبوات الذين شنوا هجوما فكريا على أصول الاسلام وعقائده، فانبرى لهم المفسرون يفندون آرائهم، وقد تولد عن هذا الصراع ظهور فرق اسلامية مختلفة واحزاب سياسية متناحرة، واثارت كثيرا من القضايا الدينية والفكرية، واخذت تنظر الى القرآن من خلال عقائدها، وكان لها نشاط ملحوظ في ميدان التفسير كالمعتزلة والخوارج والاشعرية والامامية.

ولما كان لاختلاط العرب بالامم الاخرى أثره في شيوع العجمة قام اللغويون والنحويون يضربون اكباد الابل الى البادية يستفسرون عن لفظ، او يقفون على تفسير ليساعدهم في فهم الآيات مما أدى الى نشوء تفاسير لغوية ونحوية ومن اشهرها ما يأتي :

١- غريب القرآن لابي محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ[١].

٢- غريب القرآن لابي بكر محمد بن العزيز السجستاني المتوفى سنة ٣٣٠هـ وهو مطبوع[٢].

٣- المفردات في غريب القرآن لابي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصبهاني المتوفى سنة ٥٠٢هـ[٣].

٤- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة[٤].

٥- الفوائد في مشكل القرآن للمعز بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠هـ[٥].

٦- معاني القرآن لابي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٣هـ.

٧- معاني القرآن لابي زكريا يحيى بن زياد المتوفى سنة ٢٠٧هـ[٦].

٨- اعراب القرآن لابي اسحق ابراهيم السري المعروف بالزجاج المتوفى

---

(١) طبع عدة طبعات منها طبعة جيدة بتحقيق السيد احمد صقر بدار احياء المكتب العربية سنة ١٩٥٨م.

(٢) انظر معجم المطبوعات ١٠٠٨/١.

(٣) طبع عدة طبعات آخرها بتحقيق الدكتور محمد أحمد خلف القاهرة، ١٩٧٠م.

(٤) طبع بتحقيق السيد أحمد صقر بالقاهرة سنة ١٩٥٥م.

(٥) طبع بتحقيق سيد رضوان الندوى من مطبوعات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية بالكويت سنة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

(٦) طبع بدار الكتب المصرية.

سنة ٣٠٠هـ(١).

٩- اعراب ثلاثين سورة من القرآن لابي عبد الله الحسين بن محمد المعروف بابن خالويه المتوفى سنة ٣٧٠هـ(٢).

١٠- مشكل اعراب القرآن لابي محمد مكي بن ابي طالب القيسي المتوفى سنة ٤٣٧(٣).

١١- البيان في غريب اعراب القرآن لابي البركات عبد الرحمن بن محمد ابن عبد الله بن سعيد الانباري المتوفى سنة ٥٧٧هـ(٤).

١٢- اعراب القرآن لابي البقاء عبد الله بن حسين العكبري النحوي المتوفى سنة ٦١٦هـ(٥).

كذلك ظهرت في مطلع القرن الرابع حركة تفسيرية كبرى بلغت حد النضج وبرزت تفاسير مستقلة قائمة بذاتها، الا انها على الرغم من احتوائها على الرواية بالاسناد الى الرسول واصحابه والتابعين فانها قد تعرضت للاستشهاد بالشعر على المعاني القرآنية، وبيان الاعراب وابرازها

---

(١) طبع بتحقيق الابياري بالقاهرة سنة ١٩٦٣-١٩٦٥.

(٢) طبع في دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٤١.

(٣) حققه الدكتور حاتم صالح الضامن وطبعته وزارة الاعلام ببغداد سنة ١٩٧٥م في جزئين.

(٤) طبع بتحقيق الدكتور طه عبد الحميد طه بمطابع دار الكتاب العربي سنة ١٩٦٩ (جزءان).

(٥) طبع عدة طبعات، انظر معجم المطبوعات ١/٢٩٤-٢٩٥.

الاستنباط الفقهي وتوجيه الاقوال، وترجيح بعضها على بعض والرجوع الى آراء النحاة من كوفيين وبصريين والى آراء اللغويين كالكسائي والفراء والاخفش وهكذا تجاوز التفسير بهذه الخطوات الواسعة تدوين التفسير منقولا عن السلف الى تفاسير امتزج فيها فهم القرآن بالرأي، والنقل وبهذا الاسلوب بلغت التفاسير غاية النضج والكمال تبعا لتدرج الحياة غير ان ما يلاحظ عليها هو المغالاة في تلوينها باللون الذي تميل اليه ثقافة المفسر لهذا كانت هذه التفاسير ذات مشارب مختلفة تبعا لاختلاف مشارب مؤلفيها ومن هذه التفاسير مايأتي :

١- تفسير الطبري المسمى (جامع البيان في تأويل القرآن) الذي سبق الكلام عنه، ويعد مرجعا اصيلا للتفسير بالنقل والعقل لما حواه من عناية بالروايات والمنقولات المويدة بالسند عن شيوخه، ولما فيه من رد للقراءات الى أصولها فضلا عن اشتماله على استشهادات شعرية ولغوية ونحوية للاستدلال على ما ذهب اليه، كما أن فيه ردا على من خالف مذهبه من أصحاب المذاهب الاخرى الذين يتهمهم بالزيغ والانحراف، وكان في انتقاده للاحاديث المسندة قوي الاعتماد على الفقه حتى لنجده يرد حديثا في تأويل آية بانه خلاف ما تقرر عند الفقهاء من الحكم.

٢- ومن هذه التفاسير ايضا (التبيان في تفسير القرآن) للشيخ أحمد بن الحسن الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠هـ.

لقد كان الطوسي امام الامامية لا يستسيغ تقليد المفسرين الذين سبقوه الا بقيام الادلة الصحيحة على اقوالهم وقد كان اعتماده في المنقول

على أهل البيت من الصحابة والتابعين وبعد قيام الادلة الصحيحة - العقلية او الشرعية على اقوالهم واهم ما يلاحظ على المؤلف تحكيمه العقل غالبا في احتجاجاته، وشرحه لمعاني القرآن وترجيح بعضها على بعض وفي الدفاع عن مذهبه الفقهي، كما حكم عقله كذلك بسلامة وعمق في رده على مخالفيه من الفرق والمذاهب الاخرى كالحشوية[١] والخوارج[٢] والمعتزلة[٣] وغيرها، ويعتبر هذا التفسير من أهم تفاسير الامامية لكونه جامعا لمنهجي المنقول والمعقول وان غلب عليه الجانب العقلي.

٣- تفسير مجمع البيان للطبرسي، ويعد هذا التفسير من التفاسير الاصلية المعتبرة لدى علماء المسلمين لعدم تعصبه لشيعته وتحيزه لمذهبه غالبا فلم يفرق بين الصحابة في نقله لمروياتهم وآرائهم، ولم يجرح أحدا منهم وهو من هذه الناحية ليعتبر نموذجا فريدا بين تفاسير الامامية، كما

---

(١) الحشويه : هم الذين يحشون الكتب بالروايات ويأخذونها من دون تفقه ودراية انظر شرح المقاصد للتفتازاني ١٧٦/٢.

(٢) الخوارج : ظهرت هذه الفرقة في عهد علي (رضي الله عنه) وكانوا من اتباعه، لما قبل التحكيم خرجو عليه وهم اشد الفرق دفاعاً عن مذهبهم وقد اشرعت الباهم كلمة (لا حكم الا لله) وقد قاطعوا عليا وقاتلوه ورموا اتباعه بالشرك فقاتلهم حتى كاد يبيدهم.

(٣) المعتزلة : ظهرت هذه الفرقة في العصر الاموي، ولكنها شغلت الفكر الاسلامي في العصر العباسي ردحاً طويلاً من الزمان ومن اصول مذهبهم التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فاذا جمع المسلم هذه الاصول فهو معتزلي.

انه يتعرض لتوجيه الاقوال وترجيح بعضها على بعض بنزاهة وانصاف ينم عن عمق في الفهم، وقد افاض في تفسيره بعلوم اللغة والنحو والبلاغة مما يدل على تضلعه فيها كما عنى في تفسيره بالفقه والحديث والقراءات مما يدل على تمرسه فيها وبهذا يكون تفسيره جامعا بين المنقول والمعقول متأسيا في ذلك بامامه الطوسي.

٤- ومنها تفسير جار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ المسمى (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل) وقد عني فيه بالوجوه البلاغية ونكاتها التي اشتملت عليها الآيات القرآنية، لانه كان في أسرار البلاغة ابن بجدتها ومن حق الزمخشري علينا ان نقرر ان تفسيره بلغ قمة التفاسير البيانية وان أسلويه فيما سلكه من بيان من الناحية البلاغية ليعد مجددا، لانه خالف الاسلوب الذي سار عليه أهل السنة قبله، فتوضيحه لجمال الاسلوب وبيانه لوجوه الاعجاز قد حمل كثيرا من اهل السنة على أن يسلكوا مسلكه في تفسيرهم كالعلامة ابي السعود محمد بن محمد العمادي المتوفى سنة ٩٨٢هـ ومما يؤخذ عليه انه كان في اثناء تفسيره للآيات يدس مذهب المعتزلة بحسن تعبيره بحيث يغيب ذلك على كثير من الناس. وقد انبرى له الامام أحمد ابن منير المالكي الاسكندري فتتبع آراءه الاعتزالية وفندها في كتابه المسمى (الانتصاف)[1].

٥- ومنها ايضا تفسير الرازي محمد بن عمر بن الحسين المتوفى سنة

(١) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان اعجازه لمصطفى الصاوي الجويني، ص ٢٦٨، طبع دار المعارف بمصر.

٦٠٦هـ المسمى (مفاتيح الغيب) وقد توسع فيه توسعا كبيرا في شرح الآيات وربطها بأقوال الحكماء والفلاسفة، كما تعرض لابطال شبهات الملحدين وهفوات الجاحدين وتفنيد حجج المخالفين من المعتزلة وغيرهم، كما اهتم بالعلوم الكونية والاستنباطات الرياضية، وفروع الفقه واصوله الا ان النزعة الفكرية العقائدية هي السمة البارزة على تفسيره لما افاض فيه من مباحث علم الكلام.

٦- ومنها تفسير القرطبي، وقد افاض في تفسير آيات الاحكام وفقهها حتى كأنه كتاب فقه، يبدأ من باب الطهارة وينتهي بأمهات الاولاد، وكثيرا ما استطرد الى اقامة ادلة الفروع الفقهية، والمباحث الاصولية التي لا تعلق لها الآية وكذلك أفاض في الرد على أدلة مخالفيه في المذهب.

هذه هي أجل التفاسير التي برزت في مرحلة التأصيل التي ابتدأت من القرن الرابع وحتى نهاية القرن السادس الهجري، وان هذه المرحلة لتعتبر بحق من اخصب المراحل لعلم التفسير حيث اصبح بهذه الكتب الاصيلة وامثالها ذا قواعد واسس ومصطلحات، الا ان السمة الغالبة على هذه التفاسير هي الجمع بين التفسير بالنقل والعقل يضاف الى ذلك تأثرها الى حد بعيد بثقافة المفسر تأثيرا واضحا وتأثرها كذلك بنزعته الفكرية والعقائدية التي غلبت عليه. فالفقيه اذا كان مفسرا أشبع القول في المسائل الفقهية كالجصاص المتوفى سنة ٣٧٠هـ صاحب تفسير احكام القرآن، والكيا الهراس الشافعي المتوفى سنة ٥٠٤هـ وابن العربي المالكي المتوفى سنة ٦٧١هـ والقرطبي الذي مر ذكره. وعالم الكلام ملأ تفسيره بالعلوم

العقلية، والحجج والادلة في الرد على مخالفيه، فها هو صاحب تبيين كذب المفتري يذكر ان ابا الحسن الاشعري أحد أئمة علم الكلام قد ألف تفسيرا أسمه (المختزن) لم يترك آية تعلق بها بدعي الا ابطل تعلقه بها وجعلها حجة لاهل الحق[1]. وكتفسير الرازي الذي سبق ذكره.

والنحوي ليس له هم الا الاعراب ونقل قواعد النحو ومسائله وخلافياته كالزجاج والواحدي وابي حيان، فهذه الالوان من التفاسير المختلفة قد تأثرت الى حد بعيد بما أشر به اصحابها من ثقافات، وبما سيطر على عقولهم من نظم فلسفية، ونزعات فكرية ومبادئ عقائدية جعلتهم يتحكمون في النص القرآني، ويحددون بموجبها المواد منه وهذا امر لا يخدم النص اذا اردنا ان نفسر القرآن تفسيرا سليما غايته الهداية، لان النص القرآني، يجب ان يجرنا اليه، لا ان نجره الينا حتى لا تنزلق بنا الاهواء الى تحميل كتاب الله ما ليس منه فنقع فيما لا تحمد عقباه.

---

(١) انظر تبيين كذب المفتري لابن عساكر الدمشقي ص ١٣٣ وقصة التفسير لاحمد الشرباصي، ص ١٤٤.

المبحث الثالث
مرحلة الركود والتقليد

وبانتهاء القرن السادس الهجري توقفت حركة الابداع في التفسير القرآني التي برزت في مرحلة التأصيل وبدأ دور التقليد والجمود حيث شرع المفسرون في هذه الفترة يتجهون الى نقل الاقوال المأثورة عن أسلافهم من المفسرين دون ان ينسبوها الى قائليها، مختصرين في ذلك الاسانيد فكان هذا ايذانا بفتح الباب على مصراعيه لدخول الوضع في التفسير وشيوع الاسرائيليات فيه، وجل هم هؤلاء المفسرين هو تنسيق ما ينقلونه عن اسلافهم وصيانته باساليب منهجية تمكن الطلبة من استيعابها والالمام بجوانبها كتفسير (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) لابي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، لان الهمم قد فترت والعزائم قد عجزت عن ممارسة مناهج المفسرين في مرحلة التأصيل في تناول الموضوعات القرآنية والانتفاع بتفاسيرهم لما فيها من سعة واسهاب فلا يصبر على قراءتها الا علماء الدين المختصون وطلابهم.

اما غيرهم فحسبهم مختصرات تفيد المعنى القرآني في يسر وسهولة لهذا قام بعض علماء هذه الفترة كالسيوطي فالف تفسيره الوجيز بايجاز معتمدا على ارجح الاقوال واعراب ما يحتاج اليه والتنبيه على القراءات، هكذا كانت حالة التفسير في دور التخلف لم نجد فيها مفسرا مجتهدا بارعا في التفسير متمكنا من تصوير حاجة عصره من التفسير الموضوعي

غير ابن تيمية[1] وتلميذه ابن قيم الجوزية اللذين كانا ذوي فهم عميق في تفسير القرآن ومعرفة احكامه واكتناه ما يتضمنه من اسرار وحكم، فراح كل منهما يراجع التفاسير القديمة ناقدا آراءهم الشاذة ومفندا اتجاهاتهم المنحرفة، وهادما مبادءهم الضالة المضللة لافكار المسلمين وداعيا الى الالتزام بالمنهج الصحيح المؤدي الى فهم القرآن الكريم بوضوح دون تعقيد وانسياق وراء المصطلحات الغريبة والموضوعات التي ضيعت على المسلمين معنى كتاب الله وشوهت حقائق الاسلام وفرقت المسلمين الى طوائف وشيع ذات اتجاهات مختلفة ما انزل الله بها من سلطان.

ولم نلحظ طيلة القرون التي تلت عصر ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية[2] مفسرا ذكيا لا يدخر وسعا في الكشف عن معاني القرآن ويجمع بين التفسير العقلي والنقلي على مستوى دقيق من الدقة والامانة العلمية وجودة الاسلوب غير ابي الثناء الالوسي المتوفى سنة ١٢٧٠هـ فقد اودع في تفسيره روح المعاني ما لخصه من الكشاف وحاشية الشهاب على

---

(١) ولد ابن تيمية ٦٦١هـ واسمه الكامل تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية وكانت ولادته من أسرة دينية عرفت بنزعتها بالورع والتقوى والعلم فاتجه ابن تيمية منذ نعومة اظفاره هذا الاتجاه حتى غدا نابغة في الفقه والحديث والتفسير وقد فسر كثيرا من القرآن الكريم. انظر : العقود الدرية ص ٢٧-٢٨، وشذرات الذهب ٨٣/٦-٨٤.

(٢) انظر ابن تيمية امام السيف والقلم للاستاذ سعد صادق محمد، ص ٣٤ اصدار المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية بالقاهرة، العدد ١٤٨. ومنهج ابن القيم في التفسير لمحمد السنباطي، ص ٦٥ من مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية.

البيضاوي من نكات بيانية ومباحث فنية كما اودع فيه ملخص ما في تفسير الرازي من بحوث عقلية وكلامية وسجل ذلك كله بأسلوبه الادبي البليغ مع بروز شخصيته في المناقشة والتفنيد والترجيج وكان في بعض الاحيان يظهر في تفسير بعض الآيات بمظهر المصلح المفكر في معالجة اوضاع التخلف في العالم الاسلامي واصلاحه عقيديا وسياسيا واجتماعيا وعلميا متأسيا فيما يبدو بالامامين ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ولكن عن طريق التلميح لان الظروف السياسية التي كانت تسود عصره لم تسمح له بالافصاح عن ذلك. ويعتبر تفسيره من اجمع التفاسير واجلها لولا النزعة الصوفية التي تسربت اليه فكانت حجابا حاجزا دون ادراك بعض معاني القرآن الكريم.

المبحث الرابع

مرحلة التجديد في العصر الحديث

ان الظروف السيئة التي مر بها المسلمون في أواخر الدولة العثمانية وظهور الاوضاع الحضارية المتخلفة التي كانت تحيط بها من جميع النواحي هي التي دفعت بعض العلماء والمفكرين من رجال الاصلاح الى التفكير باخلاص وجدية لانقاذ العالم الاسلامي من ازمته الحضارية وانتشاله من وهدته الاجتماعية التي كانت سائدة حينذاك، ولما كان القرآن اعظم الاسس في بناء الحضارة الانسانية الرفيعة، وانه الدستور الذي أمر الله المسلمين بالسير على هديه، والاستفادة من تعليماته، والتمسك بتوجيهاته، لذلك فان بوادر النظر في الاصلاح اتجهت اليه من هنا وهناك، وتبلورت في وضوح في عقلية المفكر الاسلامي السيد جمال الدين الافغاني الذي يعتبر بحق اساس النهضة الاسلامية الحديثة، ورجل الاصلاح الفذ الذي نفخ في هذا الشرق من روحه الفياضة فدبت فيه الحياة والعزة والكرامة وعادت اليه ذكريات أمجاده وماضيه العريق.

لقد تصدى السيد جمال الدين للاصلاح الديني والاجتماعي والسياسي يدفعه الى ذلك واقع الامة وما تحياه من قضايا ومشكلات مدافعا في كل ذلك عن الاسلام، متسلحا بالفكر والفلسفة لرد هجمات المستشرقين والمستعمرين حتى تتحرر الامة الاسلامية من قيود التخلف بكل أشكاله، وتسير في ركب الحضارة بين الامم، فدعا في ميدان الاصلاح الديني الى فهم الاسلام في ظل القرآن والسنة النبوية الصحيحة، وأعمال

السلف الصالح فهاجم بشدة المناهج التفسيرية التي اقتحمت المصطلحات الغربية والعلوم العقلية واللغوية وسمحت لدخول الاسرائيليات والموضوعات في تفسير القرآن فكانت حجابا حجز عن المسلمين مبادئ القرآن وحقائق الاسلام، لانها جعلت من تفسير القرآن أحاجي معقدة والغازا لا يفقهها الا العالم الخبير لذلك دعا الى اعادة النظر في المناهج التفسيرية القديمة ودراسة القرآن وتفسيره على أسس تتفق والنهج العقلي الحديث للنهوض بالمجتمع الاسلامي وتقدمه فوضع أسس هذا المنهج ورسم ملامحه، ودعا الى النظر الجدي في القرآن وتنقية تفسيره مما علق به من بعض العقائد الدينية والافكار الفلسفية والتأويلات الفاسدة والاسرائيليات والموضوعات لكي تبرز هداية القرآن للمسلمين ويفهمون مقاصده على الوجه الصحيح الذي نزل من أجله وبعد وفاة جمال الدين حمل لواء الاصلاح تلميذه الشيخ محمد عبده الذي تأثر به تأثيرا كبيرا فكان مصلحا دينيا وعالما اجتماعيا ومفسرا عميق الفكر أرسى دعائم التجديد في تفسير القرآن الكريم ووضع اسسه التي يمكن اجمالها بصورة عامة على الوجه الآتي :

الاساس الاول : محاربة التقليد الذي جعل الامة عاجزة عن أن تواجه تيار الحياة المتجددة ومعالجة أحداثه في ضوء تعاليم الاسلام، ولهذا لم يدع مناسبة الا دعا فيها الى ترك التقليد واحترام العقل والاعتماد عليه في الفهم والاستنتاج والاستنباط[1].

الاساس الثاني : اعمال النظر واستخدام المنهج العلمي في

---

(١) انظر منهج الامام محمد عبده في تفسير القرآن ص ٥٣ للدكتور عبد الله شحاته.

البحث والاستنباط لان القرآن يلح علينا أشد الالحاح باستعمال النظر العقلي ويحثنا على التفكير والتقدير فلا نقرأ منه قليلا الا ونراه يعرض علينا الاكوان وما فيها ويأمرنا بالنظر اليها واستخراج أسرارها واستجلاء حكمها.

قال تعالى :

«قل انظروا ماذا في السموات والارض». وقال ايضا :

«قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق». وقال ايضا :

«أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها». وقال كذلك :

«أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت» الى غير ذلك من الآيات

الكثيرة جدا، واكثار القرآن من شئ دليل على تعظيم شأنه ووجوب الاهتمام به[1].

الاساس الثالث : عدم الاكثار من العلوم والمصطلحات في التفسير والنظر الى القرآن الكريم من حيث هو كتاب هداية يرشد الناس الى طريق الخير والى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة[2].

الاساس الرابع : العودة الى الكتاب والسنة وعدم اخضاع القرآن الكريم

---

(١) المرجع نفسه، ص ٧١-٧٣.

(٢) تفسير المنار ١/٧-١٩. وانظر تطور تفسير القرآن الكريم، بحث للدكتور محسن عبد الحميد، ضمن سلسلة دراسات عربية واسلامية، العدد الثاني، ص ٢٥٤، طبع مطبعة الاوقاف والشؤون الدينية ببغداد.

للمذاهب الفقهية والاراء الكلامية والصوفية والفلسفية وضلالات أهل الفرق المنحرفة(١).

الاساس الخامس : بيان حكمة التشريع في العقائد والاحكام على الوجه الذي يجذب الارواح ويسوقها الى العمل والهداية والتجديد الكامل لفقه الاسلام واستنباط الاحكام الاكثر انسجاما مع روح العصر(٢).

الاساس السادس : الاستفادة من العلم الحديث في تفسير القرآن الكريم والدفاع عن الاسلام أمام الغزو الفكري الذي تعرض له ودفع المطاعن المختلفة عنه(٣).

الاساس السابع : انكار الروايات الاسرائيلية الكاذبة والخرافات وعدم الاعتماد على الاحاديث الضعيفة والموضوعه.

الاساس الثامن : الاهتمام بتنظيم الحياة الاجتماعية على أساس من هدى القرآن(٤).

هذه هي أهم أسس التجديد التي أرساها الامام محمد عبده في منهج تفسير القرآن الكريم في العصر الحديث، وبهذا يكون محمد عبده صاحب مدرسة جديدة في التفسير كان لها اثرها الكبير في نفوس تلاميذه الذين سلكوا مسلكه، ومن اشهرهم :

---

(١) التفسير والمفسرون ٣/٢١٤.

(٢) المنار ١/٢٥. انظر تطور تفسير القرآن ص ٢٥٤.

(٣) المنار ١/٣٩. وتطور تفسير القرآن ص ٢٥٤.

(٤) منهج الامام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم ص ١٦٩.

تلميذه السيد رشيد رضا صاحب تفسير المنار. فقد كان أشد تلاميذه تأثرا بأفكاره، وتمسكا بمنهجه حيث سلك مسلكه في تجريد التفسير من الاسرائيليات، وتنقيته من البدع والخرافات والاحاديث الضعيفة والموضوعة، وتنحية الحشود الزاخرة من مباحث الفنون عنه وعدم تطبيق النص على نظريات العلوم القابلة للنقض بنظريات اخرى ثم يليه تلميذه الشيخ أحمد مصطفى المراغي، ثم تلميذه الشيخ عبد القادر المغربي صاحب تفسير جزء تبارك، وكذلك الشيخ محمود شلتوت في الاجزاء الستة التي فسرها من القرآن الكريم وفضيلة الشيخ محمد محمد المدني في كتابه المجتمع الاسلامي كما تنظمه سورة النساء والشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره ثم الاستاذ سيد قطب في ظلال القرآن الذي اهتم اضافة الى الاسس التي اتبعها الشيخ محمد عبده وتلاميذه بتجديد اسلوب التفسير القرآني بعمق الادراك، ودقة التصور وروعة التصوير مستنيرا بدراسات المدرسة البيانية التي يمثلها كثير من العلماء والمفكرين المسلمين كالشيخ امين الخولي، ومتأثرا بمقاييس النقد الادبي الحديث، ومستندا الى ذوقه الادبي البارع، واحساسه المرهف مما جعله يحلق في تفسيره تحليقات رائعة في سماء الاعجاز القرآني مصورا الحياة بألوانها المختلفة وحركة الكون في لوحات فنية ذات صور متحركة ومشاهد وشخوص، يحس القارئ لتفسيره بمظاهر التطور الكبير الذي ادخله على مثل هذه الدراسات، لذلك فان تفسيره يمثل بحق قمة الدراسات القرآنية ادبيا وفنيا.

ومن مظاهر التجديد في هذا العصر الاتجاه العلمي في التفسير

الحديث والباعث على ذلك هو وجود آيات تشير الى حقائق علمية وهذه الآيات تحرض على التطلع والبحث والتنقيب، لذلك اتجه بعض العلماء الى استنباط طائفة من العلوم من آيات القرآن. ومن اكثر هؤلاء العلماء اهتماما بهذا الاتجاه الامام الغزالي الذي بسط القول فيه، فخصص بابا من كتابه جواهر القرآن بين فيه كيف تشعبت العلوم كلها من القرآن[1]، ثم طبق ذلك الامام الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب.

واشهر من اهتم بهذا الاتجاه في عصرنا هذا الشيخ طنطاوي جوهري المتوفى سنة ١٣٥٨هـ-١٩٤٠م حيث كان فارس هذا الميدان بحق، في تفسيره الضخم (الجواهر) لانه كان يؤمن بأن القرآن لا يفسر الا بالعلم الحديث، فكتب تفسيره ومزج فيه الآيات القرآنية بالعجائب الكونية، كما قامت بعده محاولات ناجحة من بعض العلماء الاجلاء كالدكتور أحمد الغمراوي المتوفى سنة ١٩٧٣م في كتابه (الاسلام في عصر العلم) والاستاذ حنفي احمد في كتابه (التفسير العلمي للآيات الكونية)[2]، والاستاذ محمد محمود ابراهيم استاذ الجيولوجيا وهندسة التعدين في كتابه (اعجاز القرآن في علم طبقات الارض)[3]. والاستاذ عبد الرزاق نوفل في كتبه الثلاثة (القرآن والعلم الحديث) و(الاسلام والعلم الحديث) و (الله والعلم الحديث) يربط فيها بعض الآيات العلمية بالعلوم الحديثة. وعلى الرغم

---

(١) قصة التفسير، ص ١٢٧.

(٢) تطور التفسير ص ٢٥٥ سلسلة دراسات عربية واسلامية.

(٣) اتجاه التفسير في العصر الحديث لمصطفى محمد الحديدي الطير ص ٢٦٤.

من ان هؤلاء العلماء يجيزون التفسير العلمي للقرآن الا انهم متفاوتون في الغرض منه (فمنهم من يعتقد انه من مزايا الاسلام التي امتاز بها على سائر الاديان ان كتابه المقدس يحث على العناية بعلوم الكون ودراستها،

ولذلك فان محاسن المخلوقات وعجائبها تذكر للتنبيه على حكمة الله. ومنهم من يتوسع في ذلك حتى يجعل من القرآن اعجازا علميا باشتماله على كل المخترعات والمستحدثات، وما سيحدث من طيارات وغواصات وقنابل ذرية وصواريخ واقمار صناعية واجهزة للتدمير وآلات للتخريب مستدلين في ذلك بقوله تعالى :

«ما فرطنا في المتاب من شئ» كما نجد عند طنطاوي جوهري الذي يؤكد ايمانه بأن القرآن هو سر العلوم، وان الانسان لا يستطيع ان يفهم القرآن حق الفهم ما لم يعرف العلوم الحديثة[1].

ومن مظاهر التجديد في هذه المرحلة ايضا اتجاه العلماء الى طريقة جديدة في تناول الآيات وتفسيرها بطريقة تختلف عن الطريقة التقليدية المتبعة في تفسير آيات الذكر الحكيم وسوره على الترتيب القرآني المعروف، ومنهج هذه الطريقة هو ان يعمد المفسر الى جمع الآيات التي وردت في موضوع واحد ثم يضعها أمامه كمواد يحللها ويفقه معانيها، ويعرف النسبة بين بعضها وبعض فيتجلى له الحكم ويتبين المرمى الذي ترمي اليه الآيات الواردة في الموضوع، وبهذه الطريقة يتمكن المفسر من علاج موضوعات

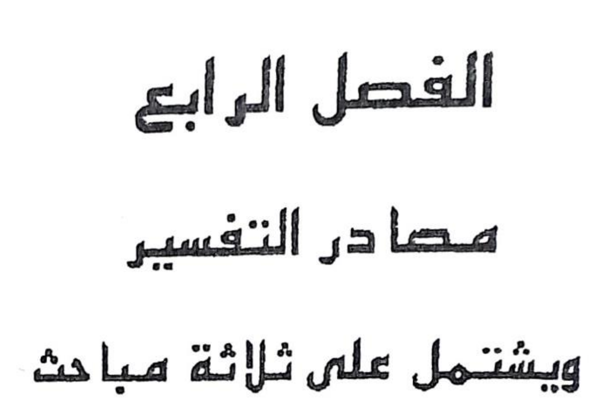
---

(١) اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث للدكتور عفت محمد الشرقاوي ص ٣٧٣.

علمية كثيرة، كل موضوع منها قائم بنفسه لا يتصل بسواه ولا يختلط بغيره وله مساس بحياة الناس الدينية والاجتماعية والسياسية وهذه الطريقة هي ما اطلق عليها اسم التفسير الموضوعي وبواسطتها يعرف الناس موضوعات القرآن بعناوينها الواضحة ويدركون مقدار صلة القرآن بحياتهم الواقعية مثل القرآن والاسرة والقرآن والعلم والقرآن والاقتصاد، والقرآن والجهاد[1]. والقرآن والسلم، والقرآن وعلم النفس الى غير ذلك من الموضوعات، فالتفسير الموضوعي هو الذي فيه الحل المناسب لكل المشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وباتباع منهجه يواكب القرآن كل شؤون الحياة فيحتل مكانه اللائق به كما اراد الله في كل ميادين الحياة في العلم والاجتماع والتشريع والاسرة والتاريخ والاقتصاد وكل شؤون الحياة، وبهذا نكون قد انتقلنا بالتفسير من الطريقة المألوفة التي فيها غالبا الخروج عن المقصود من الكتاب الالهي بسبب تأثر المفسر بالبيئة فيذهب في مذاهب تنسيه معنى القرآن الحقيقي الى الطريقة المثلى التي ترشد الناس الى ما تضمنه القرآن من انواع الهداية للافراد والجماعات في كل ما يتصل بحياتهم من شؤون، وهذا ما نصبوا الى تحقيقه على يد الدراسات الاسلامية في كل مكان.

---

(١) انظر قصة التفسير ص ١٦٢-١٦٣، واتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث، ص ٣٢٤.



الفصل الرابع

مصادر التفسير

ويشتمل على ثلاثة مباحث



المبحث الاول
المصدر النقلي

والمراد به تفسير القرآن الكريم بالمنقول سواء أكان قطعيا كالقرآن أم رواية ظنية، فتكون قابلة للنفي والاثبات، والمعول عليه في ذلك خاضع لموازين تقييم الروايات حسب اقسامها الثلاثة المتواترة والمشهورة واخبار الآحاد.

فالاول : هو تفسير القرآن بالقرآن : وذلك بأن يجمع المفسر الى الآية التي يخوض في تفسيرها جميع الآيات التي وردت في القرآن والتي تتعلق بموضوعاتها لان الآية ربما تكون عامة فتقصر على بعض افرادها بالكتاب لأن عمومات الكتاب تقصر على بعض افرادها بالكتاب باتفاق الاصوليين لتساويهما في القطعية من حيث الثبوت والقطعية او الظنية من حيث الدلالة والامثلة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى : «والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء» عام خصص بقوله تعالى : في شأن المطلقات قبل الدخول«فما لكم عليهن من عدة تعتدونها»ربما تكون الاية بانفرادها مشعرة بالاطلاق فتحتاج الى آية او آيات اخرى تقيدها كقوله تعالى في كفارة اليمين : «فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام» مع قراءة ابن مسعود الشاذه ((فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متواليات))، فالنص الاول اوجب صيام ثلاثة ايام من غير تقييد بكونها متواليات او غير متواليات. والنص الثاني اوجب أن تكون متوالية ومن ذلك قوله تعالى في كفارة الظهار (فتحرير رقبة) وقوله في كفارة القتل (فتحرير رقبة مؤمنة) فيحمل المطلق على المقيد عند الشافعي ولا يحمل عند الحنفية والامامية، وهكذا فان القرآن يفسر

بعضه بعضا، فما اجمل في مكان فسر في مكان آخر وما اوجز في موضع بسط في آخر، وما كان عاما في موضع خصص في موضع آخر وهذا النوع من التفسير هو خير انواع التفسير واصحها لانه تفسير قرآن بقرآن.

والثاني : تفسير القرآن بالرواية : وهي اما ان تكون سنة صادرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، لانها تعتبر الشارح الاول للكتاب الكريم، فان بعضا من احكام الحلال والحرام لا تفصيل لهما الا في السنة، فكل ما اشتمل عليه القرآن من احكام فقهية سواء أكانت متعلقة بالعبادات أم بتنظيم الاسرة والمجتمع ام بتنظيم علاقة المسلمين بغيرهم من الامم في السلم والحرب كل هذه بينته السنة النبوية. والسنة التي تفسر القرآن تنقسم الى ثلاثة اقسام :

١- السنة المتواترة : وهي ما رواه في كل عصر – منذ عصر الصحابة – جمع تستحيل العادة تواطؤهم على الكذب لكثرتهم وتباعد اماكنهم مما تتناوله ابصار الناس واسماعهم واكثر ذلك من السنن الفعلية كالذي روى في كيفية الوضوء والصلاة والصوم والحج والزكاة وغير ذلك مما يطلع عليه جمهور الناس، فينقله جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب الى امثالهم.

والمتواتر قطعي الثبوت عن النبي (صلى الله عليه وسلم) فيفيد علما يقينيا ويجب العمل به ويكفر جاحده وهذا النوع من السنة يفسر به معاني العقائد التي اشتمل عليها القرآن الكريم.

٢- السنة المشهورة : وهي ما رواها من الصحابة عدد لا يبلغ حد التواتر،

ثم تواتر في عهد التابعين وبها يقيد مطلق القرآن كما يخصص عمومه ومن ذلك تقييد الحل في قوله تعالى :

«وأحل لكم ما وراء ذلكم» بقوله (صلى الله عليه وسلم) : (لا تنكح المرأة على عمتها) وكذلك تقييد آية السرقة كحديث الرسول المتواتر (لا تقطع يد السارق الا في ربع دينار فصاعدا) كما يخصص به القرآن ايضا كحديث : (نحن معاشر الانبياء لا نورث) وحديث (لا يرث القاتل شيئا) فقد خصص بالاول عموم الموروث في آيات الفرائض وبالثاني عموم الوارث فيها.

فكل من السنة المتواترة والمشهورة يجب العمل بها في تفسير القرآن الكريم، وتمتاز المتواترة من المشهورة بأنها تفيد علما يقينيا فيكفر جاحدها(١).

٣- خبر الاحاد وهو ما عدا السنة المتواترة والمشهورة اي ما رواه عدد لا يبلغ حد التواتر لا في عهد الصحابة ولا في عهد التابعين وان كثر رواته بعد ذلك.

وهذا النوع من الاحاديث يفيد غلبة الظن فلا يعمل به في تفسير الآيات التي تتعلق بالعقائد وذكر اسرار الكون من خلق السموات والارض ومن سير الشمس والقمر وتسخير الرياح والانهار والبحار فكل ما ورد فيه من السنة اخبار آحاد او رواتها غير ثقات لا يعتبر حجة في تفسير القرآن وفهمه.

---

(١) انظر : اصول التشريع الاسلامي لاستاذنا الشيخ علي حسب الله، ص ٣٢-٤٣، الطبعة الرابعة.

ويجوز ان يفسر به الآيات التي تتعلق بالاحكام العملية كابيع والشراء والاجارة وغيرها فقط عند جمهور العلماء، أما الخوارج والمعتزلة فقد ذهبوا الى اهماله وعدم الاخذ به لانه لا يفيد علما مقطوعا به ولا يحمل الا عن علم لقوله تعالى :

«ولا تقف ما ليس لك به علم[1]. ولهذا لا يكون حجة في تفسير آيات العقيدة ولا في الآيات التي توجب عملا من الاعمال.

هذه هي السنة النبوية وهي تعد المرتبة الاولى في تفسير القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فيجب الا نخوض في الآية قبل ان نجمع اليها من الآيات والاحاديث ما يتعلق بموضوعاتها حتى تتحقق الوحدة التي على ضوئها ينتظم المعنى ويتضح الحكم.

واما ان كانت الرواية قولا لصحابي فاذا كان صحيحا كان كالمصباح نستضئ به ونهتدي الى المراد من الآية الكريمة بهديه.

ولو تتبعنا كتب التفسير لوجدنا للصحابة تفسيرا كثيرا، ولبيان منزلة هذه الاقوال من التفسير انقسم العلماء في حجيتها الى فريقين :

١- ذهب الفريق الاول الى ان تفسير الصحابة لا يجب الاخذ به الا اذا كان مرفوعا[2] الى النبي (صلى الله عليه وسلم)، ولم يكن الرأي فيه مجال، فما حكم عليه بأنه مرفوع لا يجوز رده بالاتفاق، بل يأخذه المفسر، ولا يعدل

---

(١) المرجع السابق، ٤٣-٤٤.

(٢) المرفوع : هو ما اضيف الى حضرة النبي قولا او فعلا، سواء اضافه صحابي او تابعي او من بعدهما وسواء اتصل اسناده أم لا ؟

عنه بأي حال.

اما اذا كان موقوفا[1] فلا يجب الاخذ به، لانه لم يرفعه الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وانما اجتهد فيه الصحابة، والمجتهد يخطئ ويصيب، والصحابة في اجتهادهم كسائر المجتهدين، وهذا رأي جمهور العلماء، وعليه جمع من متأخري الحنفية كالكرخي والشافعية والمالكية والحنابلة واكثر المتكلمين.

٢- وذهب الفريق الثاني الى انه يجب الاخذ به والرجوع اليه لظن سماعهم له من الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ولانهم ان فسروا برأيهم فتفسيرهم اصوب، لانهم ادرى الناس بكتاب الله لحضورهم نزول الوحي ولما لهم من الفهم العميق والتفكير الصحيح، ولا سيما علماؤهم كالخلفاء الاربعة وابن عباس وعبد الله بن مسعود، والى هذا ذهب ابو حنيفة وتلاميذه الكبار ابو يوسف ومحمد وزفر والحسن بن زياد[2] وابن القيم الذي اطال في الاحتجاج لاقوال الصحابة[3].

ومعظم تفسير الصحابة يدور حول فهم الآيات الخاصة بالحروب والصلح والمعاهدات والامان واحكام الذميين والمستأمنين وجمع الغنائم

---

(١) الموقوف : هو ما اضيف الى الصحابي من قول او فعل او تقرير وخلا عن قرينة الرفع الى الرسول سواء اتصل سنده أم لا.

(٢) انظر كتابي المؤلف زفر بن الهذيل أصوله وفقهه ص ١٥٩. والحسن بن زياد وفقهه بين معاصريه من الفقهاء ص ٢٨٥.

(٣) انظر اصول التشريع الاسلامي ص ٧٥-٧٦، واعلام الموقعين ١٢٨/٤ وما بعدها ٥.

وتوزيعها وفرض الخراج والجزية وكان عهد عمر (رضي الله عنه) عهدا خصبا لبيان الاحكام الشرعية فقررت فيه المبادئ الاسلامية المستفادة من القرآن والتي تعد منبعا للفقهاء استقوا منه آراءهم في نظم العلاقة الدولية بين المسلمين وغيرهم في السلم والحرب، وقد استقاها هو من فهمه لكتاب الله تعالى وادراكه لمراميه.

ومن الموضوعات التي اثر عن الصحابة اقوال فيها في تفسير القرآن وفهم معانيه آيات القصص في القرآن الكريم، وليس المروى عنهم في ذلك كثيرا والصحيح النسبة اليهم (رضي الله عنه) قدر ضئيل، لانهم ما كانوا يعنون الا بما له اثر عملي يتعلق بالحلال والحرام وما له اثر في تنظيم المجتمع الاسلامي واقامة الحق والعدل في الارض.

اما ما جاء عن الصحابة تفسيرا للآيات الكونية فلا يؤخذ به على انه حجة الا اذا كان ثابتا عن النبي بسند قطعي، اما ما يقال فيما عدا ذلك وخالف علماً قطعيا فانه يرد على صاحبه[1].

أما اقوال التابعين في التفسير اذا كانت في بيان الحلال والحرام فلا تكون حجة الا اذا ايدها دليل من كتاب او سنة او قول صحابي، فهذا ابو حنيفة يقول فيهم :

((اذا آل الامر الى الحسن وابراهيم، فهم رجال ونحن رجال))[2].

---

(١) انظر المعجزة الكبرى للشيخ محمد ابي زهرة ص ٥٩١-٥٩٣، طبع ونشر دار الفكر العربي بالقاهرة.

(٢) المصدر نفسه ص ٥٩٣.

ومعظم تفسير التابعين يدور حول قصص القرآن والآيات الكونية، وبعض ما يتعلق بالنبي (صلى الله عليه وسلم)، وقد شابته الاسرائيليات، وكثرت في كتب التفسير، وتجاوزت الحد بسبب ترديد بعضهم كثيرا من الاسرائيليات.

وقد توقف العلماء في قبول الاسرائيليات التي راجت حول التفسير، فما علم صدقه منها لموافقته القرآن وكان صحيح السند قبل والارد باتفاق العلماء قاطبة.

المبحث الثاني
المصدر العقلي

لقد تأكد لنا فيما سبق ان النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يفسر القرآن كله، لذلك اعمل المجتهدون من الصحابة عقولهم ففسروا بعض الآيات التي لم يفسرها النبي (صلى الله عليه وسلم)، بما فهموه منها حسب اجتهادهم بالرجوع الى اللغة تارة، وبما عرف من عادات العرب تارة اخرى فمن هنا كانوا يقولون في القرآن بما فهموه بعقولهم كعمر وابن عباس وعلي (رضي الله عنهم)، ثم حذا حذوهم تلاميذهم من التابعين كمجاهد المتوفى سنة (١٠٢)هـ والذي اتفق العلماء كما يقول النووي على امامته وجلالته وتوثيقه في الفقه والتفسير والحديث، فجذور التفسير العقلي ممتدة اذن الى عصر الصحابة والتابعين.

وبمرور الزمن تبلورت حركة التفسير العقلي حتى ظهرت في اوائل العصر العباسي مدرسة تفسر القرآن بالعقل ويمثلها المعتزلة، وقد توسعوا كثيرا في التفسير الذي اقاموه على أصول مذهبهم ثم اخضاع كثير من آيات الله وبخاصة المتشابه منها الى ارائهم وتفسيرهم لها تفسيرا يتفق مع عقيدتهم ولا شك ان مثل هذا التفسير الذي يخضع للعقيدة يحتاج الى مهارة كبيرة واعتماد على العقل اكثر من الاعتماد على النقل ومن الامثلة على ذلك تفسيرهم لقوله تعالى :

«وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون»[١] فأحس

---

(١) سورة البقرة الآية / ٨٨.

المعتزلة من هذه الآية انها لا تتفق ومذهبهم لانها تشعر ان الله خلق قلوبهم في اكنة مما يدعوهم اليه ومغشاة بأغطية تمنع وصول دعوة الرسول اليها فيكون الله هو الذي منعهم عن الهدى فقرؤا غلف (بضمتين) بمعنى اوعية، فهذا الزمخشري يفسر هذه الآية فيقول : ((وقل غلف تخفيف غلف، جمع غلاف اي قلوبنا اوعية

للعلم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره، وروى عن ابي عمرو (قلوبنا غلف بضمتين))[1].

هكذا حاول الزمخشري وغيره من مفسري المعتزلة التوفيق بين مذهبهم والقرآن بكل ما يستطيعون من وسائل التوفيق حتى يتمشى النص القرآني مع قواعد مذهبهم.

والمعتزلة يقدسون العقل، ويضعونه في المرتبة العليا في التوصل الى معرفة الاحكام الشرعية، حتى انهم ليقولون : ((ان العقل يدرك الحكم والشرع يؤيد العقل))[2].

ويذهب الامامية مذهب المعتزلة في تقديس العقل الا انهم يعدونه طريقا موصلا الى العلم القطعي، ويعتبرونه دليلا من ادلة الاحكام التي يكشف بها عن حكم الله في الفعل.

فهذا الشريف المرتضى في كتابه : (امالي المرتضى) يسير في

---

(١) تفسير الكشاف ٢٢٤/١.

(٢) محاضرات في اصول الفقه على مذاهب اهل السنة والامامية لاستاذنا بدر المتولي عبد الباسط ٦٦/١، الطبعة الاولى بدار المعرفة ببغداد.

تفسير بعض الآيات على نحو يتفق مع مبادئ المعتزلة فقد قال في قوله تعالى :

«وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة» ان الآية هنا تحمل على انه اراد النظر الى نعمة الله[١] وذلك لان المعتزلة يرون ان رؤية الله مستحيلة، فينبغي تأويل الآية الى معنى يتفق مع المعقول، بينما يرى أهل السنة ان الرؤية التي اخبر الله عنها حاصلة يوم القيامة كما دل على ذلك كثير من الاحاديث الصريحة. وقد ذكرت بعضها انظر صحيفة (٥٧)

والواقع ان لاستخدام العقل في التفسير فضلا كبيرا في احياء الكثير من المفردات اللغوية والشواهد الشعرية والقواعدالنحوية، لان المفسر بالعقل والرأي يعتمد اول ما يعتمد على مفهوم اللفظ في اللغة، ومن وراء هذا الاعتماد رأينا تفسيرا بأكمله يكاد يكون مقصورا على العناية بالناحيتين اللغوية والبلاغية وتعني به تفسير الكشاف للزمخشري ويليه (تفسير ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الحكيم) للعلامة ابي السعود محمد بن محمد العمادي، فقد امتاز هاذان التفسيران بتجلية بلاغة القرآن، والعناية بهذه الناحية المهمة في بيان اعجازه مع سلامة في الذوق وروعة في التعبير

ومهما يكن من أمر فان المفسرين بالعقل – الا من شذ منهم او غلا في انحرافه – يقررون بحق ان للعقل مجالا كبيرا في التفسير ولكن بشرط الا يهيم على غير هدى من الشرع ولابد لكي يكون المصدر العقلي في التفسير مقبولا ان تتوفر في المفسر ثلاثة شروط :

---

(١) أمالي السيد المرتضى لابي القاسم علي بن الطاهر أبي احمد الحسين ١/٢٨، الطبعة الاولى ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م، مطبعة السعادة.

أولها – العلم باللغة علما سليما لكي يدرك معاني التصريف البياني في القرآن.

ثانيها – الا يخالف المأثور عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، اذ يكون مخالفا للمبين الاول للقرآن وهو النبي (صلى الله عليه وسلم).

ثالثها – الا يتعصب لفكرة او مذهب، ويخضع القرآن لما يتعصب له، فيكون تفسيره خاليا من تأثير الهوى[1].

فاذا توافرت هذه الشروط يكون العقل مصدرا خصبا وموردا صالحا للتفسير القرآني، يتجلى فيه ما بذله المفسرون من جهود كبيرة في تفسيرهم للآيات واستنباطهم لمعانيها قدر طاقتهم واخلاصهم، لان القرآن جم الدلالات كثير المدارك حتى قال بعض السلف : ((انك لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها))[2]. وفوق كل ذي علم عليم.

---

(١) انظر المعجزة الكبرى ص ٩٠٨.

(٢) قصة التفسير، ص ١٠٨.

المبحث الثالث

المصدر اللغوي

مما لا شك فيه ان اللغة هي الاساس الاول لتفسير القرآن، وعليها الاعتماد في بيان احكامه الشرعية، وتفسير غرائبه، فكان المفسرون من الصحابة والتابعين وغيرهم اذا سئلوا عن معنى كلمة غريبة في القرآن رجعوا الى شعر العرب مستشهدين بأشعارهم كما رأينا ذلك في تطبيقات ابن عباس، ولو امعنا النظر في نتاج جهابذة اللغة الذين فسروا غرائب القرآن، واوضحوا مشكله وبينوا معانيه، وبسطوا دلائل اعجازه، واسرار بلاغته واعراب آياته لوجدنا جملة كبيرة من اصول هذه الامور ترجع الى أقوال العرب وما اثر عنهم من شعر ونثر وامثال.

ومن هؤلاء المفسرين على سبيل المثال لا الحصر :

قطرب المتوفى سنة ٢٠٦هـ.

وابو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠هـ.

وابو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢١٠هـ.

وابو محمد سلمة بن عاصم النحوي المتوفى سنة ٣١٠هـ.

وابو اسحق ابراهيم السري المعروف بالزجاج النحوي المتوفى سنة ٣١١هـ.

وابو الحسن علي بن عيسى الرماني المتوفى سنة ٣٨٦هـ.

وابو بكر عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١هـ.

ومما يؤكد اعتماد العلماء على هذا المصدر في التفسير ما روى عن انس ابن مالك انه قال : ((لا اوتى برجل غير عالم بلغات العرب يفسر كتاب الله الا جعلته نكالا))(١).

فالمصدر اللغوي يحتاج اليه كل مفسر، لان اللغة في ذاتها اداة التعبير، ولا يمكن الاستغناء عنها في أي منهج من منهاجه، ولا نعني بهذا المصدر الوقوف عند الالفاظ وحدها، بل انه يشمل كل جوانب اللغة من اصول الالفاظ المفردة الى اساليب تراكيبها، وما يتخللها من قواعد النحو والصرف وعلوم اللغة، فانه لا معدى من القول في هذه القواعد، واثر القرآن في تطورها، وما اقتضاه نظمه المعجز من تعديل لها او تغيير فيها، غير انه ينبغي ان نذكر ان الكلمة المفردة هي اساس اللغة وحجر الزاوية في بناء العربية التي نزل بها القرآن، لذلك اذن الله تعالى (لنبيه ان يقرأه بحروفه المختلفة، وان دراسة هذه القراءات تلقي ضوءا على حياتها، وان الذين كتبوا في القراءات متواترها وشاذها حاولوا ان يردوا بعض صور النطق بها الى هذه القبائل)(٢).

لهذا نجد ابا حيان الاندلسي يقرر ان العناية بالكلمة المفردة وبيان أحكامها قبل التركيب امر ضروري للمفسر لا يحتاج بعده الى معلم فيقول : ((ومن احاط بمعرفة مدلول الكلمة واحكامها قبل التركيب وعلم كيفية تركيبها في تلك اللغة، وارتقى الى تمييز حسن تركيبها، وقبحه فلن يحتاج

---

(١) البرهان ٢/١٦٠.

(٢) دراسات في القرآن للدكتور السيد أحمد خليل ص ٣٧-٣٨، طبع دار المعارف.

في فهم ما تركب من تلك الالفاظ الى مفهم ولا معلم[1].

ومن اهم مكونات المصدر اللغوي الالمام بعلوم المعاني والبيان والبديع فالاحاطة بها لها اثر عظيم في بلوغ التفسير الذروة في جمال الاسلوب وكمال المعنى ولهذا نجد الزمخشري يضعها في ذروة الاحاطة اللغوية، فالفقيه عنده وان تقدم على الاقران في الفتاوي والاحكام، والمتكلم وان بز اهل الدنيا في صناعة الكلام والوعظ وان كان اوعظ من الحسن البصري، والنحوي

وان كان انحى من سيبويه، واللغوي وان علك اللغات بقوة لحييه لا يستطيع احدهم الوصول الى حقائق التفسير الا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما اونة وتعب في التنقير عنهما أزمنة[2].

فمن يتأمل كلام ابي حيان ينبغي عليه – ان كان مفسرا – ان يرجع الى كتب قطرب وابن سيده، والازهري والجوهري وابي العباس ثعلب وابن الانباري والزجاج والكسائي وابن الخياط والفراء وابي عبيدة وابي علي القالي.

كما ينبغي عليه الرجوع الى دواوين العرب لا سيما اصحاب المعلقات كامرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وغيرهم ممن يستدل بأشعارهم على معرفة معنى اللفظ.

---

(١) البحر المحيط لابي حيان ١/٥.

(٢) الكشاف ١/١٦.

ومن الملاحظ ان معرفة المعنى اللغوي وحده لاتكفي في الوصول الى المعنى المراد في كثير من النصوص القرآنية، لذلك اشترط الزمخشري لفهم القرآن البراعة في علم البلاغة احترازا من العجز في استجلاء الحقائق واستنباط الاحكام وفي رأيي ان هذا المصدر من اهم المصادر لانه لا يمكن الاستغناء عنه، وانه لا يعد مصدرا مستقلا، لانه يدخل في المصدرين السابقين بل هو الاساس في كل منهما.

الفصل الخامس

مناهج التفسير

ويحتوي على تمهيد وثمانية مباحث على الوجه الآتي :

المبحث الاول : منهج التفسير القرآني

المبحث الثاني : منهج التفسير الأثري

المبحث الثالث : منهج التفسير الفقهي

المبحث الرابع : منهج التفسير اللغوي

المبحث الخامس : منهج التفسير البياني

المبحث السادس : منهج التفسير الصوفي الباطني

المبحث السابع : منهج التفسير العلمي

المبحث الثامن : منهج التفسير الموضوعي



تمهيد

لم تقف الحركة الفكرية عند المسلمين بالنسبة الى كتاب الله عز وجل الى حد معين ذلكم الكتاب الذي كان وما يزال الكوكب الذي اضاء طريقهم، وهداهم الى الصراط المستقيم، لذلك عنوا به عناية فائقة من كل جوانبه ولا سيما تفسيره الذي تعددت مناهجه تبعا لاختلاف مشارب المفسرين وثقافتهم في فهم النص القرآني وتبعا لامكاناتهم وما فطروا عليه من طاقات، وكان ذلك في العصر العباس الذي يعد مفتاح كل نهضة حيث نضجت فيه حركة التفسير فأثمرت أمهات الكتب القيمة، ذات المناهج المختلفة في التفسير، والتي ما زالت الى الان على ما كانت عليه من تفسير بالمأثور وتفسير بالرأي، وآخر يجمع بينهما، ولكن السمة الغالبة على هذه المناهج هي اسراف اصحابها في تحميل القرآن الكريم ما تحمله عقولهم من ابحاث علمية او فلسفية مما ادى الى الخروج بالالفاظ عن معناها الذي يتطلبه السياق فنتج عن ذلك ظهور ثروة تراثية ضخمة تنم عن قدرة المفسر العلمية ومنحاه الثقافي.

اما ما اضافه المفسرون في العصر الحاضر فهو لا يتجاوز تفسير ما أشار اليه القرآن الكريم في بعض آياته من حقائق علمية ودراسات حديثة كشفت عن معجزات في علم النفس والحيوان والنبات والكون وقوانينه.

وبعد هذا التمهيد نتكلم بصورة موجزة عن اهم هذه المناهج لنطلع القارئ الكريم على مظاهر هذه النهضة في التفسير على الوجه الآتي:

المبحث الأول
منهج التفسير القرآني

وهو كما يبدو تبيين مراد الله من قرآنه، لانه الاعلم بكلامه، لذلك يقول القرآن الكريم :

«كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون»(١) ويقول أيضا :

«كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون»(٢) ويقول :

«ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيرا»(٣) الى غير ذلك من الآيات التي تؤكد ان الله هو المفسر لبعض القرآن الكريم.

ويتضح هذا المنهج بأن يجمع المفسر الى الآية التي يخوض في تفسيرها جميع الآيات التي وردت في القرآن وتتعلق بموضوعها، فعن طريق مقابلة هذه الآيات بالآية المراد تفسيرها يستدل على معناها.

فأذا استقرأنا الآيات التي جاءت فيها كلمة يسألونك(٤) او كلمة

---

(١) سورة البقرة، الآية / ١٨٧.

(٢) سورة البقرة، الآية / ٢٠٩.

(٣) سورة الفرقان، الآية / ٣٣.

(٤) ومنها قوله تعالى : «يسألونك ماذا ينفقون قل ما انفقتم من خير فللوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فان الله به عليم» من سورة البقرة الآية ٢١٥وكذلك الآيات ١٨٩، ٢١٧، ٢١٩ و ٢٣٠ و ٢٣٢ من سورة البقرة فقط وما ورد منها في سورة المائدة والاعراف والانفال والاسراء كلها فسرت من قبل الله سبحانه وتعالى فهي تفسير قرآن بقرآن.

يستفتونك ووقفنا على تفسيرها وسبب نزولها اتضح لنا ان الله سبحانه وتعالى هو الذي فسرها وبين احكامها، ففي تحريم الخمر مثلا نجد في أسباب النزول ان عمر بن الخطاب كان يدعو فيقول : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا حتى نزل قوله تعالى :

«يا أيها الذين آمنوا، انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون، انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون» فقال عمر : انتهينا ربنا انتهينا(١).

ومن تفسير الله تعالى لكتابه انه قد يذكر امرا مطلقا في آية ثم يقيده في آية اخرى، فمثلا لو قرأت قوله تعالى :

«واحل لكم ما وراء ذلكم ان تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان» لفهمت منها انه يحل لك ان تتزوج المشركة لانها لم تكن بين المحرمات التي ذكرناها قبل ذلك، واشار اليهن بقوله :

«وأحل لكم ما وراء ذلكم» ولكن لو جمعت اليها قوله تعالى :

«ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن»

لتبين لك ان حل ماوراء المذكورات مقيد بأن يكن من غير المشركات.

وهكذا قد يذكر سبحانه امرا عاما في موضع ثم يخصصه في موضع آخر او مجملا في مكان ثم يفسره في مكان آخر او مختصرا في مكان ثم يبسطه في مكان آخر(٢)، فقوله تعالى :

---

(١) انظر تفسير آيات الاحكام للسايس ٢/١٠٥.

(٢) انظر مقدمة في اصول التفسير ٩٣ تحقيق الدكتور عدنان زرزور.

«وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص» فقد دلت هذه الآية بظاهرها على وجوب القصاص ثم قال تعالى :

«فمن تصدق به فهو كفارة له» فقد دلت على ان العفو عن القصاص يكفر الذنوب فيكون هذا الظاهر العام قابلا للتخصيص والنسخ.

ومن ذلك ايضا قصص الانبياء كقصة موسى وفرعون وعيسى والحواريين وآدم وابليس، فقد اوجزت في بعض السور وفصلت في سور اخرى الى غير ذلك من الموضوعات.

ومن الملاحظ ان منهج هذا النوع من التفسير اصح المناهج لانه تفسير القرآن بقرآن، ولهذا اعتمد عليه المفسرون قاطبة منذ الصدر الاول حتى عصرنا هذا، لان جمع آيات القرآن بعضها على بعض اذا كانت في موضوع واحد يستطيع المفسر ان يفهم بعض القرآن ببعضه.

وقديما سئل ابن كثير عن أحسن الطرق في تفسير القرآن فأجاب : ان اصح الطرق في ذلك ان يفسر القرآن بالقرآن، فما اجمل في مكان فانه قد بسط في موضع آخر[1].

ويقول الخوئي في مقدمة تفسيره : ((وسيجد القارئ ايضا اني كثيرا ما استعين بالآية على فهم اختها، استرشد القرآن الى ادراك معاني القرآن، ثم اجعل الاثر المروى مرشدا الى هذه الاستفادة))[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/١.

(٢) البيان في تفسير القرآن للسيد ابي القاسم الموسوي الخوئي ص ٢٢، طبع مطبعة الآداب بالنجف الاشرف وانظر المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم ص ٧٤.

ومن اراد الاطلاع على هذا المنهج بصورة مفصلة فليراجع تفسير السيد عبد الكريم الخطيب المسمى بـ (التفسير القرآني للقرآن) فقد اقتصر فيه على هذا المنهج فقط. .

المبحث الثاني
منهج التفسير الاثري

المراد بالاثر هنا : السنة الصحيحة[1] الواردة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) واقوال الصحابة من اهل البيت وغيرهم واقوال التابعين مرفوعة الى النبي عليه الصلاة والسلام.

فهذا المنهج يعتمد على هذه الآثار الثلاثة بنفس الترتيب فاذا تصدى المفسر لتفسير آية، واعياه فهمها بآية او آيات اخرى من القرآن، التجأ الى السنة يجمع الى الآية ما يتعلق بموضوعها من الاحاديث الصحيحة لانها الشارحة للقرآن والموضحة لمبهم الآيات والمفصلة لمجملها، والمخصصة لعامها والمقيدة لمطلقها، والمحددة لمعنى اللفظ بمعنى جديد استحدثه الاسلام، ومثل هذا انما يعرف من صاحب الشرع كما اشار الى ذلك قوله تعالى :

«وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم[2].

فالسنة مبينة للكتاب على النحو الذي ذكرت، فمثلا لو قرأت قوله تعالى :

«من بعد وصية يوصى بها او دين» عقب ما ذكر من تقسيم الميراث لفهمت ان الوصية جائزة مطلقا حتى لو زادت عن الثلث، او كانت للورثة ولكنك لو جمعت اليها ما ورد من نهي النبي (صلى الله عليه وسلم) سعد

---

(١) ان صح اطلاق الاثر على السنة.

(٢) سورة النحل آية / ٤٤.

ابن ابي وقاص عن الوصية بأكثر من الثلث، اذ قال له لما اراد الوصية بنصف ماله ((لا الثلث والثلث كثير)) علمت انه لا تجوز الوصية بأكثر من الثلث، وذلك تقييد لمطلق الآية، ولو علمت انه نهى عن الوصية لوارث بقوله تعالى :

«ان الله تعالى قد اعطى كل ذ حق حقه فلا وصية لوارث[1] لعلمت ان هذا تقييد آخر لمطلق الآية اذ كان ظاهرها يفيد جواز الوصية مطلقا.

نخلص من هذا الى انه لا يجوز لاحد ان يخوض في الآية قبل ان يجمع اليها من الاحاديث المتعلقة بموضوعها فان لم توجد التجأ الى اقوال الصحابة اذ الصحيح منها كالمصباح يهدى المفسر الى المراد من الآية لانهم عاصروا التنزيل، واقتبسوا من الرسول فما قالوا فيها يكون في الغالب مأخوذ عن رسول الله وان لم يرفعوه اليه حتى لقد قال الحاكم في المستدرك ان تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل له حكم المرفوع الى الرسول[2]. ولذا يقول الامام الشافعي : ((فان لم يجد من السنة رجع الى اقوال الصحابة فانهم ادرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والاحوال عند نزوله، ولما اختصوا به من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح))[3].

ومثال ذلك تفسيرهم لقوله تعالى :

«فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله» فقد فسرها بعضهم قائلا : ((الذي يصلي في اول الوقت، والمقتصد الذي

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة.

(٢) الا تقان ٢/١٧٦.

(٣) المرجع نفسه.

يصلي في اثنائه، والظالم الذي يؤخر العصر الى الاصفرار. وفسرها بعض آخر قائلا : السابق المحسن بالصدقة مع الزكاة، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة فقط والظالم مانع الزكاة))[1].

فان لم يجد في اقوال الصحابة الصحيحة ما يفسر الآية عمد الى اقوال التابعين في التفسير يتعرف على ماقالوه في معنى هذه الآية مع التأكد من صحة الرواية، ولا ينبغي ان نأخذ من اقوال التابعين الا بما اجمعوا على القول فيه، اما ما اختلفوا فيه فلا يكون حجة على بعضهم ولا على من بعدهم، وحينئذ يرجع في تفسير الآية.الى اللغة مع مراعاة عدم الخروج عن مقاصد الشريعة ومراميها وهذا انتقال من دائرة المنهج الاثري الى المنهج اللغوي.

فالمنهج الاثري اذن يعتمد في تفسير القرآن على السمع وحده اما عن الرسول او عن صحابته من اهل البيت وغيرهم او عن التابعين ولكن ينبغي على المفسر ان يحترس احتراسا شديدا من الآثار المروية عن الصحابة والتابعين اذا لم تكن موافقة لكتاب الله وسنة رسوله وخاصة ما ورد في تفسير المبهمات الواردة في القرآن مما يتعلق بالاشخاص او الاماكن مثل قوله تعالى :

«على رجل من القريتين عظيم»[2]

---

(١) قصة التفسير ص ٧٢.

(٢) سورة الزخرف الآية /٣١.

«وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله»[1]

«وعلى الثلاثة الذين خلفوا»[2]

«وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى»[3] لان تعيين هذه المبهمات انما يكون بالنص المنقول الذي صحت نسبته وصحت روايته، وما سوى ذلك يكون رجما بالغيب لمقولات على الله بغير علم، او تحديدا لما لم يحدده الله، دون ان يكون مع المحدد دليل او برهان.

وكذلك ما ذكر من تفسير في اسماء اصحاب الكهف ولون كلبهم وعددهم وعصا موسى من اي الشجر واسماء الطيور التي أحياها الله لابراهيم وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى الى غير ذلك مما ابهمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم او في دنياهم.

ولهذا نجد ابن كثير يشير في تفسيره الى ان اغلب مواطن التحديد للمبهمات في القرآن جاء عن طريق الاسرائيليات، لذا يوصي بالحذر الشديد في هذا الباب[4].

---

(١) سورة الاحقاف الآية /١٠.

(٢) سورة التوبة الآية /١١٨.

(٣) سورة يس الآية /٢٠.

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٤/١ وقصة التفسير ص ٥٢.

المبحث الثالث
منهج التفسير الفقهي

ان التفسير الفقهي هو ذلكم التفسير الذي يعنى باستنباط الاحكام الفقهية من النصوص القرآنية التي تتعلق بمصالح العباد في دنياهم وآخراهم، وقد نشأ منذ عهد الصحابة حينما كانت انظارهم تختلف في استنباط الاحكام من الآية، كالخلاف الذي وقع بين عمر بن الخطاب وعلي ابن أبي طالب في عدة الحامل المتوفى عنها زوجها. فقال عمر (رضي الله عنه) : ((تعتد بوضع الحمل))، وقال علي (رضي الله عنه) : ((تعتد بأبعد الآجلين))[1].

وكالخلاف الذي وقع بين عبد الله بن مسعود وزيد في خروج المرأة المطلقة من عدتها، فقال ابن مسعود (رضي الله عنه) لا تخرج المرأة من العدة الا اذا اغتسلت من الحيضة الثالثة، وقال زيد (رضي الله عنه) : تخرج من العدة بمجرد دخولها في الحيضة الثالثة، وذلك عائد الى إختلافهم في معنى القرء[2]. ثم اتسع هذا النوع من التفسير في عهد التابعين تبعا للحوادث التي جدت بعد عهد الصحابة نظرا لدخول الامم الاخرى في الاسلام، فأخذ كل مجتهد ينظر إلى هذه الحوادث على ضوء الكتاب والسنة

---

(١) انظر دراسات في الاختلافات الفقهية للدكتور محمد ابو الفتحص ٢٩ طبع مكتبة الهدى بحلب.

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٣٣/٣ ودراسات في الاختلاف الفقهية للدكتور محمد ابو الفتح ص ٢٩.

وغيرهما من مصادر التشريع، ثم يستنبط الاحكام التي تنقدح في ذهنه ويوقن انها الحق ولكن من غير تعصب لمذهب معين، بعيداً عن الاهواء والاغراض والميول، ولما انقضى عصر الائمة المجتهدين في الدين خلف من بعدهم خلف سرت فيهم روح التقليد والتعصب المذهبي، ومن هنا برز المنهج الفقهي.

ويتلخص هذا المنهج في تفسير آيات الاحكام على طريقة أمام من الائمة وفق اصول مذهبه وقواعد فقهه التي قد يراها المقلد هي الحق وانها البالغة درجة اليقين، فالمفسر في هذا المنهج يكاد يسرد فيه الفقه من باب الطهارة الى آخر ابوابه، وقد يستطرد الى اقامة ادلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية ثم يتعرض للمذاهب الفقهية الاخرى التي لا يرتضيها مجيبا عن أدلتها ومفندا آراءها على اساس ان الآية لا تحتمل الا مذهب امامه وانها لا تشهد الا لقوله، هكذا نلمح التعصب المذهبي يسود هذا المنهج فضلا عن ذكر الاقوال الفقهية المختلفة من اجل هذا تنوعت تفاسير هذا المنهج تبعا لتعدد المذاهب.

ونرى ان نورد اهم تفاسير هذا المنهج على الوجه الآتي :

١- من أهم تفاسير الحنفية :

أ- احكام القرآن للجصاص المتوفى سنة ٣٧٠هـ.

ب- التفسيرات الاحمدية في بيان الآيات الشرعية لاحمد بن ابي سعيد.

٢- ومن اهم تفاسير الشافعية :

أ-احكام القرآن لابي الحسن الطبري المعروف بالكيا الهراسي.

ب- القول الوجيز في احكام الكتاب العزيز لاحمد بن يوسف الحلبي.

المتوفي سنة (٥٠٤ هـ).

٣- ومن اهم تفاسير المالكية :

أ- احكام القرآن لابي بكر بن العربي.

ب- الجامع لاحكام القرآن لابي عبد الله محمد بن احمد الانصاري القرطبي المتوفى سنة ٦٧١هـ.

٤- ومن اهم تفاسير الحنابلة : .

أ- الاكليل في المتشابه والتأويل لاحمد بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ.

٥- ومن اهم تفاسير الجعفرية :

أ- كنز الفرقان في فقه القرآن للمقداد السيوري.

ب-فقه القرآن لقطب الدين الراوندي.

٦- ومن اهم تفاسير الزيدية :

أ- منتهى المرام، شرح آيات الاحكام لمحمد بن الحسين.

ب-الثمرات اليانعة والاحكام الواضحة القاطعة، لشمس الدين يوسف.

وهكذا تعددت التفاسير الفقهية تبعا لتعدد المذاهب، وهناك كتب اخرى في تفسيرات الاحكام ذكرها صاحب كشف الظنون ومن اراد الاستزادة في ذلك فليراجعه فان فيه الكفاية.

المبحث الرابع
منهج التفسير اللغوي

لما كانت اللغة هي الاساس الاول لتفسير القرآن الكريم، والمادة الاصلية التي يستمد منها فهم كتاب الله، وتفسير آياته أقبل عليها المفسرون وكانت موضع اهتمامهم منذ عصر الصحابة، وكان ابن عباس - كما ذكرنا - كثيرا ما يستعين باللغة وشواهد الشعر العربي على فهم القرآن، وقد روى عنه انه قال : اذا تعاجم شئ من القرآن فانظروا في الشعر فان الشعر عربي[1].

ولهذا يعد ابن عباس صاحب اول مدرسة في التفسير استعانت باللغة والشعر، وما اجويته على نافع بن الازرق الذي سأله عن مسائل مستشهدا بالشعر الا دليل قاطع على ذلك حيث اجابه على تفسير نحو مائتي كلمة بشواهد من الشعر القديم[2].

وقد سبق ان مثلت ببعضها في بحث التفسير بالرأي وهذا دليل ايضا على تشجيع ابن عباس على سلوك المنهج اللغوي في تفسير القرآن الكريم، ومن قبله كان الخليفة عمر بن الخطاب يشجع على ذلك ايضا كما مر حيث استعان الاثنان وخاصة ابن عباس بالشعر وكلام العرب في توضيح أساليب القرآن وتفهم تعابيره.

وبعد عصر الصحابة والتابعين اتسع نطاق هذا المنهج وبدأت تتضخم

(١) قصة التفسير، ص ٦٦.

(٢) الاتقان ١/١١٩-١٢٣.

الشواهد الادبية في التفسير فيذكر السيوطي في طبقات المفسرين ان الشنبوذي المتوفى سنة ٣٣٨هـ كان يحفظ خمسين الف بيت من الشعر شواهد للقرآن الكريم[١] وبذلك بدأ التفاعل القوى بين النصوص القرآنية والشواهد الادبية، وتولد عن ذلك عنصران آخران مهمان يتصلات باللفظ القرآني بالاضافة الى عنصري اللغة والشعر هما عنصر القراءة وعنصر الاعراب

أما القراءة فهي عبارة عن الصورة التي جاء عليها ضبط مفرد من الفاظ القرآن بحسب ما سمع منه ونقل بالتواتر مما يرجع الى تحقيق ذات الحرف، او ما يرجع الى شكل النطق به او ما يرجع الى حركته .. واما عنصر الاعراب فان التراكيب القرآنية لما كانت عربية كان فهم معانيها، وتحصيل فوائدها متوقفا على استيعاب المعنى الذي تفيده الالفاظ بالتراكيب تبعا لقانون تأليف الجملة العربية[٢].

فهذه العناصر الثلاثة هي أساس المنهج اللغوي، وقد أثرت تأثيرا كبيرا في تفسير القرآن، وايضاح معانيه، وحفظه من اللحن، وقد تميز اصحاب هذا المنهج عن غيرهم من المفسرين فسموا كتبهم معاني القرآن او غريبه او مشكل القرآن او مجازه، وقد سبق ان ذكرنا اسماء بعضها.

فهذه التفاسير اللغوية، وان تعددت اسماؤها، ينحصر منهجها في

---

(١) انظر نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن للدكتور السيد أحمد خليل ص ٤٥ الطبعة الاولى نقلا عن طبقات المفسرين للسيوطي ص٣٧ طبع اوربا.

(٢) التفسير ورجاله للشيخ محمد الفاضل بن عاشور ص ٢٣-٢٥.

بحث تراكيب الآيات ودلالة المفردات، والوقوف عند القراءات ووجوه اعراب الآيات وطرق قراءتها كل ذلك من أهم السبل التي توصل المفسر الى المعنى القرآني بشرط التجرد وعدم المغالاة.

والحق ان هذا المنهج كان له اكبر الاثر في الدراسات الادبية التي احاطت بالقرآن الكريم منذ ان تطورت حركة التفسير الى عصرنا هذا.

المبحث الخامس
منهج التفسير البياني

ويهدف هذا المنهج الى ابراز القيم الجمالية لصور البيان القرآني بما اشتملت عليه الآيات من انواع المجازات والاستعارات والكنايات والتشبيهات والتمثيل والتخييل والوصل والفصل والقصر، وابراز العلاقة بين اللفظ والمعنى، وكشف الدلالات الحالية والمقالية، وكل هذه الابحاث تعد من صميم الاعجاز، ومن أهم المؤشرات في استكناه الصور البيانية في الاسلوب القرآني.

وكانت اولى بذور هذا المنهج تبدو في محاولة العلماء لمعرفة وجوه الاعجاز القرآني والوقوف على اسراره البلاغية، فهذا ابو هلال العسكري في كتابه الصناعتين يدعو الى اتقان علوم البلاغة التي لا يهتدى الدارس الى معرفة اعجاز كتاب الله الا بعد الالمام بهذا الفن، ولا يكتفي أبو هلال العسكري بهذا القدر من أهمية للبلاغة بل يجعل دراستها في المرتبة الثانية بعد معرفة توحيد الله تعالى فيقول :

«ان احق العلوم بالتعلم واولادها بالحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف اعجاز كتاب الله تعالى»[1] ثم تطور ظهور هذا المنهج شيئا قليلا بما ابداه العلماء دفاعا عن القرآن كالرماني والخطابي والباقلاني والجاحظ وابن قتيبة والشريف الرضي حتى ظهر عبد القاهر الجرجاني المتوفي سنة (٤٧١هـ) بكتابيه (دلائل الاعجاز)

---

(١) الصناعتين لابي هلال العسكري ص ٣، طبع الاستانة سنة ١٣١٩هـ.

و(اسرار البلاغة) فأسس بذلك اصول هذا المنهج نظريا حيث استخدم ذلك في استنباط الاصول الاستعارية والصور التشبيهية والمعالم المجازية لآيات القرآن الكريم، فقد كان قمة لا تسامى في هذا الاتجاه، فهو لم يكتف بالدراسة التقليدية، بل اتجه اتجاها جديدا، حيث كان يوضح اسرار البلاغة العالية فيما يتناوله من نصوص، كما يحلل النظم القرآني ليقف على دقائق الاعجاز، وما كتاباه السابقان الا دليل على جهوده الكبيرة، وحسه المرهف، وتذوقه لجمال النظم القرآني، وبهذا يكون وحيد عصره في ايضاح صور القرآن البيانية، وجوانبه الفنية، الا ان ذلك لم يشمل القرآن أجمع.

حتى اذا جاء جار الله الزمخشري المتوفى سنة (٥٣٨هـ) تولى تفصيل قضية النظم في تفسيره الكشاف، فوقف عند آيات الذكر الحكيم جميعها آية آية ليبين ما يتعلق بكل نص قرآني من مسائل المعاني والبيان، فطبق فيه ما ابتكره عبد القاهر الجرجاني الذي رسم الخطة واعد المثال وبين الطريق فتولى الزمخشري التنفيذ[(١)]، مضيفا اليه من نكته البلاغية ما شاء الله حتى جاء تفسيره المسمى بـ (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل) خير من يمثل المنهج البلاغي في تفسير القرآن الكريم بغض النظر عما احتواه من مبادئ الاعتزال، ومع هذا فقد أصبح معتمد المفسرين من أهل السنة وغيرهم كالبيضاوي والنسفي والتفتازاني وابي المسعود، وصار كما قال الشيخ محمد الفاضل بن عاشور : ((عمدة

(١) انظر خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم للدكتور محمد رجب البيومي ص ٢٣٢.

الناس على اختلافهم : بين مشايع له ومخالف وعلى وفرة مخالفيه وانقطاع مشايعيه يرجعون اليه على انه نسيج وحده في طريقته البلاغية الاعجازية، وفي غوصه على دقائق المعاني وحسن ابرازها على طريقة علمية سائغة بتحليل التركيب وابراز خصائصه واعتباراته))[1].

وفي عصرنا الراهن سار على منهج الزمخشري في استشفاف الصور البيانية للقرآن الكريم جمع من المعاصرين، من ابرزهم الاستاذ أمين الخولي في محاضراته التي القاها على طلبة الدراسات العليا بالجامعات المصرية، وفي أحاديثه الاذاعية التي تدور حول بعض المعاني القرآنية والدكتورة عائشة عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ في كتابيها (التفسير البياني للقرآن الكريم) (والاعجاز البياني للقرآن الكريم) والدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه (النبأ العظيم) والدكتور محمد المبارك في كتابه (من منهل الادب الخالد) الى غير ذلك من المقالات والبحوث الصادرة من هنا وهناك التي يعالج اصحابها باقلامهم التفسير البياني للقرآن الكريم.

---

(١) التفسير ورجاله للشيخ محمد الفاضل بن عاشور ص ٥٨.

المبحث السادس

منهج التفسير الصوفي الباطني

لا نقصد بهذا المنهج تفسير بعض المحققين الذين يقولون : ان النصوص على أساس ظواهرها، وان فيها اشارات خفية الى دقائق تنكشف على ارباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة، فهو من كمال الايمان ومحض العرفان لبلوغ قلوبهم القمة في الصفاء والنقاء، ويمثل هذا المنهج المعتدل تفسير التستري، فان مؤلفه سهل بن عبد الله التستري له قدم ثابتة في مجال السلوك الصوفي القائم على أساس من الشريعة والاقتداء بالرسول (صلى الله عليه وسلم)[1] والجمع بين الظاهر والباطن من غير خلاف بينهما كما هو مذهب الغزالي وهو ما يسمى بالمنهج الصوفي الاشاري وانما نقصد بهذا المنهج تلك التفسيرات التي سلك اصحابها مسلك الباطنية الذين يؤولون القرآن حسب اهوائهم بعيدا عن ظواهر الآيات، ودلائل السنة النبوية وظواهر الالفاظ العربية، ففسروا القرآن تفسيرات تتسم بالحلول تارة والتجسيد تارة اخرى معتمدين على ما يدعونه من فيوضات الهية واشراقات ربانية، وهي في الواقع مجانبة للصواب ومجافية للطريق المستقيم ومنافية للمنهج الصوفي القويم الذي سبقت الاشارة اليه.

واوضح ما يمثل هذا المنهج في التفسير كتاب اسرار الباطنية لمؤلفه محمد بن مالك اليماني احد علماء القرن الخامس الهجري يعطينا صورة

---

(١) انظر مناهج المفسرين للدكتور رفيع عبد الحليم ص ٣٣ طبع دار الكتاب العصري.

واضحة عن مقدار تلاعب الباطنية بكتاب الله تحت ستار التأويل، وعن مبلغ استهزائهم بعقول العامة الذين وقعوا فيما نصبوه لهم من الاحابيل، ولبيان ذلك نجتزئ بذكر نبذة من الكتاب فقد جاء فيه قال الله تعالى :

«واقيمو الصلاة وآتوا الزكاة»[1].

فالزكاة مفروضة في كل عام مرة وكذلك الصلاة من صلاها مرة في السنة فقد اقام الصلاة بغير تكرار، وايضا فالصلاة والزكاة لهما باطن لان الصلاة صلاتان والزكاة زكاتان، والصوم صومان والحج حجان وما خلق الله سبحانه من ظاهر الا وله باطن، ويدل على ذلك : «وذروا ظاهر الاثم وباطنه» «وقل انما حرم ربي الفواحش ما ظهرْ منها وما بطن» الا ترى ان البيضة لها ظاهر وباطن ؟ فالظاهر ما تساوي به الناس وعرفه العام والخاص، وأما الباطن فقصر علم الناس به فلا يعرفه الا القليل، ومن ذلك قوله :

«وما آمن معه الا قليل» وقوله :

«وقليل ما هم» وقوله :

«وقليل من عبادي الشكور» فالاقل من

الاكثر الذين لا عقول لهم والصلاة والزكاة سبعة احرف دليل على محمد وعلي (صلى الله عليهما)، لانهما سبعة احرف والمعنى بالصلاة والزكاة ولاية محمد وعلي فمن تولاهما فقد أقام الصلاة وآتى الزكاة[2].

---

(١) سورة البقرة : الآية ٤٣.

(٢) التفسير والمفسرون ٢/٢٤٧-٢٤٨.

فالتجاوز في الالفاظ والمعاني والدلالات في هذا المنهج والبعد عن ظاهر النص والاتجاه الى الباطن فقط وتفسير الفاظ القرآن وعباراته بتفسيرات بعيدة عن دلالات اللغة وتحميل النص معاني لا يدل عليها بأصل وضعه اللغوي، من أجل هذا كله هاجم هذا التفسير الباطني وغيره من انواع التفسير الصوفي كثير من العلماء.

فهذا ابن الصلاح في فتاويه يقول : وجدت عن الامام ابي الحسن الواحدي المفسر انه قال : صنف ابو عبد الرحمن السلمي (حقائق التفسير) فان كان قد اعتقد ان ذلك تفسير فقد كفر[1].

وقال النسفي في عقائده : ((النصوص على ظواهرها والعدول عنها الى معان يدعيها أهل الباطن الحاد[2].

وقال الزركشي : ((فاما كلام الصوفية في تفسير القرآن فقيل ليس تفسيرا وانما هو معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة[3].

ويقول ابن تيمية : ((واما الذين يخطئون في الدليل لا في المدلول فمثل كثير من الصوفية والوعاظ والفقهاء وغيرهم يفسرون القرآن بمعان صحيحة لكن القرآن لا يدل عليها، مثل كثير مما ذكره ابو عبد الرحمن السلمي في (حقائق التفسير) وان كان فيما ذكروه ما هو معان باطلة، فان ذلك يدخل في القسم الاول، وهو الخطأ في الدليل والمدلول جميعا يكون

---

(١) قصة التفسير ص ١٤٠. الاتقان ١٨٤/٢.

(٢) العقائد النسفية ص ١٨٩. قصة التفسير ص ١١٤. الاتقان ١٨٤/٢.

(٣) قصة التفسير ص ١٤١.

المعنى الذي قصدوه فاسدا[1].

ويبدو ان حجة الصوفية في منهجهم التفسيري المعتمد على الباطن ما روى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) انه قال : (لكل آية ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع)[2].

والصواب في رأيي ان هذا الحديث يشير الى ان النص القرآني يتضمن وراء دلالته اللفظية افكارا عميقة ومعان دقيقة واسرارا واحكاما لكنها لا تتعارض مع هذا الظاهر وانما توضحه، وتجعله نافذا الى القلوب جاذبا للنفوس، آسرا للارواح، هذا وجه من وجوه الاعجاز القرآني. اما تأويل الآية، والبعد بها عن ظواهرها الى معان لا صلة لها بهذه الظواهر كما فعل الباطنية فمرفوض لذلك وضع العلماء شروطا يجب ان تتوافر في المنهج الصوفي الاشاري حتى يكون تفسيره مقبولا واليكم هذه الشروط :

أولا : ان لا يكون التفسير الصوفي (الاشاري) منافيا للظاهر من النظم القرآني الكريم.

ثانيا : ان يكون له شاهد شرعي يؤيده.

ثالثا : ان لا يكون له معارض شرعي او عقلي.

رابعا : ان لا يدعي ان التفسير الاشاري هو المراد وحده دون الظاهر بل لابد ان نعترف بالمعنى الظاهر اولا، اذ لا يطمع في الوصول الى الباطن

---

(١) مقدمة في اصول التفسير ص ٩٢، والاتقان ١٧٨/٢.

(٢) الاتقان ١٨٤/٢.

قبل احكام الظاهر ومن ادعى فهم أسـرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ الى صدر البيت قبل ان يجاوز الباب(١).

هذه هي الشروط التي يجب توافرها في التفسير الصوفي الاشاري لكي يكون مقبولا. ومن الكتب المؤلفة في التفسير الاشاري ما يأتي :

١-تفسير القرآن العظيم للتستري .

٢- حقائق التفسير للسلمي .

٣-عرائس البيان في حقائق القرآن للشيرازي.

اما التفسير الصوفي الباطني فمرفوض، لانه لا يستند الى قواعد من الشرع واللغة وانه مناف لظواهر الآيات القرآنية، وهذا ما سميناه (بالمنهج الباطني) الذي امتدت جذوره الى عصرنا الحاضر فظهرت تفاسير على ايدي الفرق الضالة المضلة للمسلمين وهي القاديانية والبابية والبهائية.

---

(٣) التفسير والمفسرون ٣/٤٣.

المبحث السابع

منهج التفسير العلمي

يهدف هذا المنهج الى استخدام انواع المعادن واصول الصناعات وعلوم الطبيعة ومستحدثات الاختراع والبحث في علم الفلك وما ورد فيه عن السماء والارض والكواكب وقواعد الطب والتشريح والجراحة وخلايا الجسم لتفسير النصوص القرآنية التي وردت في الموضوعات الكونية والعلمية والنفسية وغيرها على مقتضى اصول اللغة وتطور العلم ونتائج البحث في الكائنات وبهذا المنهج يكون القرآن مغطيا كل ميادين الحياة العلمية والصناعية والفلسفية والانسانية.

وقد انقسم العلماء قديما وحديثا تجاه هذا النوع من التفسير الى فريقين الاول يجيز هذا النوع من التفسير ومن القائلين به قديما : الامام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ وجلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ وابو الفضل المرسى المتوفى سنة ٦٨٦هـ والرازي فان تفسيره يعد من التفاسير العلمية للقرآن في كثير من المواطن. ولعل الامام الغزالي هو اول من دعا إلى هذا المنهج واستوفى القول فيه فقد ورد عنه انه قال : كل ما أشكل فهمه على النظار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات في القرآن اليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها[1] ويستشهد لاشتماله على جميع العلوم بقول ابن مسعود : ((من اراد علم الاولين والآخرين فليتدبر القرآن وفي رواية فليثور القرآن)) وقال علي (رضي الله

---

(١) احياء علوم الدين ٢٨٩/١ دار المعرفة للطباعة بلبنان.

عنه) : ((الا ان يؤتى الله عبدا فهما في القرآن)) فان لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم؟[1].

وفي العصر الحديث قام بعض العلماء يؤيدون هذا المنهج العلمي في التفسير ويقولون ان المتخصصين بالعلوم الحديثة لو تدبروا القرآن واحكموا النظر في آياته، وكانوا بحيث لا تعوزهم اداة الفهم ولا يلتوي عليهم امر من أموره لاستخرجوا منه اشارات كثيرة تومئ الى حقائق العلوم، فهذا عبد الرحمن الكواكبي يقول :

((ان القرآن اشتمل على النظريات العلمية التي وجدت وانها تؤيد اعجاز القرآن الكريم، ومثال ذلك ان العلم كشف في هذه القرون الاخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها من علماء اوربا وامريكا، والمدقق في القرآن يجد أكثرها ورد التصريح او التلميح به فيه منذ ثلاثة عشر قرنا، وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء الا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن شاهدة بانه كلام رب لا يعلم الغيب سواه، ومن ذلك انهم كشفوا ان مادة الكون هي الاثير، وقد وصف القرآن بدء التكوين فقال : «ثم استوى الى السماء وهي دخان»[2] وكشفوا ان الكائنات في حركة دائمة دائبة والقرآن يقول : «وآية لهم الارض الميتة احييناها» الى ان يقول : «وكل في فلك يسبحون»[3] وحققوا ان الارض متفتقة من النظام الشمسي والقرآن يقول:

---

(1) المرجع نفسه.

(2) سورة فصلت الآية / ١١.

(3) سورة يس الآية / ٤٠.

«او لم يرد الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما»(١)
وحققوا ان طبقات الارض سبع والقرآن يقول :(٢) «خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن»(٣).

وقد الف في ذلك عدد من العلماء منهم : الدكتور محمد توفيق صدقي بحثا عن علم الفلك والقرآن يستدل بمعـ ف الفلك في العصر الحديث على موافقة ما ورد في القرآن عن السماء والارض والمواكب والعلوم الحديثة، ومنهم الدكتور عبد العزيز اسماعيل كتاب (الاسلام والطب) طبع مصر. وفي تفسير المنار يجد القارئ محاولات كثيرة لشرح النظريات الحديثة(٤) . وفي بحث للاستاذ حنفي احمد عن (معجزة القرآن في وصف الكائنات) يؤكد المؤلف دعواه (بان رسالة القرآن قد اتت فيما اتت بوصف شامل دقيق للعالم المادي في صورة اصول وجوامع من العلم الصحيح تارة بصريح النص، وغالبا باشارات فيه واضحة ومحدودة، وان هذا العلم الدقيق لم يكن يعلمه احد من الناس ولا كان في مكنة احد منهم لا قبل ظهوره ولا بعده بقرون)(٥).

ثم قام بمحاولات متعددة الاستاذ عبد الرزاق نوفل ربط فيها بعض

---

(١) سورة الانبياء الآية / ٣٠.

(٢) سورة الطلاق الآية / ١٢.

(٣) اتجاه التفسير في العصر الحديث للسيد مصطفى محمد الحديدي ص ٢٦٢-٢٦٣ طبع مجمع البحوث الاسلامية العدد ٨٠ سنة.

(٤) انظر تفسير المنار ٨/٩٢٩، ٩٣٠ و ٩/٦٠.

(٥) معجزة القرآن في وصف الكائنات ص ٣٩٣.

الآيات العلمية بالعلوم الحديثة[1].

أما الشيخ طنطاوي جوهري فقد كان فارس هذا الميدان بحق حيث كان يؤمن بان القرآن لا يفسر الا بالعلم الحديث فكتب تفسيره ومزج فيه الآيات القرآنية بالعجائب الكونية[2].

والدكتور محمد جمال الدين الفندي في كتابه من الآيات الكونية في القرآن الكريم[3] والاستاذ محمد محمود ابراهيم في كتابه اعجاز القرآن في علم طبقات الارض[4].

واخيرا ما نشرته عالم الفكر الكويتية من بحث قيم بعنوان (العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن) للاستاذ عبد الحافظ حلمي محمد[5] وغير ذلك من الجهود التي تتجدد من حين لاخر لربط النص القرآني بالنتيجة العلمية الثابتة.

ولقد عزا اصحاب التفسير العلمي في العصر الحديث اتجاههم هذا الى عدة امور منها :

---

(1) انظر كتبه الثلاثه (الله والعلم الحديث) و (الاسلام والعلم الحديث) و (القرآن والعلم الحديث).

(2) انظر تفسير الجواهر ٢/١.

(3) اتجاه التفسير في العصر الحديث ص ٢٧٧.

(4) المرجع نفسه ص ٢٦٤.

(5) انظر مجلة عالم الفكر : (القرآن والسيرة النبوية) المجلد الثاني عشر ص ٩٩٣ سنة ١٩٨٢ الصادرة في الكويت

اولا – الرد على مخططات الغزو الفكري على الاسلام باثبات ان القرآن لا يخالف العلم الصحيح ولا يتعارض مع حقائقه الثابتة التي لا تتغير[1].

ثانيا – ان هذا الاتجاه اراد ان يلفت نظر المسلمين الى العلوم المختلفة كي يستفيدوا منها في بناء حضارتهم الجديدة، ويتفقوا على الافرنج في الزراعة والطب والحساب والهندسة والفلك وغيرها من العلوم والصناعات[2].

ثالثا – الاغتباط الحاصل لدى المسلمين بسبب التوافق الناشئ بين الحقائق العلمية الحديثة وبين أخلد ما ندين به وهو القرآن العظيم، وهذا التوافق يخلصنا ما ازمة الاحساس بالتخلف التي تؤرقنا[3].

رابعا – لقد اثبت ان القرآن الكريم قد اشار مجملا او تفصيلا في آيات عدة الى مجموعة من الحقائق العلمية المقررة التي لا تقبل الجدل مما يدل على اعجازه السماوي، كحديثه مثلا عن نشأة الجنين في بطن الام خلقا بعد خلق في ظلمات ثلاث، فان هذا مما أكده العلم الحديث.

---

(١) مقالة لامين الخولي بدائرة المعارف الاسلامية المجلد الخامس ص ٣٥٧ وانظر دراسات في اصول تفسير القرآن ص ١٣٥.

(٢) تفسير الجواهر لطنطاوي جوهري الجزء الاول المقدمة وانظر دراسات في اصول تفسير القرآن ص ١٣٥.

(٣) انظر اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث للدكتور عفت محمد الشرقاوي ص ٣٩.

خامسا -تأثير التفسير بالحركات العلمية : لو تتبعنا تفاسير السلف لوجدنا ان التفسير قد تطور بتطور العلوم فاستوعب الافكار العلمية والفلسفية بالتدريج ولهذا يتبقى باب التفسير مفتوحاً لمن يتدبر آيات القرآن والعلوم تزداد يوماً بعد يوم وان رقي العلم وازدياده يرفع مستوى التفسير فالمؤرخ الخبير يفسر ما في القرآن من التاريخ احسن من الفقيه الذي لا يعرف التاريخ وان الطبيب الحاذق اقدر على شرح ما في القرآن من مراحل خلق الانسان وان عالم الطبيعة الماهر احق بشرح ما في القرآن من مسائل الطبيعة ولهذا يعد التفسير مرآة تعكس ما في عصره من التقدم العلمي ويصور هذا الدكتور احمد امين فيقول ((ويظهران تفسير القرآن الكريم كان في كل عصر من العصور متأثراً بالحركة العلمية فيه وصورة منعكسة لما في العصر من آراء او نظريات علمية ومذاهب دينية من ابن عباس الى الاستاذ الشيخ محمد عبده))(١).

سادسا - ان باب التفسير مفتوح امام كل مجتهد في فهم القرآن وتدبره في كل عصر حسب مقتضياته ومستوى علمه وهذا يعد حجة قوية على ان هناك كلاماً جديداً في التفسير لم يدركه القدماء والا فما نفع التكرار، وهذا ما اورث الأمة كتباً في التفسير لا تعد ولا تحصى ولو آمن سلفنا باغلاق باب التفسير بعد النبي (صلى الله عليه وسلم) واصحابه والتابعين لحرمنا هذا التراث التفسيري الضخم الذي لا يزال يتدرج في الرقي والصعود.

---

(١) فجر الاسلام ص ٢٠٦ طبعة سنة ١٣٧٤هـ.

هذه هي أهم حجج القائلين بالمنهج العلمي للتفسير في العصر الحديث.

اما الفريق الثاني فقد انكر هذا التفسير العلمي للقرآن الكريم وعلى رأسهم قديما ابو اسحق الشاطبي المتوفى سنة (٧٩٠هـ) اذ قال في كتابه الموافقات : ((ان كثيرا من الناس تجاوزوا الدعوى على القرآن الحد، فاضافوا اليه كل علم يذكر للمتقدمين او المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون واشباهها))(١).

ويقرر ان هذا لا يصح ولا يستقيم، ويشير الى أن الصحابة كانوا أعرف بالقرآن، وما اودع فيه ولم يتكلم احد منهم في شئ من ذلك، ويرى ان الاستشهاد في هذا المقام بقوله تعالى : «ما فرطنا في الكتاب من شئ» غير مسلم لان المراد بالكتاب هنا هو اللوح المحفوظ ثم يقول : «فليس بجائز ان يضاف الى القرآن ما لا يقتضيه»(٢).

وفي عصرنا الراهن انكر التفسير العلمي كثير من العلماء والادباء منهم الشيخ امين الخولي في مقالته بدائرة المعارف الاسلامية، والاستاذ عباس العقاد في كتابه الفلسفة القرآنية(٣) ، والشيخ محمود شلتوت في تفسيره(٤) وبنت الشاطئ في كتابها القرآن والتفسير العصري وتتلخص

---

(١) الموافقات ٢/٧٩.

(٢) المرجع نفسه ٢/٨١.

(٣) الفلسفة القرآنية ص ١٢ و ص ١٨٠.

(٤) تفسير محمود شلتوت ص ١/١٩.

حججهم التي يدفعون بها التفسير العلمي فيا يلي :

١-ان الفهم الدقيق للالفاظ يحتم علينا فهمها في حدود الاستعمال الذي نزلت فيه، وهذا يحول بيننا وبين التوسع في جعلها تدل على معان لم تعرف بها وقت نزول القرآن.

٢- يجب ان نقف بعبارات القرآن عندما فهمه العرب الخلص ولا نتجاوز ما ألفوه من علومهم، وادركوه من معارفهم، لاننا نعتقد ان البلاغة هي مراعاة مقتضى الحال.

٣-ان مهمة القرآن الكريم دينية اعتقادية، وليست علمية[١].

٤-ينبغي الا نقحم النظريات العلمية على القرآن الكريم او نعتبر ان القرآن الكريم مطالب بموافقتها، كلما تغيرت من زمن الى زمن، ومن تفكير الى تفكير.

٥-التفسير العلمي يحمل اصحابه على تأويل القرآن تأويلا متكلفا يتنافى مع الاعجاز، ولا يسيغه الذوق السليم[٢].

هذه أهم اعتراضات المحدثين على التفسير العلمي وللشاطبي اعتراضات اخرى يستطيع القارئ الرجوع اليها اذا شاء[٣].

---

(١) الأسباب السابقة ملخصة عن مادة تفسير بدائرة المعارف الاسلامية.

(٢) تفسير شلتوت ٣١/١ وانظر هذه الحجج في اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث.

(٣) الموافقات ٣/٨٠-٨١.

هذه هي حجج الفريقين المتنازعين في المنهج العلمي لتفسير القرآن الكريم والذي يبدو لي ان انصار التفسير العلمي سيزدادون يوما بعد يوم، لان العلم اصبح السمة البارزة لعصرنا الراهن. فلا مانع من ان يسهم الاكفاء من علمائنا في خدمة كتاب الله وتفسير بعض آياته شأنهم في ذلك شأن من سبقهم من علماء اللغة والفقه والادب والبلاغة، الذين سخروا علومهم في اظهار الاعجاز البياني واللغوي والتشريعي.

ومن خلال مطالعاتي لمعظم تفاسير هؤلاء المفسرين اتضح لي ان أهم الاغراض التي يتوخون تحقيقها من التفسير العلمي هي :

اولا – الرد على مخططات الغزو الفكري على الإسلام باثبات ان القرآن لا يناقض العلم، ولا يتعارض مع حقائقه الثابتة التي لا تتغير، بل هو دين العلم، اذ لا سبيل الى معرفة قدرة الله وبديع صنعه، وعظيم خلقه الا بالعلم، لذلك فسح المجال للعلم والعلماء لتبيان آياته، وتحليل مراميه، بل ان التقدم العلمي يزيد في ضرورة هذا التحليل والتبيان لتمتلئ به صدور العلماء ولكي يقتبسوا من هديه ما يفتح الله لهم مغالق ما لم يبلغوه بعلمهم من حقائق الكون واسراره التي ابدعها الخالق.

ثانيا –اظهار الاعجاز العلمي للقرآن الكريم، فقد ثبت أن القرآن قد اشار مجملا او تفصيلا في آيات عدة الى مجموعة من الحقائق العلمية المقررة التي لا تقبل الجدل مما يدل على اعجازه السماوي كحديثه مثلا عن نشأة الجنين في بطن الام خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث، فان هذا مما اكده العلم الحديث. ان تلك الاشارات هي من كلام خالق الكون العليم

بنواميسه واسراره والتي انزلها سبحانه لتبقى مع الانسان الى ان يرث الله الارض ومن عليها.

بل ان الاسلام ليرحب بكل مجهود علمي ثابت يقينا في شرح الحقائق القرآنية. وتفسيرها علميا لاعجاز كل من لا يتكلم العربية، فاذا كان القرآن معجزا للعرب بفصاحة الفاظه، وبلاغة أساليبه وخفته على اللسان وغير ذلك من وجوه الاعجاز، فانه يكون معجزا للعالمين بتفسير آياته الكونية والعلمية والنفسية، اذ لو اقتصر الاعجاز القرآني على الوجوه التي اعجزت العرب لنزوله بلغاتهم لفات غيرهم من اوربيين وامريكيين وافريقيين رؤية هذا الاعجاز ولحرموا من نور القرآن الذي ما انزل الا لهداية العالمين، فهذا هو شأن الكتاب الذي انزل على خاتم النبيين الخاتم للرسالات السماوية، وهذا كله مصداق لقوله تعالى :

«سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق»[1].

يمنع التفسير العلمي يسئ الى فهم النص القرآني ويشوه معانيه ويصيره جامداً لا يقبل المرونة ولا يرضى عن التطور في اعجازه العلمي فاذا اتيح لبعض العلماء بيان جوانب من هذا الاعجاز في ضوء العلم وجب ان يحكم هذا البيان والتفسير القواعد الآتية :

اولا – يجب على المفسر ان لا يخالف القواعد اللغوية الواضحة المقررة في التفاسير والمعجمات اللغوية.

---

(١) سورة فصلت آية / ٥٣.

ثانيا – استنباط القضايا اما من صريح النص او من اشارات قوية واضحة فيه لأن الله جعل القرآن اصيلاً لجميع ما يحتاج اليه وليس كله منصوصاً فلابد من الاستنباط بالرأي والعقل والعلم.

ثالثا –يجب ان لا يفسر القرآن الكريم الا بالحقائق العلمية الثابتة والابتعاد عن النظريات العلمية المحتملة والتي تخضع للتغيير.

رابعا – لابد من جمع جميع الآيات الواردة في الموضوع المبحوث عنه حتى نستطيع التوصل الى الحقيقة[١].

خامسا – تجنب التمحل والتكلف بتحميل الالفاظ القرآنية فوق ما تحتمل، أو الخروج بها عن المعنى المتفق مع السياق العام الذي وردت فيه الآية.

سادساً – ان يكون هذا التفسير العلمي طريقاً للهداية، اذ لاسبيل الى معرفة قدرة الله وبديع صنعه وعظيم خلقه الا بالعلم لذلك فسح المجال للعلم والعلماء لتبيان آياته وتحليل مراميه بل ان التقدم العلمي يزيد في ضرورة هذا التحليل والبيان لتمتلئ به صدور العلماء ولكي يقتبسوا من هديه ما يفتح الله لهم مغالق ما لم يبلغوه بعلمهم من حقائق الكون واسراره التي ابدعها الخالق وليعلم كل مسلم ان مفهوم الاسلام الصحيح أساسه العلم والمعرفة بالله جل جلاله ولن يصل المسلم الى هذه المعرفة الا بالالهام باياته في خلقه وكلما ازداد علمه بذلك بهرته عظمة الله واستولت على

---

(١) انظر هذه القواعد الاربعة في كتاب دراسات في اصول تفسير القرآن ص ١٣٥-١٣٧.

مشاعره فيفنى فيها وما كان الرسول اشد الناس ايماناً الا لأنه كان اكثرهم بالله علماً وقد عبر عن ذلك فقال :

((ان اتقاكم لله واعلمكم بالله انا))[1] .

فاتباع هذه القواعد مصحوبة بالنظر المتأني، والعقل المتفتح تتحقق الافادة السديدة من المعارف العلمية في خدمة القرآن الكريم، كما يتحقق التوافق بين الحقائق العلمية والقرآن الكريم واذا لم تتوافر هذه الشروط كلها أو بعضها يكون التفسير العلمي مرفوضاً شكلاً وموضوعاً ومن نماذج الكتب والبحوث التي كتبت في هذا اللون من التفسير ما يلي :

١- الاسلام في عصر العلم للدكتور محمد احمد الغمراوي.

٢- سرائر القرآن في تكوين وافناء واعادة الاكوان للعالم الرياضي المشهور احمد مختار باشا الغازي.

٣- طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد للسيد عبد الرحمن الكواكبي.

٤- تنبيه العقول الانسانية لما في آيات القرآن من العلوم الكونية والعمرانية للشيخ محمد بخيث مفتي الديار المصرية سابقاً.

٥- تفسير الآيات الكو[illegible] الاستاذ حنفي احمد.

٦- الاسلام والطب الحديث للدكتور عبد العزيز اسماعيل.

٧- القرآن والعلوم للاستاذ احمد محمود سليمان.

٨- القرآن والطب الحديث لمحمد الخليلي.

٩- القرآن والعلم الحديث لسيد نوفل عبد الرزاق.

(١) أخرجه البخاري الجامع الصغير ١/٨٦.

١٠- العلوم البيولوجية في خدمة القرآن الكريم للاستاذ عبد الحافظ حلمي محمد فكل هذه الكتب والبحوث أسهمت في مجالات جزئية من القرآن الكريم حيث يتناول الكاتب جانباً محدداً يدخل في مجال اختصاصه ومعرفته فالفلكي مثلاً يتناول الآيات الفلكية ويوفق بينها وبين آراء الفلكيين افضل من المفسر الفقيه، والطبيب يتناول الآيات الطبية ويوفق بينها وبين آخر ما توصل اليه الطب في العصر الحديث افضل من اي مفسر للقرآن الكريم وهكذا شارك علماء الكيمياء والفيزياء والصناعة والزراعة وغيرها من العلوم التي اشارت اليها آيات القرآن الكريم في تفسير القرأن الكريم .

المبحث الثامن

منهج التفسير الموضوعي

المقصود بالمنهج الموضوعي في التفسير هو استقصاء آيات القرآن الكريم، التي تتناول موضوعا واحداً وافرادها بالدرس والبحث في تفسيرها وبيان ما تلهمه من المعاني الكريمة، مستعينا بترتيب النزول خلافا للمألوف في التفسير حيث يتناول المفسر فيه آيات القرآن آية آية، كما جاءت في ترتيب السورة والمصحف ويفسرها على التوالي. هذا ما يسمى بالتفسير الموضوعي الكلي او المطلق وهناك نوع آخر من التفسير يطلق عليه التفسير الموضوعي المقيد او الجزئي وهو التفسير الموضوعي لموضوع معين من سورة معينة كان تقول مثلاً حد القذف في ضوء سورة النور. وموضوع غض البصر وحفظ الفرج من سورة النور وموضوع موقف الاسلام من عادة التبني كما تصورها سورة الاحزاب.

والحق ان هذا المنهج لم يكن جديداً بين مناهج التفسير كما يدعي البعض بل لقد سار عليه من القدماء ابن قيم الجوزية حينما شغل نفسه بتفسير موضوع بعينه من القرآن وهو موضوع (القسم)، فقد جمع آياته وتكلم عنها في كتابه (التبيان في اقسام القرآن)[1] ، وكذلك موضوع المثل القرآني في كتابه (أمثال القرآن)[2].

---

(١) طبع في القاهرة سنة ١٣٥٢هـ وانظر قصة التفسير ص ١٥٩.

(٢) انظر منهج ابن القيم في التفسير للاستاذ محمد احمد السنباطي ص ٢٠ من مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية سنة ١٣٩٢هـ-١٩٧٣م.

وفي فجر النهضة الحديثة استحسن السيد جمال الدين الافغاني هذا المنهج حينما عمد أحد المستشرقين الى تصنيف القرآن على حسب موضوعاته، حيث جعل آيات الميراث، وآيات البعث، وغيرها كلا منها على حدة، فأضيف هذا الاستحسان الى مبررات اضطهاده، من قبل أحد المقربين من السلطان عبد الحميد المدعو أبو الهدى الصيادي إذ كان يحارب جمال الدين في الخفاء فأخذ عليه إستحسانه هذا ووصفه من اجل ذلك بالزندقة والكفر

فقال : ((ان هذا العمل كفر والرضا به كفر ايضا))(١). وهذا غير صحيح اذا كان المقصود بهذا التصنيف الفهم والتفسير لا التلاوة والتعبد، والذي يبدو لي ان السير بالمنهج الموضوعي يغني الباحث بالاطلاع على اسرار القرآن الكريم في اي موضوع من المواضيع، لانه يكشف كل الصور المتعددة التي عرض لها القرآن في سوره التي ورد فيها هذا الموضوع. في حين اننا نجد تفسير القرآن سورة سورة مرتبة على حسب ترتيب المصحف، ليس الا تعرضا مفرقا لموضوعات مختلفة تنتظمها السورة الواحدة، ثم يعود المفسر بعد ذلك في السورة الاخرى الى مثل هذه الموضوعات انفسها.

فالحديث عن أنبياء الله ابراهيم وموسى وعيسى مثلا ورد ذكرهم في أكثر من سورة، فالمفسر التقليدي يتحدث عن كل منهم في جزء من السورة

---

(١) انظر القصة في كتاب جمال الدين الافغاني للدكتور محمود قاسم ص ٨٢ نشر مكتبة الانجلو المصرية واتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث ص ٣٢٤.

ثم يعود اليهم في جزء آخر من سورة اخرى، بينما يقوم المفسر في المنهج الموضوعي بجمع كل الآيات التي وردت في هؤلاء الانبياء عليهم الصلاة والسلام من كل السور، مراعيا في ذلك أسباب النزول، وقرائن الاحوال، وهنا تتجلى قدرة المفسر على الاجتهاد في الالمام بالموضوع، والاحاطة بجميع جزئياته، كما يتجلى العمق في المعنى، فيكون تفسير هذا الموضوع تفسيرا جامعا مانعا تتحقق فيه الهداية على الوجه الذي يطمئن اليه القلب وترتضيه النفس وتعالج به شؤون الحياة.

ولهذا سار بعض العلماء على هذا المنهج واعتبروه الطريقة المثلى في التفسير الذي يراد اذاعته على الناس وعلى رأسهم الشيخ محمود شلتوت الذي أثنى على هذا المنهج وارتضاه. لذلك نجده بعد ان يقسم طرق التفسير الى طريقتين وينقد اولاهما يقول : ((أما الطريقة الثانية فهي ان يعمد اولا الى جمع الآيات التي وردت في موضوع واحد، ثم يضعها امامه كمواد يحللها،

ويفقه معانيها، ويعرف النسبة بين بعضها وبعض، فيتجلى له الحكم، ويتبين المرمى الذي ترمي اليه الآيات الواردة في الموضوع، وبذلك يضع كل شئ موضعه، ولا يكره آية على معني لا تريده، كما لا يغفل عن مزايا الصوغ الالهي الحكيم، وهذه الطريقة في نظرنا هي الطريقة المثلى، وخصوصا في التفسير الذي يراد اذاعته على الناس، بقصد ارشادهم الى ما تضمنه القرآن من انواع الهداية والى ان موضوعات القرآن ليست نظريات بحتة يشتغل بها الناس من غير ان يكون لها مثل واقعية فيما

يحدث للافراد والجماعات من اقضية، ويصل بحياتهم من شؤون وهي تمكن المفسر من علاج موضوعات عملية كثيرة كل موضوع منها قائم بنفسه لا يتصل بسواه ولا يختلط بغيره فيعرف الناس موضوعات القرآن بعناوينها الواضحة، ويعرفون مقدار صلة القرآن بحياتهم الواقعية (كالقرآن واصول التشريع والقرآن والعلم والقرآن والاسرة والقرآن وادب الاجتماع والقرآن والسياسة والقرآن والعلم القرآن والتضحية والقرآن والبر وهكذا..)[1] وقد حذا هذا الحذو في التفسير الدكتور احمد الشرباصي، فقد كتب فصولا على طريقة تناول الموضوع الواحد من موضوعات القرآن الكريم بالتفسير ففي المجلد الرابع والعشرين من مجلة الازهر سنة ١٣٧٢هـ كتب بحثا في (حديث القرآن عن اللغو) وفي المجلد الخامس والعشرين من المجلة نفسها كتب بحثا عن العزة في القرآن الكريم وفي المجلد السادس والعشرين كتب البحوث التالية : (الرجولية في القرآن والقلة والكثرة في القرآن وحديث القرآن عن التطير) وفي المجلد السابع والعشرين نشر البحوث التالية : و (حديث الفتوة في القرآن وحديث الزلزال في القرآن وحديث الغرور في القرآن وحديث المحبة في القرآن وحديث الترف في القرآن)[2].

وهكذا ازداد عدد المفسرين الذين التزموا خطة التفسير الموضوعي كما اوضحناها فانتجت نماذج رائدة في التفسير كموضوع العفو في

---

(١) قصة التفسير ص ١٦٢.

(٢) المرجع نفسه ص ١٦٤-١٦٥.

الاسلام للدكتور مهدي علام[1] الذي يعد بحق دليلا صادقا على الآفاق التي يمكن ان يمتد اليها هذا اللون من التفسير، وموضوع القرآن والقتال، وموضوع القرآن والمرأة وكلاهما من تأليف الشيخ محمود شلتوت، وموضوع العقيدة من القرآن الكريم للشيخ محمد ابو زهرة، وموضوع الربا في القرآن للمودودي، وموضوع الانسان في القرآن الكريم للدكتور احمد ابراهيم، وموضوع مقومات الانسانية في القرآن الكريم للدكتور احمد مهنا، وموضوع آيات القسم في القرآن الكريم للدكتور أحمد كمال، وموضوع المرأة في القرآن الكريم للاستاذ عباس محمود العقاد، وبانتهاء جولتنا في هذا المنهج ننتهي من القسم الأول.

---

(١) من البحوث المنشورة في المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الاسلامية ص ٤٦٣-٤٩٤ لسنة ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م.

القسم الثاني

نماذج من تفسير القرآن الكريم

ويشتمل على اربعة فصول

الفصل الأول

تفسير آيات في العقيدة

ويشتمل على المباحث الآتية :

المبحث الأول : في أصول التوحيد من سورة البقرة الآية /٢٥٥

المبحث الثاني : في الأدلة على وجود الله من سورة النحل الآيات/٦٠-٦٦

المبحث الثالث : من صفات الله تعالى من سورة الحشر الآيات /٢٢-٢٤



المبحث الأول

في أصول التوحيد

من سورة البقرة الآية / ٢٥٥

قال الله تعالى

«الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولانوم له ما في السموات وما في الارض من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم».

مكانة هذه الآية ومناسبتها لما قبلها :

هذه الآية من سورة البقرة التي تعتبر أطول سور القرآن، واجمعها لمقاصد الاسلام. ومن أهم المقاصد التي احتوت عليها هذه السورة هي اصول العقيدة التي تضمنتها آية الكرسي حيث نصت على وحدانية الله تعالى، وانه هو وحده الحي القيوم الذي له الهيمنة والتدبير والقيام على شؤون الخلق.

ولهذه الآية شأن عظيم، وفضل كبير، فقد صح الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأنها اعظم آية في كتاب الله[١]، لاشتمالها على اسم الله الاعظم وتوحيد الله تعالى وتعظيمه. وعن ابي عبد الله قال : ان

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٣٠٤-٣٠٨.

لكل شئ ذروة وذروة القرآن آية الكرسي[1].

وقبل البدء بتفسير هذه الآية لابد ان نذكر المناسبة بينها وبين ما قبلها من آيات فنقول :

بعد ان امرنا الله تعالى بالانفاق في سبيله قبل ان يأتي يوم لامال فيه ولا كسب ولا ينجي من عقابه شفاعة ولا فداء انتقل سبحانه وتعالى الى تقرير اصول التوحيد والتنزيه التي تشعر متدبرها بعظم سلطانه تعالى، ووجوب الشكر له والاذعان لامره والوقوف عند حدوده، وعدم الركون الى شفاعة الشافعين حتى يكون الانفاق في سبيله سبحانه.

تفسير المفردات

١-الله : هو المعبود بحق، والعبادة استعباد الروح واخضاعها لسلطة غيبية لا تحيط بها علما، فالله عز وجل لا تدركه الابصار ولا تحيط به العقول، فسبحان من احتجب عن العقول والظنون وبدت آثاره وشواهده تناجي الارواح وتخاطب العقول.

٢- الحي : هو ذو الحياة والحياة هي مبدأ الشعور والادراك والحركة والنمو، وهي بهذا المعنى مما يتنزه عنها الله سبحانه، فالمراد بها بالنسبة اليه تعالى الوصف الذي يعقل معه الاتصاف بالعلم والارادة والقدرة وعدم الفناء.

٣- القيوم : القائم على خلقه بتدبير آجالهم واعمالهم وأرزاقهم كما قال تعالى :

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي ٣٦١/١.

«أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت».

٤-الاخذ : الغلبة والاستيلاء.

٥-السنة : النعاس هو فتور يسبق النوم. قال عدي بن الرقاع :

وسنان أقصده النعاس فرنقت في عينه سنة وليس بنائم.

٦- الكرسي : الكرسي مادة يستخدم في الملك يقال جلس على كرسي المملكة وهو كناية عن مركز الدولة الذي تتبعه اطرافها، فاذا وسع السموات والارض فهما اذن داخلتان في سلطانه، وهذا هو المعنى الذهني ولكن الصورة التي ترتسم في الحس من التعبير بالمحسوس أثبت وامكن وقيل الكرسي العلم الالهي أي وسع علمه السموات والارض وهذا مروى عن ابن عباس ومجاهد وهو المروى عن ابي جعفر وابي عبد الله (رضى الله عنهما)

٧- آده الشئ يؤده : اذا اثقله ولحقه منه مشقة.

٨-العلي : هو المتعالي عن الاشباه والانداد.

التفسير

(الله لا اله الا هو الحي القيوم) :

تعبر هذه الجملة عن وحدانية الله تعالى وان الاله الحق الذي يستحق أن يعبد هو الله الواحد الصمد ذو الملك والملكوت والقيام على شؤون الخلق بالايجاد والتربية الجسمية والعقلية يكلؤهم بحفظه ويرزقهم من خيراته.

ويرى ابن عباس (رضي الله عنه) ان الحي القيوم هو اسم الله الاعظم فيقول :

اعظم اسماء الله الحي القيوم، واخرج احمد وابو داود والترمذي وابن ماجة عن اسماء بنت يزيد عن النبي (صلى الله عليه وسلم) انه قال : اسم الله الاعظم في هاتين الايتين :

«والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم» وفاتحه آل عمران «الم الله لا اله الا هو الحي القيوم».

فالآية الاولى تثبت له تعالى وحدانية الالوهية مع الرحمة الشاملة والثانية تثبت له مع الوحدانية الحياة التي تشعر بكمال الوجود، وكمال الايجاد بافاضة الجياة على الاحياء والقيومية وهي كونه قائما بنفسه أي ثابتا بذاته وكون غيره قائما به أي ثابتا موجودا بايجاده اياه، وحفظه لوجوده بامداده بما يحفظ به الوجود من الاسباب ومن معاني هذه القيومية القيام بالقسط كما قال تعالى :

«شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط»[١] والقسط هنا هو العدل العام في سننه الكونية وشرائعه، ومنها القيام على كل نفس بما كسبت كما قال تعالى :

«أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت».

وقد قصر المفسرون بيان معنى الحي على معنى القيوم. قال مجاهد : هو القائم على كل شئ، وقال قتادة : ((القائم على خلقه بآجالهم واعمالهم وارزاقهم))[٢]. كما قال تعالى :

---

(١) آل عمران، الآية / ١٨.

(٢) تفسير المنار ٣/٢٩.

«وما من دابة في الارض الا على الله رزقها»(١).

«لا تأخذه سنة ولا نوم». :

لان هذا الاله الحق لا يمكن ان يعتريه نوم ولا مقدماته حيث يتفضل سبحانه بتدبير شؤون العباد في جميع الاوقات آناء الليل واطراف النهار فالسنة والنوم منقصان للحياة منافيان للقيومية، لانهما من التغيرات المنافية لوجوب الوجود الذي للقيوم.

وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها، مقررة لمعنى الحياة والقيومية على أتم وجه اذ من تأخذه السنة والنوم يكون ضعيف الحياة، ضعيف القيام بشؤون نفسه فضلا عن شؤون غيره. ومن كمال قيوميته اختصاصه بملك السموات والارض المشار اليه بقوله :

«له ما في السموات وما في الارض» :

فهم ملكه وخلقه مقهورون لسنته خاضعون لمشيئته وهو وحده المصرف لشؤونهم والحافظ لوجودهم العالم بتصرفاتهم حيث طبق علمه الآفاق، واحاط بكل الكائنات فلا تخفى عليه منها خافية، لان علمه محيط بعالم الغيب والشهادة، وبكل دقائق هذا الوجود وجزئياته، وهو مطلع على الانسان في كل تقلباته وحركاته وسكناته لا يخفى عليه من أمره شئ فهو يعلم ما توسوس به النفس ويضطرب في الخواطر والعقول. قال تعالى : .

«وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس

(١) سورة هود، الآية / ٦.

الا في كتاب مبين»[1]. قال ايضا :

«الله يعلم ما تحمل كل انثى، وما تغيض الارحام وما تزداد، وكل شئ عنده بمقدار، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال»[2]وقال تعالى ايضا:

«وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون، وما من غائبة في السماء والارض الا في كتاب مبين»[3].

فالله سبحانه وتعالى الذي خلقنا يرانا ويسمعنا حينما ننحرف عنه في قول او فعل وان واجبنا ونحن عبيده ان نتجنب سخطه ونتشد رضاه وان نسعى في كل ما نقول ونعمل الى الزلفى لديه ونيل الحظوة عنده، فتلك هي السعادة العظمى.

«من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه» :

الشفاعة هي سؤال الله الخير للناس في الآخرة، فهي نوع من أنواع الدعاء المستجاب ومنها الشفاعة العظمى، ولا تكون الا لسيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، فقد روى عن ابن عمر (رضي الله عنهما)، أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال :

(ان الشمس تدنو يوم القيامة، حتى يبلغ العرق نصف الاذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، فيقول لست بصاحب ذلك، ثم بموسى فيقول كذلك ثم بمحمد (صلى الله عليه وسلم) فيشفع، ليقضي بين الخلق، فيمشي حتى

---

(١) سورة الانعام، الآية / ٥٩.

(٢) سورة الرعد، الآيات / ٨-٩.

(٣) سورة النمل الآيات /٧٤-٧٥.

يأخذ بخلقه باب الجنة، فيومئذ يبعثه الله مقاما محمودا يحمده أهل الجمع كلهم[1].

وهذا هو معنى المقام المحمود الذي وعد به في قوله سبحانه :

«ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا»[2].

وما عدا هذه الشفاعة من الشفاعات فهي مشروطة بأن تكون باذن الله «من ذا الذي يشفع عنده الا بأذنه» وان تكون لمن ارتضى الله ان يشفع له «ولا يشفعون الا لمن ارتضى»[3].

وكان الوثنيون يعتمدون على اوثانهم ويعتقدون انها ستشفع لهم عند الله «ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله»[4] فأيأسهم الله من الاعتماد على هؤلاء الشفعاء فقال :

«كل نفس بما كسبت رهينة الا اصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر، قالوا لم نكُ من المصلين، ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين، حتى أتانا اليقين، فما تنفعهم شفاعة الشافعين»[5].

ويقول الامام محمد عبده في قوله تعالى : «الا باذنه» ان في هذا

---

(١) رواه ابو داود والحاكم.

(٢) سورة الاسراء، الآية / ٧٩.

(٣) سورة الانبياء، آية / ٢٨.

(٤) سورة يونس، الآية / ١٨.

(٥) سورة المدثر الآيات /٣٨-٤٨.

الاستثناء قطعا لامل الشافعين والمتكلين على الشفاعة المعروفة التي كان يقول بها المشركون وأهل الكتاب عامة ببيان انفراده تعالى بالسلطان والملك وعدم جرأة أحد من عبيده على الشفاعة او التكلم بدون اذن واذنه غير معروف لاحد من خلقه.

ومما يؤسف له ان بعض الناس الجهلة قد اتكلوا على شفاعة الصلحاء، واستساغوا كل لون من الوان الانحراف والخروج على طاعة الله ارتكانا على هذه العقيدة، فقطع الله حجتهم بقوله :

«ليس بامانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله واليا ولا نصيرا ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا، ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا[1] فهذه الآيات تستلزم استحالة الشفاعة عنده تعالى بالمعنى المعهود، لان الدين الحق هو اسلام الوجه لله واحسان العمل، وان روح الاسلام تتجلى في قول النبي (صلى الله عليه وسلم) لابنته فاطمة (رضي الله عنها) : (اعملي يا فاطمة فاني لا أغني عنك من الله شيئا).

(يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم) :

أي ما قبلهم وما بعدهم وهذه الجملة مؤكدة لنص الشفاعة اذ من كان عالما بكل شئ فعله العباد في الماضي وفيما هو حاضر بين ايديهم وفيما يستقبلهم، وكان ما يجازيهم به مبنيا على هذا العلم كانت الشفاعة

(١) سورة النساء، الآية / ١٢٣.

على هذا النحو المعروف مما يستحيل عليه تعالى لانها لا تتحقق الا باعلام الشفيع المشفوع عنده من امر المشفوع له وما يستحقه ما لم يكن يعلم[1]

(ولا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء) :

المؤمنون يؤمنون بعلم الله وقدرته ويؤمنون بأن احدا من خلقه لا يحيط بما يعلمه الا اذا شاء سبحانه وتعالى ذلك كالشفاعة فانها تتوقف على اذنه تعالى واذنه لا يعلم الا بوحي منه، وانما يعرف اذنه بما حدده من الاحكام في كتابه، فمن بين انه مستحق لعقابه فلا يجرؤ احد ان يدعو له بالنجاة، ومن بين انه مستحق لرضوانه على هفوات الم بها لم تحول وجهه عن الله تعالى الى الباطل والفساد فهو واصل اليه على ما وعد به في كتابه وما تفضل به على عباده.

«وسع كرسيه السموات والارض» :

يرى جماعة من المفسرين كالزمخشري والقفال ان الكلام تصوير لعظمته وتمثيل لكبريائه، ولا كرسي ولا قيام ولا قعود وقد خاطب سبحانه عباده في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوه في ملوكهم وعظمائهم[2].

أما من فسر الكرسي بالعلم فمعنى الآية عندهم ان علمه تعالى محيط بما يعلمون مما عبر عنه بقوله : «يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم» وبما لا يعلمون من شؤون سائر الكائنات فهو عالم احاط بكل شئ علما.

---

(١) انظر تفسير المنار ٤١/٣ وتفسير المراغي ١٣/٣.

(٢) انظر نفس المرجعين ومحاسن التأويل للقاسمي ٦٦٢/٣.

«ولايؤده حفظهما» :

اي لا يثقله حفظ هذه العوالم وما فيها من مخلوقات كالشمس والقمر والنجوم والانهار والوديان والاشجار والحيوان والنبات ولم يذكر سبحانه هذه الكائنات فيهما، لان حفظهما مستتبع لحفظه.

«وهو العلي العظيم» :

لان من يتفكر في هذا العالم ونظامه في سمائه وأرضه يؤمن بأن هذا من صنع العلي العظيم المتعالى عن الانداد والاشباه العظيم على كل شئ سواه. بعد هذا التفصيل يمكننا ان نجمل أهم ما قررته الآية من احكام آية الكرسي في النقاط التالية :

١- ان الله واحد في الوهيته لا يعبد معه غيره، لانه هو الحي التام الحياة الذي قامت له السموات والارض فالمؤمن حقا هو من نزه الله تعالى عن الشركاء وتبرأ من الوثنية واسلم وجهه اليه وقصد بعمله ابتغاء مرضاته.

٢- وان هذا الاله مقدس ذاتا ومنزه شكلا عن مماثلة غيره من الاحياء، فلا يأخذه نوم ولا سنة ولا فتور يسبق النوم.

٣- ان الكون كله بنظامه الدقيق، وما فيه من سنن لا تتخلف وتماسك لا يقبل التفكك من صنعه، وان كل ما فيه ومن فيه ملك له خاضع لجلاله لا يخرج عن تقديره وتدبيره.

٤- وان علمه محيط بكل شئ، سواء اكان ماضيا ام حاضرا ام مستقبلا.

٥- وانه لا يدرك احد شيئا من علمه الا بالقدر الذي يشاؤه.

٦- وانه لا يثقله حفظ السموات والارض وهو العلي العظيم[١].

٧- آية الكرسي لها شأن عظيم وقد صح الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأنها افضل آية في كتاب الله وفيها اسم الله الاعظم كما جاء في الحديث الشريف : «اسم الله الاعظم الذي اذا دعي به اجاب في ثلاث : سورة البقرة وآل عمران وطه» قال هشام اما البقرة فقوله : «لا اله الا هو الحي القيوم» وفي آل عمران «الم الله لا اله الا هو الحي القيوم» وفي طه «وعنت الوجوه للحي القيوم» قال ابن كثير وقد اشتملت على عشر جمل مستقلة متعلقة بالذات الالهية وفيها تمجيد الواحد الاحد[٢].

---

(١) انظر العقائد الاسلامية لسيد سابق ص ٥٨ الطبعة الاولى سنة١٣٨٣هـ ١٩٦٤م بمطابع دار الكتاب العربي.

(٢) المختصر لابن كثير ٢٣٠/١ نقلاً عن صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني القسم الاول ص ١٥٠.

المبحث الثاني

من الادلة على وجود الله تعالى

من سورة النمل الآيات ٦٠ - ٦٦

قال الله تعالى : «أمن السموات والارض وانزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قول يعدلون.

أمن جعل الارض قرارا وجعل خلالها انهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أءله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون، أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض أءله مع الله قليلا ما تذكرون، أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أءله مع الله تعالى عما يشركون. أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده، ومن يرزقكم من السماء والارض أءله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين. قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله وما يشعرون ايان يبعثون. يل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون».

مكانة هذه الآيات ومناسبتها لما قبلها :

هذه الآيات من سورة النمل، وقد سميت بسورة النمل لاشتمالها على مناظرة النمل مع سليمان (عليه السلام) في قوله تعالى :

«حتى اذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا

يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون»(١).

وموضوع هذه السورة الرئيس هو العقيدة الاسلامية من الايمان بالله، وأدلة وجوده، وعبادته وحده، والايمان بالآخرة، وما فيها من ثواب وعقاب، والايمان بالوحي. وان الغيب كله لله لايعلمه سواه.

وفي هذه الآيات الكريمة أدلة قرآنية على وجود الله سبحانه وتعالى، فهي تتحدث عن قدرة الله، ومظاهر عظمته في هذا الوجود ومناسبة هذه الآيات لما قبلها ان الله سبحانه بعد ان قص على رسوله الانبياء الذين سبقوه، وما منحهم من معجزات باهرة تدل على عظمته سبحانه، وتنطق بجلال اقدارهم وجليل أعمالهم أردف سبحانه وتعالى ذكر الادلة على وحدانيته، وتفرده بالخلق والايجاد والتقدير والتدبير وانه تجب عبادته وحده فلا ينبغي عبادة شئ سواه من الاصنام والاوثان.

تفسير المفردات

١- حدائق ذات بهجة : بساتين ذات حسن ورونق تبهج النظار.

٢- يعدلون : من العدول عن طريق الحق وهو الانحراف.

٣- قرارا : مستقرا لمن عليها.

٤- الخلال : واحدها خلل وهو الوسط.

٥- رواسي : جبالا ثابتات.

٦- الحاجز : الفاصل بين الشيئين.

---

(١) آية / ١٨.

٧-المضطر : الذي احوجته الشدة والجأته الضراعة الى الله.

٨- يكشف : يرفع.

٩- خلفاء : من الخلافة وهي الملك.

١٠- يهديكم : يرشدكم.

١١- بين يدي رحمته : اي امام المطر.

١٢- يبعثون : اي يقومون من القبور للحساب والجزاء.

١٣-ادارك : تدارك وتتابع والمراد التتابع في الاضمحلال والفناء.

١٤- في شك : في حيرة عظيمة.

١٥- عمون : واحدهم عم وهو أعمى القلب والبصيرة.

التفسير

لقد أقام الاسلام عقائده من الايمان بوجود الله ووحدانيته على العقل والنظر ويبدأ النظر الاسلامي من بدايته الطبيعية وهي هذا الكون الذي يحيط بنا فضاؤه وتقوم فوقنا سماؤه، وتمتد حولنا ومن تحت أرجلنا أرضه، ففي هذه الآيات تنبيه الكفار الى ضلالهم وتبكيت لهم على جهلهم حينما آثروا عبادة الاصنام على عبادة الواحد القهار فقال تعالى :

«أمن خلق السموات والارض وانزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها».

فهل عبادة ما تعبدون ايها المشركون من اوثانكم التي لا تضر ولا

تنفع خير، أم عبادة من خلق السموات على ارتفاعها وصفائها، وجعل فيها كواكب نيرة ونجوما زاهرة وافلاكا دائرة، وظق الارض وجعل فيها جبالا راسية وانهارا جارية وسهولا واوعارا وفيافي وقفارا وزروعا واشجارا وحيوانات مختلفة الاصناف والاشكال والالوان وانزل من السماء مطرا جعله رزقا فأنبت به بساتين ذات حسن ورونق مونقة تسر الناظرين ؟

ولولاه سبحانه ما نبت الشجر ولا أظهر الثمر.

وقد نبه الله عز وجل اولئك الوثنيين الضالين الذين عاشوا في عهد الرسول الى ضرر هذه الغفلة التي سترت عقولهم عن الحقيقة فقال :

«وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون»(١).

من أجل هذه الغفلة زاد في توبيخهم فنفى الالوهية عما يشركون بعد تبكيتهم على نفي الخيرية عنها فقال :

«آءله مع اله ؟» أي أءله غيره يقرون به، ويجعلونه شريكا له في العبادة مع تفرده جل شأنه بالخلق والتكوين ؟

فهذا الوجود بنظامه الدقيق وما فيه من سنن لا تتخلف آية على ذلك الاله العظيم مالك الملك ومدبره كما يقول عز وجل :

«تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شئ قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور. الذي خلق سبع

---

(١) سورة يوسف، الآية / ١٠٥.

سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير»[1].

فهذا الكون لابد له من موجد عظيم، وهذا الخلق العجيب لابد له من خالق قدير عليم، فمحال ان يكون ذلك الكون نشأ هكذا وحده صدفة دون قوة تنشئه كما ان محالا ان تكون صنعة لاصانع لها، فهذا الثوب الذي تلبسه لا يمكن ان يكون صنع بنفسه بل لابد له من صانع انتهى منه الى هذا الوضع الذي تلبسه رأيته ام لم تره، وهذه السيارات والطائرات والصواريخ والاقمار الصناعية وغيرها كلها نتيجة قصد وصنع واحداث.

فالقول بالصدفة في خلق الكون لا يتصوره العقل ولا يقره العلم ولا يقوله انسان الا اذا فقد أخص خصائصه من الادراك والتمييز.

قال الفيلسوف الالماني ادوارد هارنمان خليفة شوبنهور في كتابه المذهب الداروني : ((ان الرأي الذي مقتضاه عدم وجود القصد في الكون عند الدارونيين لا يقوم عليه دليل وهو من الاوهام التي لا أساس لها من العلم)).

وقال الاستاذ فون باير الالماني في كتابه دحض مذهب دارون : ((واذا كانوا يعلنون الان بصوت جهوري بأنه لا يوجد قصد في الطبيعة وان الكون لا تقوده الا ضرورات عمياء، فأنا اعتقد ان من واجباتي ان اعلن عقيدتي في ذلك وهي اني على العكس ارى جميع هذه الضرورات تكشف

---

(١) سورة الملك، الآيات / ١-٤.

عن اغراض سامية))[1].

فمتى ثبت وجود القصد في الكون فقد ثبت وجود المدبر الحكيم جل وعلا من طريق محسوس لا سبيل للجدل فيه مصداقا لقوله تعالى :

«أفي الله شك فاطر السموات والارض»[2].

وهكذا ينبغي أن يشعر كل انسان شعورا ضروريا بأن كل أثر لابد له من مؤثر، وكل موجود لابد له من موجد، ولهذا لما سئل الاعرابي فقيل له : كيف عرفت ربك ؟

فقال :((الاثر يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير فسماء ذات ابراج، وارض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، الا تدل على اللطيف الخبير؟))

وقد أشار الله الى ذلك في كثير من آيات الكتاب الكريم، فايقظ الفكر ونبه العقل الى انه لابد لهذا الكون من خالق ولا يتصور العقل غير ذلك فهو سبحانه يقول في الرد على الزائفين الملحدين :

«ام خلقوا من غير شئ ام هم الخالقون ام خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون»[3].

ثم يوجه الفكر والعقل الى خلقه البديع الدال على وجوده ووحدانيته

---

(١) نقلا عن كتاب العقائد الاسلامية للشيخ سيد سابق ص ٤٤.

(٢) سورة ابراهيم، الآية / ١٠.

(٣) سورة الطور، الآيات / ٣٥-٣٦.

فيقول في آيات كثيرة منها :

«ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون، ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها. وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. ومن آياته خلق السموات والارض، واختلاف السنتكم والوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون. ومن آياته ان تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا انتم تخرجون»[1].

كل هذه آيات بينات ودلائل صادقة الدلالة على وجود الله تعالى فخلق السموات والارض، هذا الخلق الضخم الدقيق ظاهرة رائعة لا تجد النفس مفرا من التأثر بها، وتقديرها وعزوها الى مصدرها.

وخلق الانسان اذا ما فكر المرء فيه وقف امامه مذهولا، وأحس أقوى أحساس اذ يرى ترابا يتحول بشرا ثم يخلق له زوجة ليسكن اليها الزوج ويتبادل واياها المودة والرحمة ويراوح بين الليل والنهار ليعطي للانسان فرصة الراحة وظروف العمل، وينزل الماء من السماء لتصبح الارض مخضرة بالنبات الذي يأكله الحيوان ويتغذى على ثماره الانسان، كل هذا من صنع اله قادر وحكيم لا حد لقدرته ومقدار حكمته.

ثم انتقل من تبكيت هؤلاء المشركين الملحدين الى بيان سوء حالهم

---

(١) سورة الروم، الآيات / ٢٠-٣٥.

فقال : «بل هم قوم يعدلون» اي قوم دأبهم العدول عن طريق الحق الذي هو التوحيد والانحراف عن الهدى الى الاشراك بالله سبحانه وتعالى. ثم اعاد توبيخهم بشكل آخر فقال :

«أمن جعل الارض قرارا وجعل خلالها انهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا» اي عبادة ما تشركون ايها الناس بربكم مع انه لا يضر ولا ينفع خير ام عبادة الذي جعل الارض مستقرا للانسان والدواب، وجعل في خلالها انهارا تنتفعون بها في شربكم وسقي أنعامكم ومزارعكم، وجعل فيها ثوابت الجبال حتى لا تميد بكم وحتى تنتفعوا بما فيها من المعادن المختلفة ثم انزل الامطار وجعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزا يمنعها من الاختلاط حتى لا يفسد هذا بذاك، والحكمة تقضي ببقاء كل منهما على حاله لما في ذلك من أثر في حياة الانسان والحيوان. فالعذبة لسقي الناس والحيوانات والنباتات والثمار، والملحة : تكون للامطار التي تجري منها وهي كذلك وسيلة لاصلاح الهواء.

اليس كل هذا آية كبرى على وجود الله برهان قاطع على توحيده وفي الشك في ذاته. «أءله مع الله ؟» في ابداع هذه الكائنات وايجاد هذه الموجودات «بل اكثرهم لا يعلمون» ان لهذا الوجود ربا خلقه واضفى عليه نظامه وسخره للغايات الجليلة التي يعمل لها كما لا يعلمون قدر عظمة الله سبحانه وما يلحقهم من ضر في اشراكهم وما يصيبهم من نفع في توحيده واخلاصهم لعبادته وبراءتهم من كل معبود سواه.

ثم زادهم توبيخا من وجه آخر : «أمن يجيب المضطر اذا دعاه

ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض ؟» اي امن تشركون بالله خير ام من يجيب المكروب الذي يحوجه المرض او الفقر او النازلة من نوازل الدهر الي التضرع اليه اذا دعاه وقت اضراره ويرفع عن الانسان ما يسوءه من فقر او مرض وهكذا ينبغي على كل انسان نزلت به جائحة او لحقت به ضائقة او مسه مكروه او اصابه شر او ضر فزع الى الله وتضرع اليه ليكشف عنه الغمة ويزيل الضائقة ويرفع المكروه.

وجاء في الحديث الشريف : «ثلاث دعوات مستجابات لاشك فيهن دعوة المظلوم، ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده». وفي صحيح مسلم ان النبي (صلى الله عليه وسلم) قال لمعاذ لما وجهه الى ارض اليمن : (واتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب).

وروى او داود في سننه عن ابي بكرة ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : (دعوات المكروب : اللهم رحمتك ارجو فلا تكلني الى نفس طرقه عين، واصلح لي شأن كله، لا اله الا انت).

ومما يروى عن الامام جعفر الصادق انه قال لطوائف من الناس :

((عجبت لمن ابتلي بأربع كيف يغفل عن اربع :

١- من ابتلي بالضر كيف يغفل عن : «رب اني مسني الضر وانت ارحم الرحمين»(١)

ويقول الله تعالى في القرآن الكريم معقبا على ذلك : .

---

(١) ونص الآية : «وأيوب اذ نادى ربه أني مسني الضر وانت أرحم الراحمين» من سورة الانبياء، الآية / ٨٤.

«فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين».

٢- من ابتلى بالغم كيف يغفل عن : «لا اله الا انت سبحانك إني كنت من الظالمين»[١].

ويقول الله تعالى في القرآن الكريم معقبا على ذلك : «فاستجبنا له ونجيناه من الغم، وكذلك ننجي المؤمنين»[٢].

٣- من ابتلى بموجبات الخوف كيف يغفل عن : «حسبنا الله ونعم الوكيل»[٣] ويقول الله تعالى في القرآن الكريم معقبا على ذلك :

«فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم»[٤].

٤- ومن ابتلى بالمكر كيف يغفل عن : «وأفوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد»[٥].

ويقول الله تعالى في القرآن الكريم معقبا على ذلك : فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب»[٦].

---

(١) سورة الانبياء، الآية / ٨٧.

(٢) سورة الانبياء، الآية / ٨٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية / ١٧٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية / ١٧٤.

(٥) سورة غافر، الآية / ٤٤.

(٦) سورة غافر، الآية / ٤٥.

ثم يتوالى في هذه الآيات عرض قدرة الله في مخلوقاته في ايقاعات مؤثرة تأخذ على المشركين اقطار النفس واعماق المشاعر وهو يسألهم أسئلة متلاحقة من يجعلكم خلفاء الارض ؟ من يهديكم في ظلمات البر والبحر، من يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ؟ من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ من يرزقكم من السماء والارض وفي كل مرة يبكتهم ويقرعهم بقوله : «أءله مع الله» ؟ وهم لا يملكون ان يدعوا في الدعوى ان يقولوا ان آلها مع الله يفعل من هذا كله شيئا وهم مع هذا يعبدون اربابا من دون الله.

وبعد ان ذكر سبحانه البرهان تلو البرهان وأوضح الحق حتى صار كفلق الصبح زاد في التهكم بهم والانكار عليهم والتسفيه لعقولهم فأمر رسوله ان يطلب منهم البرهان على صدق ما يدعون، فقال :

«قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين» أي قل يا محمد ان يأتوا بالشركاء ان كان ما يقولونه حقا وصدقا فلما عجزوا عن ذلك مبهوتين اجابهم الله سبحانه وتعالى بقوله :

«قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله، وما يشعرون أيان يبعثون. بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون». فعلم الغيب من اختصاصه سبحانه وتعالى والمراد بالغيب الشؤون التي تتعلق بأمور الآخرة واحوالها وشؤون الدنيا التي لا تقع تحت حسنا، وليست في مقدورنا.

وقد روى مسروق عن عائشة (رضي الله عنها) انها قالت : ((من زعم ان النبي (صلى الله عليه وسلم) يعلم ما يكون في غد فقد اعظم الفرية على

الله، لان الله يقول : «قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله»[1] ومن هذا الغيب الذي لا يعلمه الا الله البعث من القبور عند قيام الساعة والجزاء على الاعمال بل لقد انتهى علمهم في الآخرة وعجزوا عن معرفة وقتها فلم يكن لهم علم بشئ مما سيكون فيها قطعا مع توافر اسباب العلم من الدلائل العقلية والنقلية، فهم جاهلون لذلك بقوا في حيرة عظيمة من تحقيقها ووجودها اكائنة هي أم غير كائنة بل هم منها عمون فهم في عماية وجهل من امرها وعن كل ما يوصلهم الى الحق في شأنها والنظر في دلائلها.

ولكن المفكرين في خلق السموات والارض، واولي الالباب الذين لا يعطلون عقولهم يبحثون ويستقرئون حتى يصلوا في النهاية الى الحقيقة فيؤمنوا بما وصلوا اليه ايمانا لا عن محاكاة وتقليد وانما عن بحث ودراسة ومقارنة ونظر.

وبهذا تظهر لنا آيات الله في الكون ومظاهر قدرته وظواهر ربوبيته أن الكون متكاملا يسير وفق سنن معينة واسلوب محكم : «لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون»[2] والارض وما امسكها به من الجبال وما نوع به الماء من عذب فرات وملح اجاج وما جعله بينهما من حواجز كل ذلك يسير وفق المخطط الالهي ويجري بقدرة الله وحسب مشيئته ومن هنا يتراءى للناظر ضعف البشرية وعجزها مهما

---

(١) تفسير القرآن العظيم لإبن كثير المجلد ٣٧٢/٣ طبع دار المعرفة ببيروت.

(٢) سورة يس، الآية / ٤٠.

ارتقت في التكنولوجيا والمدنية حيال تلك المظاهر الكونية.

فلا يكون امام العقل السليم الا الايمان بالله سبحانه وتعالى والاتجاه الى عبادته تقديرا لربوبيته وشكرا له على نعمته لان الايمان بالله يهدي الانسان الى العيش بسلام فلا يظلم اخاه الانسان، ولا يرتكب معه اي اثم او عدوان لانه يؤمن بأنه مبعوث ليوم عظيم يحاسب فيه على عمله فلا يكون الا فردا صالحا في مجتمعه نافعا لنفسه ولامته وللناس اجمعين.

المبحث الثالث

في صفات الله تعالى

من سورة الحشر الآيات ٢٢-٢٤

قال الله تعالى : «هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم. هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون. هو الله الخالق البارئ المصور له الاسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم.

مكانة هذه الآيات ومناسبتها لما قبلها

هذه الآيات من سورة الحشر واهم مواضيع هذه السورة تنزيه الله لنفسه عن كل نقص وغلبته على اعدائه وتعرية المنافقين وبيان اخلاقهم الضالة مع ضرب المثل لهم ولاهل الكتاب ثم وصف الله سبحانه باوصاف الجلال والكمال لان اقصى ما يتسنى للانسان في هذه الحياة من معرفة بجلاله وكماله هو معرفة صفاته سبحانه وتعالى فبذلك ينجاب الخفاء وتبدو الحقيقة ويتسع مجال الادراك ويهتز القلب استجابة لصفات الكمال والجلال التي تنكشف للعقل ويصل اليها الادراك فبعد ان وصف الله كلامه الكريم وبين اجلال قدره انتقل الى وصف نفسه سبحانه في هذه الآيات بصفات عليا هي في الحقيقة من مقتضيات كمال ربوبيته وعظمة الوهيته التي سبق ان ذكرنا الادلة عليها حتى تكمل عقيدة المسلم لان معرفة هذه الصفات تزيدنا بصيرة وايمانا وحبا لله وثقة به واعتمادا عليه وطاعة له.

تفسير المفردات

١- الغيب : ما غاب عن الحس من العوالم التي لا نراها.

٢- الشهادة : ما حضر من الاجرام المادية التي نشاهدها.

٣- القدوس : أي المنزه عن النقص.

٤- السلام : اي الذي سلم الخلق من ظلمه اذ جعلهم على نظم كفيلة برقيهم.

٥- المؤمن : أي واهب الأمن، فكل مخلوق يعيش في أمن، فالطائر في جوه والسمك في البحر يعيش كذلك، ولا يعيش قوم على الارض ما لم يكن هناك حراس يحرسون قراهم والا هلكوا.

٦- العزيز : أي الغالب على امره.

٧- الجبار : اي الذي جبر خلقه على ما اراد وقسرهم عليه.

٨- المتكبر : اي البليغ الكبرياء والعظمة.

٩- سبحان الله عما يشركون : أي تنزه ربنا عما يصفه به المشركون.

١٠- الخالق : الخالق اي المقدر للاشياء على مقتضى الحكمة.

١١- البارئ : اي المنشىء لها على صفحة الوجود حسب السنن التي وضعها والغرض الذي خلقت له.

١٢- المصور : اي الموجد للاشياء على صورها ومختلف اشكالها كما اراد.

١٣- الاسماء الحسنى : اي الاسماء الدالة على محاسن المعاني التي تظهر في مظاهر هذا الوجود، فنظم هذه الحياة وبدائع ما فيها دليل على كمال صفاته، وكمال الصفة يرشد الى كمال الموصوف.

التفسير

«هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم»

أي انه لا رب غيره، ولا اله في الوجود سواه فكل ما يعبد من دونه من شجر او حجر او صنم او ملك فهو باطل وهو عالم بكل شئ وقد احاط بكل شئ علما سواء ما كان ماضيا او حاضرا او مستقبلا، وعلم الله لم يسبق بجهل، ولا يعتريه نسيان، ولا يتقيد علمه بزمان ولا مكان وعلمه بالكليات كعلمه بالجزئيات، وما يبدو في الكون من نظام واتقان واحكام كما بينا في الآيات الدالة على وجوده سبحانه الا برهان ساطع ودليل قاطع على شمول علمه وكمال حكمته «الم تر ان الله يعلم ما في السموات وما في الارض ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا ادنى من ذلك ولاأكثر الا هو معهم اينما كانوا ثم ينبؤهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شئ عليهم»(١).

وهو الرحمن الذي ينعم على مخلوقاته ويظهر لهم حبه دون ان يؤدوا عملا يستحقون عليه ذلك وهذا مثل أعلى يجب على الانسان التحلي به، فيكون رحيما ببني جنسه يفعل الخير ابتغاء وجه ربه وهو الرحيم الذي يجازي الانسان على عمله، وهذا مثل أعلى ايضا يوجب على الانسان ان

---

(١) سورة المجادلة، الآية / ٧.

يقابل الاحسان بالاحسان.

«هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون» اي هو الله المالك لجميع الاشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مخالفة والذي تجري كل الامور في السموات والارض طبق مشيئته وارادته. القدوس المنزه عن كل عيب ونقص الذي امن خلقه ان يظلمهم والسلام الذي يمقت الحروب وينهي عن العدوان ولهذا كان الاصل في العلاقات بين المسلمين وغيرهم هو السلم، وان مشروعية القتال في الاسلام لا يتعدى دفع الشر وازهاق روح العدوان ولهذا خاطب الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) بقوله :

«وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله»[1] كما نهى المسلمين عن الاعتداء فقال :

«ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين»[2] والمسيطر عليهم والرقيب على اعمالهم كما قال تعالى :

«والله على كل شئ شهيد»[3] الغالب على كل شئ بعظمته وجبروته اذ لا تليق الجبرية الا له ولا التكبر الا لعظمته كما ورد في الصحيح ((العظمة ازاري، والكبرياء ردائي فمن نازعني واحدا منهما عذبته))[4] تنزه

---

(١) سورة الانفال، الآية / ٦١.

(٢) سورة البقرة، الآية / ١٩٠.

(٣) سورة المجادلة، الآية / ٦.

(٤) تفسير القرطبي ٨/٤٧.

ربنا عما يقوله المشركون من الصحابة والولد فهو الواحد الاحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. ((هو الخالق البارئ المصور له الاسماء الحسنى)).

اي هو الله الخالق لجميع الاشياء والموجد لها من غير اصل فها هو ذا الانسان يخلق من خلاصة الطين والتراب وها هي ذي ذريته تخلق فانظر كيف تخلق ؟ انها تخلق من نقطة ماء لا اكثر، ولكن هذه النقطة لا تلبث ان تتدرج في مراحل متتابعة فتصير دما ثم يتحول الدم قطعة لحم وتتحول القطعة اللحم عظاما تنسج عليها يد الباري المصور كسوة من اللحم فاذا خلق جديد رائع قد انبثق من هذه النطفة السانجة.

يقول الله تعالى معبرا عن عملية خلق الانسان

«ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين»(١).

وهكذا كل شئ في الكون يحمل طابع الخلق ويشير الى اله قادر حكيم يخلق الاشياء ويصورها على الصفة التي ارادها كما قال سبحانه «في أي صورة ما شاء ركبك» وله الصفات الحسنى التي وصف بها نفسه لا يشركه فيها أحد سواه ويسبحه كل من في السموات والارض وينزهونه «وان من شئ الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم»(٢) وهو شديد

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات ١٢-١٤.

(٢) سورة الاسراء، الآية / ٤٤.

الانتقام من اعدائه الحكيم في تدبير خلقه وتصريف شؤونهم فيما فيه صلاحهم فهو الكامل القدرة في كل وقت المحيط بكل شئ علما.

أهم ما قررته الآيات من أحكام

اولا - ان لهذا الكون خالقاواحداً لا اله الا هو خالق السموات وما فيها والارض وما عليها من رواسي ثوابت وأنهار جوار ونبات وحيوان ثم فطر الانسان وسخر له جميع الكائنات المادية تخرج رزقه وتوقظ عقله وتوجه قلبه وروحه الى الله.

ثانيا - أن خالق هذا الكون لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار ولكن العقل السليم يتصوره ويدرك بعض صفاته من ثنايا النظر في هذا العالم الذي خلقه فهو يحمل آثار قدرته وسعة علمه وقوة ارادته.

ثالثا - ينبغي علينا ان نتذكر دائما اننا نعيش بمرأى ومسمع من عالم الغيب والشهادة رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما لانه لا يأمر عباده الا بالخير

والبر وفي هذا الامر يرسم للانسان الطريق السوى في الحياة ويوضح هدفه الاعلى في الوجود وفي كتاب الله وسنة رسوله يجد المؤمن الصورة الدقيقة للحياة الفاضلة فينبغي الاعتصام بهما والسير في سبيلهما. لان ذلك هو النهج القويم الذي يرتضيه سبحانه وتعالى.

رابعا - ان الايمان بقدرة الله وجميل عنايته وسعة رحمته لا يدع في النفس مجالا لليأس حتى في أحرج الاوقات واحلك الساعات وكيف

ييأس من يعتقد ان الله على كل شئ قدير، وانه بعباده رؤوف رحيم.

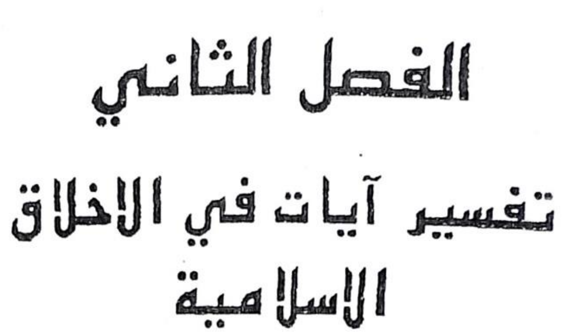
خامسا – ذكرت الآيات بعض اسماء الله الحسنى وصفاته العليا التي تنزهه عن كل صفة من صفات النقص التي تعتري الكائنات لكي يزداد المؤمن بصيرة بقدرة الله وقوته وايمانا وحبا لله الواحد الاحد، وقد امرنا سبحانه وتعالى ان ندعوه بهذه الاسماء فقال: «ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها»[1] لأن الدعاء بها علاج رباني يريح النفس القلقة ويطمئنها أملا في تحقيق آمالها فتركن الى بارئها تبلور آمالها والآمها في كلمة ضارعة تسأله فيها العون والنجاح والتوفيق والدعاء طريق ينبغي ان يسلكه العباد ليوصلهم الى الله فيلفهم بسكينته ويغمرهم بأمنه وطمأنينته فيزول ما ران على انفسهم من اثقال المادة، واوضار الآثام والذنوب فالمؤمن يلجأ الى الله في الرخاء والشدة في العسر واليسر وفي المنشط والمكره لتبديد الشدائد وتفريج الكروب قال تعالى:

«قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى»[2]. ويقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): (ما على وجه الارض مسلم يدعو الله بدعوة الا اتاه الله اياها او صرف عنه السوء مثلها. او يدخر له من الأجر مثلها مالم يدعو باثم او قطيعة رحم).

---

(١) سورة الاعراف، الآية / ١٨٠.

(٢) سورة الاسراء، الاية / ١١٠.



الفصل الثاني

تفسير آيات في الاخلاق الاسلامية

ويشتمل على ثلاثة مباحث

المبحث الأول : في الاحسان من سورة النساء الآيات ٣٦-٤٠

المبحث الثاني : في العدل من سورة النساء الآية / ١٣٥

المبحث الثالث : في الامانة من سورة القصص الآيات ٢٤-٢٨



المبحث الاول
في الاحسان
من سورة النساء الآيات ٣٦-٤٠

قال تعالى «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالاً فخورا. الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله واعتدنا للكافرين عذابا مهينا. والذين ينفقون اموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا. وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وانفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما. ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجرا عظيما.

مكانة الآيات ومناسبتها لما قبلها

هذه الآيات من سورة النساء وقد تضمنت الآيات التي قبلها كثيرا من المبادئ التي يقوم عليها المجتمع الاسلامي كالمساواة بين الناس كافة لتساويهم في الخلق من نفس واحدة واقرت نظام المواريث وفصلته ونظمت العلائق بين الازواج والزوجات وبينت السبل السليمة في معاملة النساء معاملة كريمة وطرق تأديبهن تارة بالموعظة واخرى بالشدة مع مراقبة الله تعالى عز وجل فناسب بعد ذلك التذكير بحسن معاملة الخالق بالاخلاص له في الطاعة وحسن معاملة الطوائف المختلفة من الناس من الاحسان الى الوالدين وصلة الرحم واكرام اليتامى والمساكين والاحسان الى الجار ورحمة الفقير والمحتاج ورعاية الخدم والضعفاء، وحذرت من البخل والكبر

والرياء ونهت عن الكفر والجحود لان ذلك من اعمال من لا يرجو ثواب الله ولا يخشى عقابه.

تفسير المفردات

١- عبادة الله : الخضوع له والتذلل له سبحانه لا يستحقها الا من له غاية الافضال وهو الله تعالى ولهذا قال : «الا تعبدوا الا اياه».

٢- وبالوالدين احسانا : اي البر بهما والقيام بخدمتهما والسعي في تحصيل مطلبهما والانفاق عليهما بقدر الاستطاعة وعدم الخشونة في الكلام معهما.

٣- وبذى القربى : صاحب القرابة من اخ وعم وخال واولاد هؤلاء.

٤- والجار ذي القربى : هو الجار القريب الجوار.

٥- وابن السبيل : الغريب المنقطع سواء أكان فقيرا ام غنيا في بلده وقيل هو المولود اللقيط.

٦- المختال : ذو الخيلاء والكبر اي ان الله يمقت كل متكبر متبختر في مشيته.

٧- الفجور : الذي يعدد محاسنه تعاظما وتكبرا.

٨- اعتدنا : هيأنا واعددنا.

٩- المهين : ذو الاهانة والذلة.

١٠- رئاء الناس : مراءاة الناس، اي افتخارا وليس ابتغاء وجه الله انفاقهم المال.

١١- القرين : الصاحب والخليل.

١٢- وماذا عليهم : أي أي ضرر يحيق بهم لو آمنوا وانفقوا.

١٣- المثقال أصله المقدار الذي له ثقل مهما قل ثم اطلق على المعيار لخصوص الذهب وغيره. والذرة اصغر ما يدرك من الاجسام ومن ثم قالوا انها النملة او رأسها او الخردلة.

التفسير

«اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا» عبادة الله هي الخضوع له والاستشعار بعظمته وتمكين هيبته من النفس، والخشوع لسلطانه في السر والجهر وادارة ذلك العمل بما به امر وترك ما نهى عنه وبذا تصلح جميع الاعمال من اقوال وافعال وهذه العبادة لا يستحقها الا الله فمن اعتقد ان غيره يشركه فيها كان مشركا ولهذا نهى سبحانه عن اشراك غيره معه من الاشياء او المخلوقات.

وبعد ان امر الله بعبادته الخالصة التي هي الاحسان في معاملة الخالق اردفها بالاحسان في معاملة الخلائق ويتجلى ذلك في نظام التكافل الاجتماعي لسد حاجة المحتاجين ورفع عوز المعوزين وهذا التكافل الاجتماعي الذي احتوته الآيات منه ما يكون في نطاق الاسرة فقد اوجبت الاحسان الى الوالدين وقرن ذلك بتوحيده وما ذاك الا لعظيم حقهما وكبير شأنهما وجزيل فضلهما، وقد يكون المرء في بعض الاحيان عرضة للضعف النفسي اذا لجأ اليه الوالدان في حالة الشيخوخة والعجز لذلك نبهه سبحانه الى واجبه في هذا الظرف بانه لا ينبغي لمن يؤمن بالله ان ينسى نفسه فيتأفف منهما او ينهرهما او يوجه اليهما ما يجرح مشاعرهما وغير ذلك من انواع الاذى بل عليه ان يخفض الجناح لهما وان يحاول استرضاءهما ويعمل في ذلك الى أبعد حد وبهذا يدخر لنفسه افضل اسباب النجاح في

الدنيا ويحقق لها الفوز برضا الله ورحمته في الآخرة. فعلاقة المؤمن بوالديه ينبغي ان تكون احسانا في كل عمل يقدمه اليهما وبخاصة الام فقد أعلى الاسلام شأنها وجعل العناية بها اسمى درجة.

وقد سلك القرآن المسلك العاطفي للاقناع بضرورة الاحسان اليهما فصور للمؤمن مدى ما تعانيه الام من متاعب جسيمة في الحمل، وما تتعرض له من اخطار في الولادة وما تتحمله من مكاره في الرضاع والفطام، فقال تعالى «ووصينا الانسان بوالديه احسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا»[1] وقال ايضا «ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين»[2].

وفي السنة النبوية يحث النبي (صلى الله عليه وسلم) على بر الوالدين لما لهما من مكانة سامية ومنزلة رفيعة ومن ذلك ما يقوله عمرو بن العاص : جاء رجل الى نبي الله (صلى الله عليه وسلم) فاستأذنه في الجهاد فقال «احي والداك» قال نعم قال «ففيهما فجاهد»[3].

ومن ذلك ايضا ما يرويه ابن مسعود فيقول : ((سألت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أي العمل أحب الى الله قال : الصلاة على وقتها قلت ثم أي ؟ قال : بر الوالدين، قلت ثم أي ؟ قال : الجهاد في سبيل

---

(١) سورة الاحقاف، الآية / ١٥.

(٢) سورة لقمان، الآية / ١٤.

(٣) رواه البخاري ومسلم وابو داود والترمذي والنسائي ، انظر المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذري ٧٤١/٢.

الله))[1] ثم احسان معاملة أقرب الناس اليكم بعد الوالدين واذا ادى المرء حقوق الله صلح حال الاسرة وكانت لبنة صالحة في بناء المجتمع.

ومن التكافل الاجتماعي الذي تضمنته هذه الآيات كان في نطاق المجتمع كالاحسان الى اليتيم الذي فقد الناصر والمعين وهو الاب اذ قلما تستطيع الام مهما اتسعت معارفها ان تقوم بتربيته تربية كاملة والرحمة به والتلطف له فليتق الله اولياء اليتامى وليحرصوا على تربيتهم وليتذكروا قول الله تعالى :

«وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديدا» ويقول الرسول في بيان اجر كافل اليتيم (انا وكافل اليتيم في الجنة هكذا واشار باصبعيه السبابة والوسطى)[2].

وكذلك المسكين فانه لا ينتظم حال المجتمع اذا كثر فيه المساكين الذين يعجزون عن سد حاجاتهم فعلى القادرين من أبناء المجتمع رعايتهم وتقديم المعونة اليهم ويحث الرسول (صلى الله عليه وسلم) على ذلك فيقول : (ما من يوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان فيقول احدهما اللهم اعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم اعط ممسكا تلفا)[3].

ومن ذلك ايضا رعاية الجار حتى ولو كان غير مسلم وقد ثبت الامر بالاحسان في معاملته في احاديث منها عيادته (صلى الله عليه وسلم) لولد جاره اليهودي في الصحيح وروى البخاري في الادب المفرد عن عبد الله بن

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاتري.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

عمر رضي الله عنهما انه ذبح شاة فجعل يقول لغلامه ((اهديت لجارنا اليهودي اهديت لجارنا اليهودي))[١].

وقد كرر النبي (صلى الله عليه وسلم) الوصية بالجارحتى لقد قال : (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت انه سيورثه)[٢] وهذا الحق يثبت للجار سواء كان مسلما ام غير مسلم.

وكذلك يوجب الاحسان الى ابن السبيل المسافر او الضيف او اللقيط وكلهم يستحقون الاحسان.

«وما ملكت أيمانكم» من الفتيان وقد اوصانا إلله بهم وحثنا الرسول في احاديث عدة على حسن معاملتهم فقد روى الشيخان ذلك فقال : ((هم اخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت ايديكم فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فان كلفتموهم فاعينوهم عليه))[٣] لان الله المتكبر الذي يرى نفسه أعلى من نفوس الناس والفخور الذي يظهر أثر الكبر في قوله كما يظهر في فعل المختال فكل منهما مبغوض عند الله تعالى، لانه لا يجد في نفسه معنى عظمة الله وكبريائه فلو وجدهما لتأدب وشعر بضعفه وعجزه. ولهذا بين الرسول (صلى الله عليه وسلم) جزاءه بقوله : (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل : ان الرجل يحب ان يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنة فقال (صلى الله عليه وسلم) : (ان الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق

---

(١) رواه البخاري في الادب المفرد.

(٢)رواه البخاري ومسلم.

(٣) إنظر المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب ٢/٦٧٨.

وغمص الناس[1].

ثم بين سبحانه وتعالى حال هؤلاء المتكبرين بقوله : «الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله».

والمراد بالبخل في الآية البخل بالاحسان سواء اكان معنويا كالبخل بلين الكلام والقاء السلام والنصح في التعليم أم ماديا كالبخل بامساك المال وعدم انفاقه في وجوه الخير والاحسان فهؤلاء وامثالهم اعد الله لهم بسبب كبرهم وبخلهم وعدم شكرهم عذابا يتسم بالمهانة والذلة جزاء لهم على ما اقترفوه وقد سماهم الله كفارا للايذان بان هذه الاخلاق والاعمال لا تصدر الا من الكفور لا من المؤمن الشكور.

ثم بين تعالى ان ما نعى الاحسان من اهل الفخر والكبرياء فريقان فريق يبخلون ويكتمون فضل الله عليهم، وفريق يبذل المال لا شكرا لله على نعمه، ولا اعترافا لعباده بحق بل ينفقونها رئاء الناس ليعظموهم ويحمدوا فعلهم، لانهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ايمانا له اثره من السيطرة على القلب والاستيلاء على النفس فهم لا يعرفون الله حق المعرفة فلو كانوا مؤمنين بالله واليوم الآخر لما فضلوا الدنيا على الآخرة ولا عجب من افعال هؤلاء المتكبرين لانه ما حملهم على هذه الافعال الا وسوسة الشيطان ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا.

فلو فكر هؤلاء بعقولهم فأي ضرر يصيبهم لو آمنوا بالله ايمانا صحيحا فانفقوا مما رزقهم الله باخلاص من غير مراءاة. ويكتفون بعلم الله

---

(١) رواه ابو داود والترمذي عن ابن مسعود (رضي الله عنه).

في انفاقهم ولا يهتمون بعلم الناس لان الله كان بهم عليما فهو لا ينسى عمل الفاعلين ولا ينقصهم من امرهم شيئا، بل يوفيهم حقهم بالقسطاس المستقيم، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى :

«ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجرا عظيما»[1].

ففي هذه الآية الكريمة اعظم ترغيب لنا على البر والاحسان واكبر حافز لهم على العمل وان الله لا ينقص احدا من اجر عمله فان كانت حسنة يضاعفها كما قال تعالى في آية اخرى «من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وهم لا يظلمون»[2] بل انه تعالى لواسع فضله وعظيم كرمه لا يكتفي بجزاء المحسنين على احسانهم فحسب بل يزيدهم من فضله ويؤتيهم من لدنه اجرا عظيما لانه ذو الكمال المطلق والفضل العظيم.

أهم ما تقرره هذه الآيات من احكام

ان اهم ما قررته هذه الآيات

اولا – وجوب التكافل الاجتماعي لسد حاجة المعوزين سواء أكان على مستوى الاسرة او المجتمع فقد فرضت هذه الآيات الاحسان الى المعوزين والبر بالفقراء والمحتاجين سواء أكانوا من الاقارب او غيرهم وفي هذا العمل قضاء على الفقر وتقريب للمسافة ما أمكن بين الاغنياء والفقراء ليعيشوا في مجتمع فاضل متماسك البنيان يسوده الرحمة والتضامن. ومما

---

(١) سورة النساء، الآية / ٤٠.

(٢) سورة الانعام، الآية / ١٦٠.

يجدر ملاحظته ان الانفاق على الفقراء والعاجزين في الشريعة الاسلامية واجب على الدولة لقوله (صلى الله عليه وسلم) : (من ترك مالا فلورثته، ومن ترك عيالا فالى وعلي)(١)

ثانيا - ان العمل بهذه الآيات يحقق الهداية الكافية في معاملة الناس لربهم، ويقيم في المجتمع مبدأ الاخوة في معاملة بعضهم بعضا ولهذا يتحقق ما تهدف اليه الشريعة الاسلامية من التضامن والتكافل الذي اوجبته هذه الآيات. لأن الاسلام يهدف الى إيجاد مجتمع متماسك البنيان قوي الاركان متعاون يؤثر كل فرد فيه المصلحة العامة على مصلحته الخاصة، ويحب كل فرد منه الخير لاخوانه كما يحب الخير لنفسه، وبذلك تتكاتف القوى وتتحد الجهود حتى يكون الكل كجسد واحد وعلى قلب واحد وما اجمل وصف الرسول للمؤمنين بذلك حين قال : (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر)(٢) وهذا هو الحصن الحصين ضد الصهاينة والمستعمرين والسلاح البتار في وجه كل من تسول له نفسه الاعتداء على المواطنين واذلال الآمنين وامتهان كرامة الاوطان.

فالتكافل الاجتماعي والتضامن الاسلامي درعان حصينان تتقى بهما الأمة ضربات المعتدين الآثمين.

---

(١) رواه الشيخان والترمذي والنسائي بلفظ آخر انظر الأموال ص ٢٣٧ لأبي عبيد طبع المكتبة التجارية بالقاهرة ١٣٢٧.

(٢) رواه مسلم.

المبحث الثاني
في العدل
من سورة النساء الآية ١٣٥

قال الله تعالى من سورة النساء :«يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم او الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى إن تعدلوا وأن تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا».

مكانة الآية ومناسبتها لما قبلها .

بعد ان امر الله سبحانه بالقسط في اليتامى والنساء في سياق الاستفتاء في الآيات السابقة لهذه الآية عمم في هذه الآية الامر بالعدل في الحكم بين الناس لان قوام امور المجتمع الفاضل لا تقوم الا بالعدل وحفظ النظام لا يتم الا به والباقية من الشهادة لله بالحق ولو على النفس والوالدين والاقربين وعدم محاباة احد لغناه او مركزه الاجتماعي او القرابة وهذه العدالة من اهم اسباب الرقي والتقدم والسعادة في الدنيا والآخرة.

تفسير المفردات

١- قوامين بالقسط : قائمين بالعدل وقد ورد هذا اللفظ في هذه السورة في قوله تعالى :

«الرجال قوامون على النساء» اي قائمون بالولاية على النساء والاشراف لا بالاستطالة والقهر وانهم مسؤولون عنهن في الدنيا والآخرة قال تعالى :

«يا أيها الذين آمنوا قوا انفسكم وأهليكم نارا».

وقوامين جمع قوام وهو المبالغ في القيام بالشئ اي هو الاتيان به كاملا لا نقص فيه.

التفسير

«يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط» يخاطبكم الله سبحانه وتعالى يا أيها المؤمنون ويأمركم بان تقيموا العدل بالاتيان به على اتم الوجوه واكملها حتى تجعلوا العناية بالقسط على وجهه الاكمل صفة ثابتة لكم راسخة في نفوسكم والعدل أنواع منه بين الزوجات والاولاد ومنه العدل في الحكم بين الناس ممن يوليه السلطان او يحكمه الناس فيما بينهم، وكان ينبغي ان يكون المسلمون بمثل هذه الهداية اعدل الامم واقومهم كما كان اباؤهم مهتدين بالحق كما قال الله فيهم : «وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون»[1] فلو سار المسلمون على هدى الله والتزموا شريعته لكانوا اعدل الامم واقومهم بالقسط كما كان آباؤهم الاوائل «شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين» اي كونوا شهداء لله بان تتحروا الحق الذي يرضاه ويأمر به من غير محاباة لاحد، ولو كانت الشهادة على انفسكم بان يثبت بها الحق عليكم ومن اقر على نفسه بحق فقد شهد عليها لان الشهادة اظهار الحق او على والديكم واقرب الناس اليكم كاولادكم واخوتكم اذ ليس من بر الوالدين ولا من صلة ذوي الارحام ان يعانوا على ما ليس لهم بحق بالاعراض عن الشهادة عليهم او ليها او التحريف فيها لاجلهم بل البر والصلة في الحق والمعروف.

والحق ان الحياة قصاص، فالذين يتعاونون على ارتكاب الظلم وهضم

---

(١) سورة الاعراف، الآية / ١٨١.

حقوق الناس يتعاون الناس على سومهم سوء العذاب واذاقتهم الوان الخسف وهضم الحقوق، فالمحاباة وعدم العدل من اسباب فشو الظلم والعدوان ونشر الفساد والآثام «ان يكن غنيا او فقيرا فالله اولى بهما» اي ان يكن المشهود عليه من الاقربين او غيرهم سواء كانوا اغنياء أم فقراء فالله اولى بهما، وشرعه احق ان يتبع فيهما واقامة الشهادة بالحق هي خير للشاهد والمشهود عليه وقد روى ابن جرير في سبب نزول هذه الآية فقال: نزلت في النبي (صلى الله عليه وسلم) اختصم اليه رجلان غني وفقير فكان ميله القلبي مع الفقير لظنه انه لا يتصدى لظلم الغني وقال قتادة في هذه الآية: هذا في الشهادة فاقم الشهادة يا ابن آدم ولو على نفسك او الوالدين او على ذوى قرابتك واشراف قومك فانما الشهادة لله وليست للناس والعدل ميزان الله في الارض به يرد الله من الشديد على الضعيف ومن الصادق على الكاذب ومن المبطل على المحق(١).

فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا، لان اتباع الهوى وميل النفس يؤدي الى الباطل.

«وان تلووا او تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا» أي وان تلووا السنتكم بالشهادة وتحرفوها او تعرضوا عنها فلا تؤدوها فالله خبير باعمالكم لا يخفى عليه قصدكم فهو مجازيكم بما تعملون.

وقد عبر سبحانه بكونه خبيرا ولم يقل عليما ليعلمنا بان الخبرة هي العلم بدقائق الامور وخفاياها، فهي التي تناسب هذا المقام الذي تختلف فيه النيات ويكثر فيه الغش والاحتيال حتى ان الانسان ليغش نفسه ويلتمس لها

---

(١) المنار جـ٥ ص ٤٥٧-٤٥٨ وتفسير المراغي ١٧٩/٥.

العذر في كتمان الشهادة او التحريف فيها، فهل يتدبر المسلمون الآية كما امرهم الله بتدبر القرآن فيقيموا العدل المطلق والشهادة لكل حال من الاحوال التي يتعرض لها الفرد في المجتمع حاكما كان او محكوما غنيا او فقيرا قويا او ضعيفا رجلا او امرأة فهم جميعا خلق الله وقد امرهم بالعدل لاصلاح شأنهم في الدنيا والآخرة. ويبين الرسول (صلى الله عليه وسلم) اجر العادلين في الدنيا ومكانتهم الكريمة في الآخرة فيقول (يوم من امام عادل افضل من عبادة ستين سنة، وحد يقام في الارض بحقه ازكى من مطر اربعين صباحا)[1]

ويقول ايضا : (احب الناس الى الله يوم القيامة وادناه منه مجلسا إمام عادل وابغض الناس الى الله تعالى، وابعدهم منه مجلساً إمام جائر)[2]

أهم ما تقرره الآية من أحكام

اقامة العدالة في شتى صورها واتخاذها دستورا في سلوك المؤمن فلا يجوز عليه الظلم فقد روى عن ابي ذر الغفاري عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال :

فيما يرويه عن ربه : ((يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا[3] فكل مسلم مدعو الى التزام جانب العدل في علاقته باخوانه وابنائه واقربائه وقد بشّر المقسطين بحسن المنزلة عند الله يوم القيامة فقال (صلى الله غليه وسلم) : (ان المقسطين عند الله على منابر

---

(١) رواه الطبراني في الكبير باسناد حسن.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه مسلم / ٨.

من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم واهليهم وما ولوا[1] كما حذرنا (صلى الله عليه وسلم) من الظلم وعواقبه الوخيمة. فقد روى عن ابن عباس (رضي الله عنهما) ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعث معاذا الى اليمن فقال له : (اتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب[2].

فالعاقل من أنصف نفسه من نفسه قبلاً ان ينتصف الله منه، وحاسبها قبل ان تحاسب، وحكم لها او عليها والتزم جانب العدل في علاقاته باخوانه وأبنائه واهله فلا يظلم أخاه، ولا يحرم وارثاً من ميراثه ليعطي آخر، ولا يجامل اهله على حساب بعض لكي لا يزرع الحقد والبغضاء في قلوبهم ويورثهم النزاع والشحناء فيما بينهم وليذكر دائماً ان الله قد حكم بين العباد وانه ليس الا منفذ لأحكامه قال تعالى : «فليحذر الذين يخالفون عن امره أن تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم»[3]

---

(١) رواه مسلم والنسائي.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) سورة النور، الآية / ٦٣.

المبحث الثالث
في الامانة
من سورة القصص الآيات ٢٤-٢٨

قال الله تعالى : «فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب اني لما انزلت الي من خير فقير فجاءته احداهما تمشي على استيحاء قالت ان ابي يدعوك ليجزيك اجر ما سقيت لنا، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين قالت احداهما يا ابت استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين قال اني اريد ان انكحك احدى ابنتي هاتين على ان تأجرني ثماني حجج فان اتممت عشرا فمن عندك وما اريد ان اشق عليك ستجدني ان شاء الله من الصالحين قال ذلك بيني وبينك ايما الاجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل».

مكانة هذه الايات ومناسبتها لما قبلها

هذه الآيات من سورة القصص وهي مكية وقد سميت بسورة القصص لاشتمالها على القصص الذي حكاه موسى لنبي الله شعيب في قوله سبحانه وتعالى «فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين».

ومعظم هذه السورة يتناول قصة موسى وفرعون وتعرض من خلالها قوة فرعون الطاغية المتجبر الذي علا في الارض واتخذ اهلها شيعا يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم ولكن هذه القوة والجبروت لا تغني عنه شيئا تجاه رعاية الله لموسى ونصرته على فرعون وهامان وقارون والحكمة في نزول هذه السورة على نبينا محمد انها نزلت بمكة والمسلمون في مرحلة قاسية

حيث كانوا قلة مستضعفة والمشركون هم اصحاب الحول والطول والجاه والسلطان فنزلت هذه السورة لتعلم الرسول بالموازين الحقيقية للقوى والقيم وتقرر ان هناك قوة واحدة في هذا الوجود هي قوة الله وان هناك قيمة واحدة في هذا الكون هي قيمة الايمان، فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه، ومن كانت قوة الله عليه فلا امن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع قوى الارض وهذا ما هدفت اليه سورة القصص.

تفسير المفردات

١- تولى : انصرف.

٢- الظل : ظل شجرة كانت هناك.

٣- الخير : معناه هنا الطعام ويكون بمعنى المال كما في قوله تعالى «ان ترك خيرا» وبمعنى القوة كما في قوله تعالى «اهم خير ام قوم تبع» وبمعنى العبادة بقوله «واوحينا اليهم فعل الخيرات».

٤- الاستيحاء : شدة الحياء.

٥- ليجزيك : ليثيبك.

٦- القصص : الحديث المقصوص اي المخبر به.

٧- الحجج : واحدها حجة وهي السنة.

٨- اشق عليك : اي ادخل عليك مشقة.

٩- فلا عدوان : اي فلا حرج.

١٠- وكيل : شهيد.

التفسير

«فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب اني لما انزلت الي من خير

فقير» بعد ان سمع موسى كلام المرأتين اللتين رق لهما حينما رآهما بعيدتين عن مكان السقي لم لا تردان الماء مع هؤلاء القوم فأجابتاه قائلتين: لا نسقي غنمنا الا اذا فرغ هؤلاء من السقي، وابونا شيخ كبير لا يستطيع السقي بنفسه فنحن نلجأالى ما ترى لتشرب مواشينا. فما كان من موسى عليه السلام الا ان يساعدهما لذلك اقبل على المورد فسقى لهما غنمهما ثم انصرف الى ظل شجرة ليقيل ويستريح، وناجى ربه قائلا اني لمحتاج الى شئ تنزله الي من خزائن جودك وكرمك.

روى عن ابن عباس انه قال : ((لقد قال موسى ذلك وهو اكرم خلق الله عليه ولقد افتقر الى شق تمرة ولصق بطنه بظهره من شدة الجوع)).

فجاءه الفرج بعد الشدة واجاب الله طلبه ((فجاءته احداهما تمشي على استحياء قالت ان ابي يدعوك ليجزيك اجر ما سقيت لنا)).

اي فجاءته احدى المرأتين تمشي وهي حيية مستورة قائلة : ان ابي يدعوك ليكافئك على ما صنعت من الاحسان واسديت الينا من المعروف بسقي غنمنا وقد اسندت الدعوة الى ابيها وعللتها بالجزاء حتى لا يتوهم من كلامها شئ من الريبة، كما ان في كلامها دلالة على كمال العقل والحياء والعفة كما لا يخفى.

وقد اختلف في الاب مَن هو ؟ فقيل هو شعيب عليه السلام وهو بعيد كل البعد لأن شعيبا كان قبل موسى بزمن طويل بدليل قوله تعالى : «وما قوم لوط منكم ببعيد» وقد كان هلاك قوم لوط في عصر الخليل عليه السلام كما نص على ذلك الكتاب الكريم، وكان بين ابراهيم وموسى ما يزيد على اربعمائة سنة.

فاستجاب موسى لدعوة الشيخ تبركا به لا طمعا في الاجر فتبع موسى الفتاة الى بيت ابيها وشوهدت مخايل الامانة على موسى منذ ان سقى لابنتي الرجل الصالح ورفق بهما واحترم انوثتهما وكان معهما عفيفا شريفا الى ان نزل بيت الشيخ فنزل صدرا رحبا وانس حرما آمنا. فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين».

فلما جاء موسى هذا الشيخ افضى اليه بمكنون سره وقص عليه حديثه مع فرعون وآله في كفرهم وطغيانهم واذلالهم للعباد وتآمرهم على قتله وهربه منهم بعد الذي علمه قال له : لا تخف من حولهم وطولهم انك قد نجوت من سطوة هؤلاء الظلمة اذ لا سلطان لهم علينا ولسنا في دائرة ملكهم فقال له لا تخف نجوت من القوم الظالمين.

ولما امنه وطمأنه على نفسه دار الحديث وكان ذا شجون قالت احداهما يا ابت استأجره، ان خير من استأجرت القوى الامين.

لقد كان موسى كريما فتيا عفا طاهر الذيل اثار في نفس الشيخ وبنتيه عوامل الاكبار والاعجاب لما زانه الله به من طبع قويم وخلق كريم فتحرك في نفس الفتاة حب الاستظهار بموسى وقوته والابقاء على طهارته وامانته فقالت احداهما يا ابت استأجر موسى ليرعى ما شيتك فان خير من تستأجره للرعي القوى على حفظ الماشية والقيام عليها في اصلاحها وصلاحها، الامين الذي لا تخاف خيانته فيما تأتمنه عليه منها.

ولا يخفى ان مقالها من جوامع الكلم والحكمة البالغة، لانه متى اجتمعت هاتان الصفتان : الامانة والكفاية في القائم باداء امر من الامور تكلل عمله بالظفر وكفل له اسباب النجاح.

مر حديث الفتاة الى اذن ابيها، فلم ينبه غافلا، ولم يحرك ساكنا بل كان صدى يرجع ما كان يجيش في صدر الشيخ من امل ورجاء، اما وقد مزق التماس الفتاة حجاب السكوت، فقد استقر ابوها في مجلسه ثم انبرى يقول يا موسى اني لراغب في ان ازوجك احدى ابنتي هاتين على ان تكون عونا لي وظهيرا اجيرا ترعى الغنم وتقوم بنصرتي ومساعدتي ثماني حجج، وان زدتها اثنتين فتلك منة جليلة، ارجوها منك ولا أحتمها عليك، وسأكون لك ان شاء الله من الاوفياء المخلصين.

ولقد كان موسى شريدا في بلاد مدين وحيدا طريدا نائيا عن الاهل قصيا عن الاخلاء مستوحشة نفسه فلم يكد يسمع دعوة الشيخ حتى سرى أمل الحياة في نفسه مسرى الماء في العود وانطلق لسانه يقول للشيخ : اني لسعيد بصحبتك ايها السيد الكريم قوي بمناصرتك، عزيز بموازرتك.

وفي هذا دليل على مشروعية عرض ولي المرأة لها على الرجل، وقد عرض عمر بن الخطاب ابنته على ابي بكر وعثمان وعرضت الموهبة نفسها على النبي (صلى الله عليه وسلم)، قال ابن عمر : ((ولما تأيمت حفصة قال عمر لعثمان : ان شئت انكحتك حفصة بنت عمر)) الحديث اخرجه البخاري.

فاجابه موسى : قال ذلك بيني وبينك، اي ما شرطت علي فلك، وما شرطت من تزوج احداهما فلي والامر علي ذلك لا يخرج كلانا عنه، لا انا عما شرطت علي، ولا انت عما شرطت على نفسك ثم فسر هذا بقوله تعالى: «ايما الاجلين قضيت فلا عدوان علي)) اي اي المدتين قضيت، الثماني الحجج او العشر، وفرغت منها فوفيتكما برعي غنمك وما شيتك

فليس لك ان تغالبني بأكثر منها، روى ان النبي (صلى الله عليه وسلم) سئل: اي الاجلين قضى موسى ؟ قال : اوفاهما وابرهما.

ثم جعل الله شهيدا على صدق ما يقول كل منهما فقال (والله على ما نقول وكيل) اي شهيد ما اوجب كل منهما على نفسه لصاحبه[1].

اهم ما تقرره الآيات

ان من اهم ما تقرره الآيات

اولا - الامانة وما شاهدناه من امانة سيدنا موسى حين سقي لابنتي الرجل الصالح، ورفقه بهما واحترام انوثتهما ومسيرته معهما عفيفا شريفا، وقد حدث هذا قبل ان ينبأ موسى ويرسل الى فرعون وهو من اسمى انواع الامانة، ولا غرو فرسل الله يختارون من أشرف الناس طباعا وازكاهم معادن فهذا سيدنا يوسف (عليه الصلاة والسلام) كان اميناً في بيت العزيز فحينما تعرض لموقف من مواقف الفتنة، وتعرضت له امرأة العزيز رد عليها بقوة ((معاذ الله انه ربي احسن مثواي انه لا يفلح الظالمون))[2] وهذا سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) كان يلقب قبل بعثته بالصادق الامين، واستمر هذا اللقب له حتى من اعداء دعوته الذين اتهموه بالسحر والكهانة الا أنهم كانوا يقدرون فيه صدقه وامانته ولا غرو في ذلك فقد مدحه ربه بقوله : «وانك لعلى خلق عظيم»[3].

فالنفس التي تظل معتصمة بكل الفضيلة - على شدة الفقر ووحشة

---

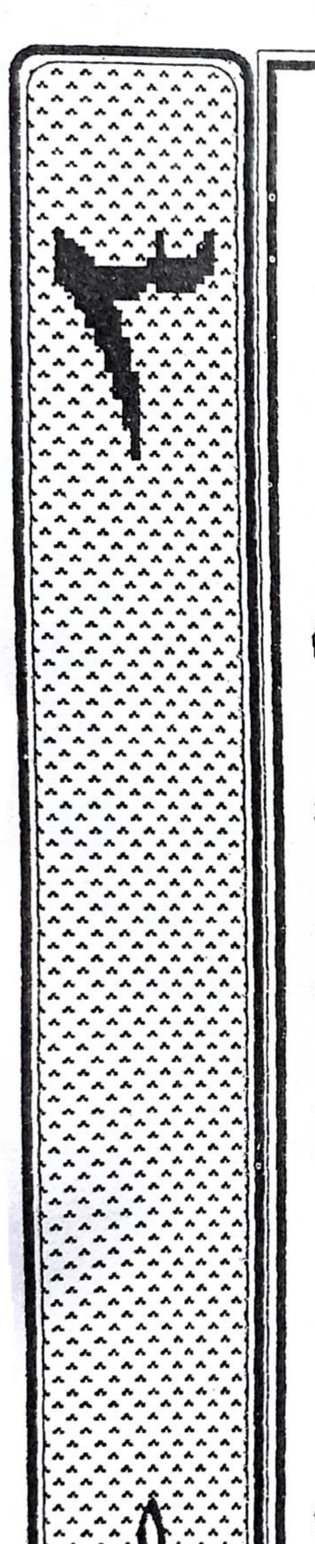
(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٣٨٣-٣٨٦.

(٢) سورة يوسف، الآية / ٢٣.

(٣) سورة القلم، الآية / ٤.

الغربة – هي لرجل قوي أمين، والمحافظة على حقوق الله وحقوق العباد تتطلب خلقا لا يتغير باختلاف أيام بين نعمى وبؤس وهو جوهر الامانة.

ثانيا – يجوز ان يعترض ولي المرأة على الرجل وبهذا يجوز للمرأة البالغة او العاقلة او الايم ان تعرض نفسها كذلك بشرط ان تلاحظ في المعروض عليه الدين والاخلاق.



الفصل الثالث

تفسير آيات في العلاقات الاجتماعية

ويشتمل على المباحث الآتية

المبحث الأول : في طبيعة الأسرة من سورة الروم الآية / ١

المبحث الثاني : في تحريم النساء ذوات الازواج من سورة النساء الآية / ٢٤

المبحث الثالث : في تحريم أرث النساء وعضلهن من سورة النساء الآية / ١٩

المبحث الرابع : في رعاية اليتيم من سورة النساء الآية / ٢

المبحث الخامس : في المحافظة على شعائر الله وعدم أحلالها من سورة المائدة الآية / ٢

المبحث السادس : في ولاية المؤمنين بعضهم لبعض من سورة التوبة الآيات / ٧١ - ٧٢

المبحث الاول

في طبيعة الاسرة

من سورة الروم الآية / ٢١

قال تعالى «ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون»مكانة هذه الآية ومناسبتها لما قبلها

هذه الآية من سورة الروم ومن اهداف هذه السورة الكشف عن الارتباطات الوثيقة بين احوال الناس واحداث الحياة ثم تصوير النزعة الطبيعية للحياة الاسرية التي تقوم على كل من الرجل والمرأة وما يشيع بينهما من حب ورحمة وتعاون وهذا ما عبرت عنه الآية التي سنفسرها ومناسبة هذه الاية لما قبلها. ان الله عز وجل ذكر في الاية التي سبقتها انه خلق الانسان من تراب الذي لم يشم منه رائحة الحياة والذي لا مناسبة بينه وبين ما عليه الانسان في ذاته وصفاته، ثم ذكر في هذه الآية ابقاء النوع الانساني بالتوالد، فاذا مات الاب قام ابنه مقامه لتبقى سلسلة الحياة متصلة بالزواج والتوالد الى قيام الساعة.

التفسير

«ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة».

تشير هذه الآية الى دليل من ادلة الله الباهرة وحججه الظاهرة على

البعث والاعادة، ان خلق لكم ازواجا من جنسكم لتأنسوا بها، وجعل بينكم المودة والرحمة لتدوم الحياة المنزلية على اتم نظام ونحو الآية قوله تعالى : «هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها»(١).

فالآية الكريمة تعني بالحياة الزوجية وتبين ما ينبغي ان تكون عليه العلاقة بين الزوجين من حب ورحمة وحسن معاشرة ومعاملة بالمعروف لان الزوجين يكونان المجتمع الصغير الذي يتربى فيه الانسان وينشأ. من أول مهده بالحياة في احضانه، يتأثر بهما فيسعد بسعادتهما ويشقى بشقائهما ويتطبع بطباعهما. ولذلك ادرك علماء الاجتماع ان البيت هو الينبوع الاول الذي يمد الامة بالرجال والنساء وانه اذا كان هذا الينبوع طيبا صافيا خاليا من الشوائب المفسدة فان اعداده يكون خيرا على الامة وزادا لها من الافراد الصالحين الطيبين الذين يصبحون في مجتمعنا الاكبر لبنات ومثل عليا ودعائم نظام ومصادر سعادة.

واذا كان هذا الينبوع مشوبا بالشوائب قائما على الفوضى والاهمال، فان اعداده يكون شرا على الامة وخطرا عليها وعلى مقدساتها، ونكدا ووبالا على مجتمعنا(٢) وهذا المعنى يقرره القرآن الكريم حيث يقول : «والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا»(٣).

«ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون».

---

(١) سورة الاعراف الآية / ١٨٩.

(٢) المجتمع الاسلامي كما تنظمه سورة النساء للشيخ محمد محمد المدني ص ٢٠٧.

(٣) سورة الاعراف، الآية / ٥٨.

اي فيما سلف من خلقكم من تراب وخلق ازواجكم من انفسكم، وابقاء المودة والرحمة لعبرة لمن تأمل الافعال المبنية على الحكم والمصالح، فهي لم تخلق عبثا بل خلقت لاغراض شتى تحتاج الى امعان الفكر حتى يصل الى كنهها اصحاب العقول الراجحة، ومن هذه الاغراض حسن العشرة التي ارشد اليها سبحانه وتعالى بقوله :

«وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيرا»[١] ومن متقضى حسن العشرة عدم اهانة الزوجة وايذائها اذا بدا منها هفوة او صدر عنها زلة والنبي (صلى الله عليه وسلم)كان قدوة مثلى في نبل المعاملة وكرم العشرة الزوجية وقد بين ذلك فقال : (خيركم خيركم لأهله وانا خيركم لأهلي)[٢] ويرشد الازواج الى ان حسن العشرة الزوجية من الايمان فيقول : (اكمل المؤمنين ايمانا احسنهم خلقاً والطفهم باهله)[٣] وكان آخر ما وصى به (صلى الله عليه وسلم) الرجال بالنساء ثلاثاً ثلاث كان يتكلم بهن حتى خفي كلامه جعل يقول : (الصلاة الصلاة، وما ملكت ايمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون الله الله في النساء فانهن عوان في ايديكم اخذتموهن بامانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله)[٤].

---

(١) سورة النساء، الآية / ١٩.

(٢) رواه الترمذي من حديث عائشة.

(٣) رواه الترمذي والنسائي واللفظ له وللحاكم.

(٤) رواه النسائي وابن ماجة.

المبحث الثاني

في تحريم النساء ذوات الازواج

من سورة النساء الآية ٢٤

قال الله تعالى : «والمحصنات من النساء الا ما ملكت ايمانكم كتاب الله عليهم، واحل لكم ما وراء ذلكم ان تبتغوا باموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن اجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ان الله كان عليما حكيما».

مكانة الآية ومناسبتها لما قبلها

هذه الآية من سورة النساء ومناسبتها لما قبلها لنه ذكر فيها سبحانه بقية ما يحرم من النساء وهن النساء المتزوجات وحل سوى من تقدم.

تفسير المفردات

١- المحصنات واحدتهن محصنة (بفتح الصاد) يقال حصنت المرأة (بضم الصاد) حصنا وحصانة : اذا كانت عفيفة ويقال : احصنت المرأة : اذا تزوجت، لانها تكون في حصن الرجل وحمايته، واحصنها اهلها زوجوها.

٢- ما ملكت ايمانكم : المسببات في الحروب وازواجهن كفار في دار الحرب فينفسخ عند ذلك نكاحهن ويحل الاستمتاع بهن بعد وضع الحامل حملها وحيض غيرها ثم طهرها والاحصان : العفة.

٣- والمسافح : الزاني.

٤- والاستمتاع بالشئ : هو التمتع به.

٥- الاجور : واحدها أجر وهو في الاصل الجزاء الذي يعطى في مقابله شئ ما من عمل او منفعة، والمراد به هنا المهر.

٦- فريضة : اي حصة مفروضة محدودة مقدرة.

٧- ولا جناح : أي لا حرج ولا تضييق.

التفسير

في مطلع هذه الآية يحرم الله عز وجل علينا نكاح المتزوجات الا ما ملكت اليمين بسبب السبي في الحروب. وحكمة هذا انه لما كان الغالب في الحروب ان يقتل الازواج كان من الواجب كفالة هؤلاء السبايا بالانفاق عليهن، ومنعهن من الفسق مصلحة لهن وللمجتمع ان يكون لكل واحدة منهن او اكثر كافل يكفيها البحث عن الرزق او بذل العرض وفي هذا ما لايخفى من الشقاء على النساء. فقوله تعالى : «الا ما ملكت أيمانكم» استثناء من المحصنات على رأي الجمهور اي الا ما سبيتم. وقد روى مسلم من حديث ابي سعيد الخدري (رضي الله عنه) انه كان سبب نزول هذه الآية تحرج الصحابة من الاستمتاع بسبايا (اوطاس) واخرج الحديث ايضا احمد واصحاب السنن وفي هذه الروايات التصريح باشتراط الاستبراء بوضع الحامل لحملها، وحيض غيرها ثم طهرها. وقد صرح بعض العلماء كالحنفية وبعض الحنابلة بأن من سبي معها زوجها لا تحل غيره فاعتبروا في الحل اختلاف الدار دار الحرب ودار السلام.

وروى عن بعض الصحابة ومنهم ابن مسعود ان السبي يبطل نكاحها فتطلقِ على زوجها وتحل لمالكها الجديد عملا بعموم الآية وهذا ما عليه

جمهور الامامية[1].

ثم قال تعالى : «كتاب الله عليكم» اي كتب الله عليكم تحريم هذه الانواع من النساء اي المحرمات من النساء ومنهن المتزوجات كتابا مؤكدا اي فرضه فرضا ثابتا لان مصلحتكم ايها المسلمون فيه ثابتة لا تتغير.

«واحل لكم ما وراء ذلكم» : والمعنى احل الله لكم ما وراء ما حرمه عليكم مما هو خارج عن مدلول اللفظ ولا تناوله بنص او دلالة، فيدخل بطريق الدلالة في الامهات الجدات، وفي البنات بنات الاولاد وفي الجمع بين الاختين الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها خلافا للشيعة الامامية حيث لم يحرموا نكاح المرأة على عمتها او خالتها ودليلهم : ان الله ذكر المحرمات تفصيلا ولم يذكر منها ذلك ثم اتى باباحة عامة لما وراء ما ذكر فدخل في هذه الاباحة زواج المرأة على عمتها او خالتها.

اما أهل السنة فقد حرموا ذلك بما ثبت في السنة الصحيحة، فقد روى مسلم وغيره عن ابي هريرة (رضي الله عنه) ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : (لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها) وما ثبت بالسنة كما ثبت بالكتاب.[2]

كذلك يؤخذ بعض المحرمات من آيات اخرى كتحريم المشركات والمطلقة ثلاثا على مطلقها «ان تبتغوا باموالكم محصنين غير مسافحين» :

---

(١) انظر تفسير المنار ٥/٤-٥.

(١) انظر المجتمع الاسلامي كما تنظمه سورة النساء ص ٣٢٤-٣٢٥. والمحلي لابن حزم ٩/٥٢٤.

أي احل لكم ما وراء ذلكم لاجل ان تطلبوه باموالكم التي تدفعونها مهرا للزوجة.

محصنين انفسكم، وما نعين لها من الاستمتاع بالمجرم باستغناء كل منكما بالآخر، اذ الفطرة تدعو الرجل الى التزوج بالانثى لان ذلك اساس قيام كل مجتمع وفي جو هذا الاجتماع التعاوني يستطيع كل فرد ان يحصل على ما يحتاج اليه من طعام وشراب وكسوة ومسكن وأمن واطمئنان. «فما استمتعتم به منهن فآتوهن اجورهن فريضة» فأي امرأة من النساء اللواتي احللن لكم تزوجتموها فاعطوها الاجر وهو المهر بعد ان تفرضوه في مقابلة ذلك الاستمتاع وذلك بتعيينه في عقد النكاح.

وقد خالف هذا المعنى الشيعة فقالوا في تفسير هذه الآية : ان فيها دليلا على حل نكاح المتعة وهو النكاح الى اجل مؤقت(١).

والحقيقة ان الخلاف وقع بين الصحابة انفسهم وقد اشتهر عمر بن الخطاب في نهر الناس عن المتعة في خلافته فانتهوا فتمسك السنة بذلك وقالوا :اجماع من الصحابة على قبول هذا النهي من عمر، ولو عرفوا انها مباحة لما وافقوه على تحريمها.

وتمسك به الشيعة فقالوا : ان عمر قال : كما في الرواية المشهورة عنه : متعتان كانتا على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) - انا انهى عنهما واعاقب عليهما متعة الحج ومتعة النساء، قالوا فاضاف النهي الى

---

(١) انظر فقه الامام جعفر الصادق ٥/٢٤٧.

نفسه لضرب من الرأي، فلو كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نهى عنهما او اباحهما في وقت مخصوص دون غيره لاضاف عمر التحريم الى رسول الله دون نفسه[1].

والخلاصة ان هناك قدرا متفقا عليه بين علماء المسلمين هو ان العمل بالمتعة كان مباحا وعمله بعض الصحابة على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ولكن الخلاف الذي بقي هو : هل نسخ الحكم على عهد الرسول او لم ينسخ ؟

«ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة» : أي ولا تضييق عليكم اذا تراضيتم على المهر سواء أكان ناقصا بعد تقريره او الزيادة فيه اذ ليس الغرض من الزوجية الا ان يعيش الزوجان في عيشة راضية يستظلان فيها بظلال المودة والرحمة كما امر الله لانه سبحانه يحقق بتشريعه لكل من الزوجين الحياة المنزلية السعيدة وينالان فيها كل ما تتوق اليه النفس البشرية من آمال وما تتطلع اليه من ذرية تحوطها بالعطف والحب والحنان.

«ان الله كان عليما حكيما» : بما يصلح لعباده من الشرائع التي فيها سعادتهم ما تمسكوا بها ومن ذلك فرحته للزواج الذي يحفظ الاموال والانساب.

---

(١) انظر مجمع البيان للطبرسي ٣/٣٢.

اهم ما اشتملت عليه الآية من احكام

اولا - حرمة زواج المحصنات اي المتزوجات.

ثانيا - حرمة الجمع بين المرأة وعمتها او خالتها.

ثالثا - حرمة نكاح المتعة الذي كان مرخصا فيه في بدء الاسلام حيث اباحه النبي في بعض الغزوات[1] لبعدهم عن نسائهم فرخص فيه مرة أو مرتين خوفا من الزنى فهو من قبيل ارتكاب اخف الضررين ثم نهى عنه نهيا مؤبدا، فقد روى مسلم في صحيحه من طرق عدة ان النبي (صلى الله عليه وسلم) نهى عن نكاح المتعة[2].

رابعا - وجوبُ المهر على الازواج بدليل قوله تعالى: «فآتوهن اجورهن» ومثله قوله تعالى «وآتوا النساء صدقاتهن نحلة» فلفظ الفعل آتوا امر والامر يدل على الوجوب ان لم يصرفه صارف وقد ثبت في السنة النبوية ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يترك المهر في اي زواج له حتى انه منع علي بن ابي طالب من الدخول على زوجته السيدة فاطمة بنته (صلى الله عليه وسلم) حتى يعطيها شيئاً من المهر.

---

(١) انظر نكاح المتعة حرام في الاسلام للشيخ محمد الحامد ص ٢٩.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٠-٣٣.

المبحث الثالث

في تحريم ارث النساء وعضلهن

من سورة النساء الآية ١٩

قال الله تعالى : «يا أيها آمنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا ان يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا».

مكانة هذه الآية ومناسبتها لما قبلها

بعد ان نهى سبحانه فيما تقدم عن عادات الجاهلية في امر اليتامى واموالهم اعقبه بالنهي عن الاستنان بسنتهم في النساء واموالهن، وقد كانوا ينقصون النساء ويعدونهن من قبيل المتاع حتى كان الاقربون يرثون زوجة من يموت منهم كما يرثون ماله. فقد روى البخاري وابو داود في سبب النزول ان العرب قبل الاسلام كانوا اذا مات الرجل منهم جاء ابنه من غيرها او وليه فورث امرأته كما يرث ماله والقي عليها ثوبا فان شاء تزوجها بالصداق الاول، وان شاء زوجها غيره واخذ صداقها وان شاء لم يزوجها فهم أحق بها من اهلها فانزل الله الآية التي تحرم عليهم ذلك.

١-العضل : التضييق والشدة، ومنه، الداء العضال الشديد الذي لا نجاة منه.

٢-الفاحشة : الفعلة الشنيعة الشديدة القبح.

٣-مبينة : الظاهرة الفاضحة.

٤-المعروف : ما تألفه الطباع ولا يستنكره الشرع والعرف ولا المروءة.

التفسير

لقد كان من عادة العرب في الجاهلية ارث النساء، فالرجل اذا مات كان اولياؤه احق بامرأته ان شاء بعضهم تزوجها، وان شاءوا زوجوها، وان شاءوا لم يزوجوها، فهم احق بها من اهلها، كان الرجل اذا مات جاء وارثه فالقى على امرأته ثوبه فمنعها من الناس، فان كانت جميلة تزوجها، وان كانت دميمة حبسها عن الزواج حتى تموت فيرثها، ومن ذلك ما حدث لكبيشة بنت معن بن عاصم من الاوس حيث كانت زوجة لابي قبيس بن الاسلت فتوفى عنها فجنح عليها (ضيق) ابنه على عادة العرب في ميراث النساء فجاءت الى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالت : يا رسول الله : لا انا ورثت زوجي ولا انا تركت فانكح ؟ فنزلت الآية[1].

وقد كل اهل يثرب في الجاهلية على هذه العادة هكذا كانت المرأة العربية في البيئة العربية الجاهلية فانقذها الله تعالى في الاسلام وكرمها.

---

(١) انظر تفسير المراغي ٢١٣/٤.

واعتقها من هذا الاستعباد، فجعل لها الحق في نفسها وفي مالها واعطاها نصيبا من ميراث زوجها فكان ذلك انقلابا عظيما في تاريخ حقوق النساء، فقوله تعالى : «ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن» يحرم ارث النساء ويحرم التضييق عليهم ومضارتهن لكي يضطروا الى افتداء انفسهن بالمال من ميراث او صداق ونحو ذلك فحرم الله ذلك ونهى المسلمين عن عضل النساء. «الا ان يأتين بفاحشة مبينة» : اي لا تعضلوهن في اي حال من الاحوال التي يأتين فيها بالفاحشة المبينة دون الظنة والشبهة، فاذا نشزن عن طاعتكم وساءت عشرتهن ولم ينفع معهن التأديب او تبين ارتكابهن للفاحشة او السرقة او نحو ذلك من الامور الممقوتة عند الناس فلكم حينئذ ان تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن من صداق وغيره من المال لان الفحش قد اتى من جانبها وانما اشترط في الفاحشة ان تكون مبينة ظاهرة ليقطع سبحانه سوء الظن والتهمة من قبل الرجال.

ثم بينت الآية بعد ذلك وجوب معاملة الزوجة بالحسنى سواء احبها الزوج ام كرهها فقالت : «وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيرا كثيرا». فمعاشرة النساء بالمعروف ليست مبنية على عاطفة الحب والكره لانها ليست هي الامارة على المستقبل السعيد او الشقي من اجل ذلك وضع الرسول عليه الصلاة والسلام للمسلمين في معاملتهم لزوجاتهم مثلا اعلى اساسه احترام الزوجة واكرامها فقال : «اكمل المسلمين ايمانا احسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم».

كما ترك نموذجا كريما لمعاملة الزوجة فقد كان اذا دخل المنزل كثيرا

ما يشترك في الاعمال المنزلية، ولقد سئلت عائشة (رضي الله عنها)، ما كان النبي يصنع في أهله ؟ قالت : كان في مهنة اهله، فاذا حضرت الصلاة قام الى الصلاة. وكان يعرف للزوجة حقها في اللهو البرئ. قالت عائشة (رضي الله عنها) : رأيت النبي يسترني بردائه وانا انظر الى الحبشة يلعبون في المسجد حتى اكون انا الذي اسأم فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو.

فان كرهتموهن لعيب في اخلاقهن او دمامة في خلقهن مما ليس لهن فيه كسب، او لتقصير في العمل الواجب عليهن كخدمة البيت والقيام بشؤونه فاصبروا ولا تعجلوا بمضارتهن ولا بمفارقتهن فربما كرهت النفس ما هو أصلح في الدين واوفى الى الخير ومن ذلك انجاب الاولاد الصالحين، فكثير مما يكرهه الانسان يكون له فيه الخير ومتى جاء ذلك الخير ظهرت فائدة ذلك الشئ المكروه كما قال تعالى : «وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم».

اهم ما تقرره هذه الآية من احكام

تتلخص الاحكام التي قررتها هذه الآية فيما يأتي :

اولا - ابطال عادة ارث النساء، فقد عنيت هذه الآية بحماية المرأة من ان تتعرض بعد موت زوجها الى ظلم ذوي قرباه بان تورث كما يورث المتاع طمعا فيها لجمالها او في فداء تقدمه.

ثانيا -اوجبت على الرجل ان يعاشر زوجته بالمعروف والصبر عليها اذا كرهها فان كان فيها ضعف تصرف او دمامة شكل فربما يجد فيها

خلقاً حميداً وسلوكاً عفيفاً او يكون فيها خير تقربه عينه من الاولاد الصالحين النجباء، ولهذا نجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوجه الازواج الى ذلك فيقول : (لا يغرك مؤمن مؤمنة ان كره منها خلقاً رضى منها خلقا آخر)[1].

وبهذا يلتئم الشمل وتدوم العشرة ويحفظ المجتمع المسلم من الضعف والانهيار.

المبحث الرابع

في رعاية اليتيم

من سورة النساء الآية ٢

قال تعالى : «وآتوا اليتامى اموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا اموالهم الى أموالكم انه كان حوبا كبيرا».

مكانة هذه الآية ومناسبتها لما قبلها

هذه الآية هي الثانية من سورة النساء التي تضمنت كثيرا مما يتعلق بتنظيم المسلمين في داخل بلادهم وفي بيان علاقتهم الاجتماعية بعضهم مع بعض، فبعد ان بدأت السورة بتقرير المبدأ الاول الذي يجب ان تقوم عليه المجتمعات ايا كانت وهو ان الناس جميعا متساوون في الخلق من نفس واحدة خلقها الله تعالى وخلق زوجها وبث منها رجالا ونساء لا فرق بينهم في هذه النسبة وان اختلفت الوانهم واقطارهم، اخذت هذه الآية تتحدث عن عنصر من العناصر المكونة لبناء المجتمع وبدأت في ذلك باضعف هذه العناصر واحوجها الى العناية والرعاية والتقوية وهم اليتامى.

تفسير المفردات

١- اليتيم لغة : من مات ابوه مطلقا، لكن العرف خصصه بمن لم يبلغ مبلغ الرجال.

٢- ولا تتبدلوا : أي لا تستبدلوا.

٣- الخبيث : هو الحرام.

٤- والطيب : هو الحلال.

٥- حويا كبيرا : اثما عظيما.

التفسير

يخاطب الله سبحانه الاولياء والاوصياء ويوصيهم بحفظ اموال اليتامى ورعايتها حتى يبلغ رشده ويكتمل عقله ويتم نضجه ويستطيع مقارعة حوادث الزمان، ولهذا رفع الشارع الحكيم منزلة القائم بتربية اليتيم وارشاده وتوجيهه وجهة الخير في دينه ودنياه وراعى حق الله في ماله في غير طمع ولا جشع ولا اغتصاب ولا اختلاس بل سلك سبيل التعفف والقناعة والزهد والورع والتقى حذرا من وعيد الله، حيث يقول : «ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا».

لذلك ينبغي على الاولياء والاوصياء ان يسلموها لليتامى متى آنسوا منهم الرشد فاليتيم ضعيف لا يقدر على حفظ ماله والدفاع عنه.

«ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب» اي لا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم الذي اكتسبتموه من فضل الله.

«ولا تأكلوا اموالهم الى اموالكم انه كان حويا كبيرا».

والمراد من الاكل هنا سائر التصرفات التي من شأنها ان تهلك اموال اليتيم.

والى هنا بمعنى مع اي لا تأكلوا اموالهم مخلوطة ومضمومة الى

اموالكم حتى لا تفرقوا بينها لان في ذلك مبالاة بما لا يحل وتسوية بين الحلال والحرام.

«انه كان حوبا كبيرا» اي ان هذا الاكل ذنب عظيم واثم كبير فعلى الاوصياء ان تتيقظ ضمائرهم وتدق مراقبتهم لله فيحرصوا على اموال اليتامى ولا يتصرفوا فيها الا بما فيه الخير حتى ينالوا المنزلة التي بشرهم بها نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) بقوله : (انا وكافل اليتيم في الجنة هكذا واشار باصبعيه السبابة والوسطى)[١].

وعن عوف بن مالك ان النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (انا وسفعاء[٢] الخدين كهاتين يوم القيامة) (إمرأة ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى ماتوا او باتوا)[٣]. واي سبيل افضل عبد الله من كفالة الايتام والارامل ورعايتهم والانفاق عليهم وحماية اموالهم واي سبيل اكرم عند الله من مواساة ابناء الشهداء وارامل البواسل المضحين الذين تقدموا للقتال وضحوا بدمائهم وارواحهم طيبة بها نفوسهم غير ناظرين الى متع الدنيا وملذاتها ولم يكن هدفهم الا الدفاع عن الاوطان واعلاء كلمة الحق والقضاء على الظلم والطغيان مبتغين في ذلك كله وجه الله تعالى ورضاه.

فكل ولي او وصي يتقي الله ويخلص النية في تربية اليتيم وتنمية

---

(١) رواه البخاري.

(٢) التي شحب لونها من قيامها على خدمة ولدها.

(٣) رواه ابو داود.

امواله ينال رضوان الله ومحبة رسوله وعزة امته التي تعزهم بعزها وتقويهم بقوتها.

ما تقرره الآية من احكام

أولا- ترشد الآية الى وجوب اتصاف الولي والوصي بالنوايا الصالحة في جميع شؤون اليتيم ومن هذه النوايا الاخلاص له في رعاية امواله ومصالحه وحفظها مطلقا من اي اغتيال او اهلاك قبل ان يبلغوا سن الرشد.

ثانيا- وجوب رعاية اليتيم وحماية امواله لأنه ضعيف، واكل ماله ظلم عظيم فقد روى عن مقاتل بن حيان ان رجلاً من غطفان يقال له مرثر ابن زيد ولي مال ابن اخيه وهو يتيم صغير فاكله فانزل الله[1] «ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا»[2].

فينبغي على الولي او الوصي ان يعامل اليتيم الذي في ولايته بمثل ما يعامل به نفسه وماله وولده ويتقي الله من اموره جميعها وله من ذلك عند الله اجر عظيم ومقام كريم.

---

(١) سورة النساء، الآية / ١٠.

(٢) تفسير القرطبي ٥/٥٥٣.

المبحث الخامس

في المحافظة على شعائر الله وعدم أحلالها

من سورة المائدة الآية ٢

قال الله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا واذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنآن قوم ان صدوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب».

مكانة هذه الآية ومناسبتها لما قبلها

هذه هي الآية الثانية من سورة المائدة وقد اشتملت هذه السورة على ستة عشر نداء موجها الى المؤمنين خاصة يعتبر كل نداء منها قانونا ينظم الحياة عند المسلمين فيما يختص بانفسهم وفيما يختص بعلاقتهم بغيرهم من الامم فبعد النداء الاول الذي يطلب من الذين آمنوا الوفاء بالعقود اعقبه بالنداء الثاني الذي يطلب فيه المحافظة على شعائر الله وعدم احلالها كما نصت عليه هذه الآية. وسبب نزول هذه الآية ما ورد عن ابن عباس ان المشركين كانوا يحجون البيت، ويهدون الهدايا ويعظمون الشعائر وينحرون فاراد المسلمون ان يغيروا عليهم فنزلت الآية «يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله»[1].

---

(١) تفسير الطبري ٩/٤٦٣.

تفسير المفردات

١- شعائر الله : معالم دينه وغلب في مناسك الحج واحدها شعيرة.

٢- الهدى : ما يهدى الى الكعبة من الانعام ليذبح هناك وهو من النسك.

٣- القلائد : واحدها قلادة وهو ما يعلق وكانوا يقلدون الابل من الهدى بنعل او حبل او لحاء شجر ليعرف فلا يتعرض له احد.

٤- آمين : قاصدين.

٥- فضلا : ربحا في التجارة.

٦-رضوانا : رضا من الله يحول بينهم وبين عقوبته في الدنيا.

٧- يجر منكم : من جرمه الشئ اي حمله عليه وجعله يجرمه اي يكسبه او يفعله واصل الجرم قطع الثمرة من الشجرة.

٨-الشنآن : البغض مطلقا.

التفسير

بعد ان اوجب الله تعالى في الآية الاولى الوفاء بكل عقد عقده المؤمن وارتبط به من قول او فعل ما لم يحرم حلالا او يحلل حراما كالعقد على اكل شئ من اموال الناس بالباطل كالربا والميسر والرشوة شرع بتفصيل الاحكام التي امر بالايفاء بها والمحافظة عليها وعدم احلالها فقال : «يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله» أي لا تجعلوا شعائر دين الله حلالا لكم تتصرفون بها كما تشاؤون بل اعملوا بما بينه لكم ولا تتهاونوا بحرمتها وتحولوا بينها وبين المتنسكين بها وتصدوا الناس عن الحج في اشهر الحج.

«ولا الشهر الحرام» والمراد به هنا ذو القعدة وذو الحجة والمحرم اي ولا تحلوا الشهر الحرام بان تقاتلوا فيه اعداءكم من المشركين كما روى عن ابن عباس وقتادة.

«ولا الهدى» اي ولا تحلوا الهدى الذي يهدى الى البيت الحرام من الانعام للتوسعة على من هناك من عاكف وباد تقربا الى الله، وذلك بأن تمنعوا بلوغه محله من بيت الله باخذه غصبا أو ذبحه او سرقته او حبسه عند من اخذه.

«ولا القلائد» اي ولا تحلوا ذوات القلائد من الهدى وهي البدن وخص المقلد بالذكر لانه اكرم الهدى واشرفه.

«ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا» اي ولا تحلوا قتال قاصدي البيت الحرام لزيارته فتصدوهم عن ذلك بأي وجه من الوجوه او الذين يطلبون ربحا في التجارة ورضا من الله يحول بينهم وبين عقوبته في الدنيا وهذا كلام مع المشركين الذين كانوا يلتمسون فضل الله ورضوانه مما يصلح لهم دنياهم.

«واذا حللتم فاصطادوا» واذا خرجتم من احرامكم بالحج او العمرة او من ارض الحرام فاصطادوا ان شئتم، فانما حرم عليكم الصيد في ارض الحرم وفي حال الاحرام فقط.

«ولا يجرمنكم شنآن قوم ان صدوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا» اي ولا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم على ان تعتدوا عليهم لانهم صدوكم عن المسجد الحرام، وقد كان المشركون صدوا المؤمنين عن العمرة عام .

الحديبية فنهى المؤمنون ان يعتدوا عليهم عام حجة الوداع وهو العام الذي نزلت فيه هذه السورة لاجل اعتدائهم السابق، ولما كان اعتداء قوم على قوم لا يحصل غالبا الا بالتعاون، قفى على النهي عن الاعتداء بقوله : «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان» لان التعاون من أهم دعائم العقيدة الاسلامية وانه اساس من اسس ديننا، فينبغي علينا بحكم ايماننا ان نكون متخلقين به وسائرين على نهجه في حياتنا، فالآية الكريمة تأمرنا بالتعاون على التوسع في فعل الخير وعلى تجنب كل ما يضر في الدين والدنيا فلا تعاون على سيئة من السيئات ولاعلى لون من الوان الظلم.

وان هذا النص القرآني ليعد شعارا كريما للمجتمع التعاوني الفاضل الذي يتصل باعظم معين واكرم مستعان، وقد اوضح النبي هذا المنهاج التعاوني بين المسلمين فقال : (المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة اخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كروب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة)[1] فكل مسلم اذا شارك بجهوده في تحقيق التعاون بتهيئة فرص الانتفاع للمحتاج الى المساعدة فقد وعده ربه ان يتكفل له بحاجته ومطالبه وهو تحريض رائع على التعاون وتكريم للذين يعاونون الناس وقد اخبرنا النبي ان من شأن امته ان يكونوا على اكمل صورة من صور التعاون والاتحاد والتآلف حتى كأنهم جسد واحد فقال : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ثم شبك بين اصابعه»[2].

---

(١) اخرجه البخاري ومسلم وابو داود.

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

وقال ايضا : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[1].

وهذا ما كان عليه المسلمون في الصدر الاول من التعاون على البر واتقاء كل ما يضر المسلم في دينه من كل ذنب ومعصية والبعد عن تجاوز حدود الشرع والعرف في المعاملة والخروج عن الحق والعدل.

«واتقوا الله ان الله شديد العقاب» فاتقوا الله ايها المسلمون وانهجوا نهج اسلافكم وسيروا سير الصالحين من أمتكم وتمسكوا بما بينه الله لكم في كتابه حتى لا يصيبكم عقابه بالاعراض عن هدايته فهو شديد العقاب لمن لم يتبع شرعه ويراعي سننه في خلقه فهو سبحانه لم يأمر بشئ الا اذا كان نافعا ولم ينه عن شئ الا اذا كان ضارا لذلك جاء عقابه شاملا لعذاب الدنيا والآخرة كما صرحت بذلك بعض الآيات وفي بعضها الآخر التصريح بعذاب الدنيا كما قال الله تعالى «وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ان اخذه اليم شديد»[2].

ما تقرره الآية من احكام

يمكن ان نجمل الاحكام التي اشتملت عليها هذه الآية بما يلي :

اولا - المحافظة على شعائر الله في الحج وعدم احلال محظورات الاحرام.

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

(٢) رواه مسلم.

(٣) سورة هود / ١٠٢.

ثانيا – تحريم الاعتداء على قوم بسبب بغضهم وعداوتهم لانه يجب على المؤمنين ان يلتزموا جانب الحق والعدل.

ثالثا – وجوب التعاون على البر والتقوى على اختلاف وسائله وسبله في كل زمان ومكان وتحريم التعاون على الاثم والعدوان.

المبحث السادس

في ولاية المؤمنين بعضهم لبعض

من سورة التوبة الآيات ٧١ - ٧٢

قال الله تعالى «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم، وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله اكبر ذلك هو الفوز العظيم».

مكانة هاتين الآيتين ومناسبتها لما قبلها

هاتان الآيتان من سورة براءة فبعد ان بين عز اسمه افعال المنافقين الخبيثة وما اعده لهم من العذاب في الدنيا والآخرة في الآيات التي سبقت هاتين الآيتين قفى على ذلك بذكر صفات المؤمنين وبيان ولائهم بعد ان زكت نفوسهم وطهرت سرائرهم ثم بين فيهما ما اعده لهم من الثواب الجزيل والنعيم المقيم.

التفسير

لقد جاء الاسلام والناس اجناس متفرقون متعادون في الانساب والالوان والاوطان والاديان فناداهم بالوحدة الانسانية والمساواة البشرية، فقال عز وجل : «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان اكرمكم عند الله اتقاكم»(١).

---

(١) سورة الحجرات، آية / ١٣.

في هاتين الآيتين يصف الله عز وجل المؤمنين بانهم اخوة يوالي بعضهم بعضا في الله لان الموالاة في الله تزيد وحدة المسلمين توكيدا وتنتج اطيب الثمرات فقد كان من نتيجتها في صدر الاسلام ذلكم الايثار الذي أغدقه الانصار على المهاجرين حتى آثروهم على انفسهم وشاركوهم في اموالهم وديارهم وثمار نخيلهم.

ومن صفات المؤمنين ايضا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهم متكافلون مأمورون بالنهوض بالدعوة الى الخير والنهي عن الشر فهم كالاسرة الواحدة، اذا أفسد فرد فيها اساء اليها كلها وتقويم هذا الفاسد اصلا للاسرة جميعها.

ومن صفاتهم ايضا انهم يؤدون الصلاة على اقوم وجه واكمله بخشوع واخبات لله مع خضوع القلب في الدعاء، ومن صفاتهم كذلك انهم يعطون الزكاة المفروضة عليهم ويستمرون على طاعة الله في السراء والضراء بترك ما نهوا عنه وفعل ما امروا به بقدر الطاقة ثم عقب سبحانه بما يكون لهم من حسن العاقبة وعظيم الجزاء على جميل اعمالهم فقال : «اولئك سيرحمهم الله» برحمته الواسعة في الدنيا والآخرة، باستمرارهم على طاعته وطاعة رسوله ان الله عزيز لا يمتنع عليه شئ من وعده ولا وعيده حكيم لا يضع شيئا في غير موضعه.

وبعد ان بين سبحانه صفات المؤمنين واجمل رحمته اجمالا شرع يفصل ما وعد به المؤمنين من الجزاء المفسر لرحمته فقال : «وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن

طيبة في جنات عدن» فمساكنهم البساتين الملتفة الاشجار التي تجن ما تحتها تجري من تحت اشجارها الانهار مما يزيدها جمالا وبهجة فيطيب لساكنها المقام لاحتوائها على ما يطلبون من الاثاث والرياش والزينة التي بها تتم راحة المقيم وسروره، كذلك يلقون فيها نعيما اكبر من هذا النعيم وهو رضوان الله الذي هو مقام رؤيته تعالى ففي الجنات ومساكنها اعلى النعيم الجسماني ورضوان الله هو اعلى النعيم الروحاني. «ذلك هو الفوز العظيم» فهذا الوعد بالنعيمين الجسماني والروحاني هو الفوز العظيم الذي يجزى به المؤمنون المخلصون. يقول الفخر الرازي في المقارنة بين صفات المؤمنين وصفات المنافقين : ((لما وصف الله تعالى المؤمنين بكون بعضهم اولياء بعض ذكر بعده خمسة امور بها يتميز المؤمن عن المنافق فالمنافق يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف ولا يقوم الى الصلاة الا بكسل ويبخل بالزكاة وسائر الواجبات واذا امر بالمسارعة الى الجهاد فانه يتخلف ويثبط غيره والمؤمن بالضد منه فانه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويؤدي الصلاة على الوجه الاكمل ويؤتي الزكاة ويسارع الى طاعة الله ورسوله ولهذا قابل تعالى بين صفات المؤمنين وصفات المنافقين بقوله : «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويوتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله» كما قابل من الجزاء بين نار جهنم والجنة فكانت مقابلة لطيفة انظر تفسير الرازي ١٦/١٣٠.



الفصل الرابع

تفسير آيات في الظواهر الكونية

ويشتمل على تمهيد وستة مباحث

المبحث الاول : في بناء السماء من سورة ق الآية / ٦

المبحث الثاني : في كيفية نشوء الارض من سورة الانبياء الآية / ٣٠.

المبحث الثالث : في حركة الشمس من سورة يس الآيات ٣٨ - ٤٠

المبحث الرابع : في الرياح لواقح النبات من سورة الحجر الآية / ٢٢

المبحث الخامس : كل ما في السموات والارض مسبح لله من سورة الاسراء الآية ٤٤

المبحث السادس : في كيفية خلق الانسان من سورة الطارق الآيات / ٥-٧



تمهيد

اري قبل البدء بتفسير آيات هذا الفصل ان اوضح ان الله عز وجل ما عرض في كتابه العزيز ادلة الخلق الا من اجل الايمان به سبحانه لانه لم يفرض على الناس الايمان به فرضا، وانما دعاهم الى التفكير العلمي واستعمال عقولهم للنظر في ظواهر الطبيعة التي توحي الى العقول بأنها لا تتصف بالاكتفاء الذاتي، وانما تستمد وجودها من موجد اعلى واسمى هو الله سبحانه وتعالى وقد اشار الله عز وجل الى هذه الحقيقة منبها بذلك الغافلين الضالين الى ما يستر عنهم هذه الحقيقة الناصعة قائلا : «وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون»[1] ومن يستقرئ آيات ظواهر الطبيعة يجدها على انحاء شتى اوسعها دائرة واقواها دلالة هي الآيات التي تعرض علينا الظواهر الكونية وتبين لنا ما فيها من آيات القدرة العظيمة ودلائل العلم الواسع مع التوجيه الحكيم الى غايات محدودة واهداف مقصودة لكي يتعرفوا منها بالتعقل والتبصر في غير عناء على خالق الكون وما يحتويه جل وعلا وعلى كمال صفاته وافعاله اذ الصنعة دليل لا شك فيه على قدرة الصانع وصفاته ولكي يؤمنوا بعد التعرف عليه بصدق وعده ووعيده وهذا هو الغرض المقصود من عرض هذه الآيات في الظواهر الكونية، وتبدأ من ذلك بخلق السماء.

---

(١) سورة يوسف، الآية / ١٠٥.

المبحث الاول

في بناء السماء

من سورة ق الآية ٦

قال تعالى : «افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وما لها من فروج».

مكانة الآية ومناسبتها لما قبلها

بعد ان ذكر الله استبعاد المشركين البعث في الآيات السابقة فقالوا ارجع بعيد ؟ اردف سبحانه الدليل الذي يدحض كلامهم واشار في هذه الآية مستفهما عمن خلق السماء وزينها بالكواكب.

تفسير المفردات

١-بنيناها : اي احكمنا بناءها، فجعلناها بغير عمد.

٢- زيناها : أي بالكواكب.

٣- فروج : اي شقوق.

التفسير

افلم ينظر هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت والمشركون بالله والمنكرون قدرته على احيائهم بعد البلى الى السماء فوقهم كيف رفعناها بلا عمد وزيناها بالكواكب واحكمنا بناءها فلو نظر الملحدون في كل زمان ومكان الى السماء في بنائها نظر تفكر واعتبار لما وجدوا لها من فتوق فهي

ملساء متلاصقة الطباق، وهذا هو الرأي الحديث في عالم السموات. اذ يقول العلماء ان هناك عالما لطيفا ارق من الهواء والطف من كل ما نراه هو العالم المسمى بالاثير وهذا العالم وان لم يره الناس فقد عرفوه من وصول اضواء الكواكب الينا فان من الكواكب ما لا يصل ضوءه الينا الا فيما يزيد على الف سنة ونور الشمس ((التي تبعد عنا بمقدار سير القطار اليها لو امكن في نحو خمس وستين وثلاثمائة سنة)) يصل الينا في ثماني دقائق وثماني عشرة ثانية.

فانظر كيف يكون بعد تلك الكواكب التي تحتاج الى مليون سنة ونصف مليون الا يدل هذا على ان ذلك الضوء محمول على شئ موجود وهو الاثير(١).

ان التقدم العلمي الذي احرزه العلم الفزيقي وظهور الكشوف العلمية الحديثة في الفلك قد مكنت العلماء من فهم السموات السبع والاراضي السبع فقد اثبت العلم ان الشمس والقمر والنجوم والمذنبات والنيازك والشهب والسدم انما هي سموات فوق سموات تتألف منها عوالم الكون ويقول العلامة : ارثر فندلاوي في كتابه على حافة العالم الاثيري : ((ان العلم اثبت ان السموات السبع هي أفضية مناسبة يتبعثر خلالها ويرتد ضوء الشموس السبع الاثيرية التي تحيط بالشمس من كل جانب واكد ان الاراضي السبع هي كرات اثيرية تحيط بالكرة الارضية وتتخللها))(٢).

---

(١) انظر تفسير المراغي حـ٢٦ ص ١٥٤.

(٢) الله والعلم الحديث للسيد عبد الرزاق نوفل ص ١٧٧. الطبعة الاولى.

فخلق السموات وبناءها على هذا الشكل وجود ضخم دقيق وظاهرة رائعة لا تجد النفس مفرا من التأثر بها وتقديرها وعزوها الى الله الذي لاحد لقدرته وحكمته. قال العلامة سينكا : ((لا يستطيع الانسان ان يرفع بصره نحو السموات العلى الا ويغضه اجلالا اذ يرى ملايين من النجوم الزاهرة الساطعة ويراقب سيرها في افلاكها وتنقلها في ابراجها وكل نجم واي كوكب وكل سديم واي سيار انما هو دنيا قائمة بذاتها اكبر من الارض وما فيها وما عليها وما حولها))(١).

ويقول تعالى في آية اخرى عن بناء السماء : «والسماء بنيناها بايد وانا لموسعون»(٢) وفي اللغة لفظ موسعون اما مشتق من اوسع اللازم بمعنى جعل الشئ واسعاً واما من اوسع المتعدية بمعنى التوسيع والزيادة في الشئ فبناء على ذلك يكون معنى قوله : «وانا لموسعون» انه تعالى بنى السماء وجعلها واسعة او أنه بناها وانه يوسع ويزيد في سعتها. والمعنى الثاني هو ما اثبته العلم الحديث فقد جاء ان السماء تتسع وتتمدد من كل جهاتها الى غير حد وان سرعة اتساع السماء وتمددها يزداد باستمرار. وقد توصل العلماء الى قول يقرر :

ان الكون يتضاعف نصف قطره كل (١٨٠٠) مليون سنة ويقول العالم بليفن ان الكون ارحب واعظم مما كنا نتخيله وان الاجزاء النائية من الكون تندفع في الفضاء بعيداً بسرعة مخيفة وهذا اما اشار الى هذه

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٤.

(٢) سورة الذاريات، الآية / ٤٧.

الحقيقة العلمية التي اقتضتها حكمة الباري عز وجل في ان تكون السموات في اتساع بصفة مستمرة[1]

---

(1) انظر كتاب مع الملائكة لفضيلة الشيخ عبد المنصف محمود ص١٤.

المبحث الثاني
في كيفية نشوء الارض
من سورة الانبياء الآية ٣٠

قال تعالى : «او لم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حي افلا يؤمنون».

مكانة هذه الآية ومناسبتها لما قبلها

بعد ان حكى الله مقال المشركين الذين كانوا يعبدون آلهة من دون الله ومقال اولئك الذين قالوا اتخذ الله ولدا من الملائكة وطالبهم بالدليل على صدق ما يدعون وبين لهم لنه لا سبيل الى اثبات ذلك لا من طريق العقل كما هو واضح ولا من طريق النقل قضى على ذلك بتوبيخهم على عدم تدبرهم الآيات المنصوبة في الكون الدالة على خالق هذا الكون ومدبره المهيمن عليه والمصرف لشؤونه الذي لا يستحق التوحيد احدا سواه.

تفسير المفردات

١-الرتق : الضم والالتحام خلقة او صنعة.

٢-الفتق : الفصل بين الشيئين الملتصقين.

التفسير

من الادلة التي تثبت وجود الخالق الواحد القادر ان السموات والارض كانتا مرتوقتين متصلتين ففصلهما وازال اتحادهما. وهذا ما يقوله علماء الفلك حديثا اذ يثبتون ان الارض كانت كرة نارية دائرة حول نفسها

ملايين السنين وفي اثناء سيرها السريع انفصلت منها ارضنا والارضون الاخرى وهي السيارات من خط الاستواء الشمسي فتباعدت عنها وما زالت ارضنا دائرة حول نفسها وحول الشمس على نظام خاص بحكم الجاذبية ثم بردت وصارت صالحة للحياة.

فهذه الآية هي احدى الآيات البينات التي تثبت ان لهذا الكون خالقا عظيما وربانا مدبرا كبيرا، كما انها تثبت ان القرآن الكريم هو كتاب منزل. لا يمكن ان يرقى اليه شك فقد اختلفت الآراء العلمية منذ قديم الازل على كيفية نشوء الارض حتى وصل العلماء اخيرا بعد البحوث المضنية التي قامت بها الدول كافة مجندة جهابذة العلماء وبعد ظهور المراصد والمجاهر الضخمة وبعد قديم ابحاث الجيولوجيا والتحاليل الارضية الى النظرية الصحيحة التي ذكرناها في خلق الارض وقد سميت بنظرية (لابلاس) التي قررت ان الارض والشمس ومختلف الكواكب والاجرام انما كانت سديما (اي جسما واحدا) في الفضاء وبمرور الزمن انفصلت الارض عن هذا السديم.

ومن الادلة التي تؤيد هذه النظرية ما يلي :

أولا - شدة حرارة باطن الارض، اذ ترتفع درجة حرارتها درجة واحدة كلما نزلنا الى باطنها ثلاثة وثلاثين سنتمترا اي بعد ثلاثين كيلو مترا تزيد درجة حرارة باطن الارض عن قشرتها الف درجة مئوية.

ثانيا - ظهور البراكين في انحاء شتى من الكرة الارضية والتي هي عبارة عن ضعف في القشرة الارضية تغلبت عليها الابخرة والغازات

الملتهبة في جوف الارض فشقت لها طريقا منشئة فوهة بركان تقذف منه الحمم الذائبة على ارتفاع شاهق ولمدد طويلة(١).

ومما لا شك فيه ان هذه النظرية تدل اكبر دلالة على صدق نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) والتصديق بأن القرآن وحي ارسله اليه ربه هداية للبشر ورحمة للعالمين.

«وجعلنا من الماء كل شئ حي افلا يؤمنون»

بعد ان لفت سبحانه نظر الكافرين باسلوب التقرير الاستفهامي التوبيخي اللاذع الى التأمل والتدبر في خلق السموات والارض ليكون ذلك دليلا عقليا ووجدانيا الى الايمان بالخالق القادر المبدع لفت نظرهم الى قانون الهي آخر قريب من حواسهم وهم يعايشونه بين ايديهم وتحت انظارهم بل هو جزء من تكوينهم فقال تعالى : «وجعلنا من الماء كل شئ حي» فهذه الآية تدل على ان كل شئ حي صنع من مادة جوهرية هي الماء او ان كل شئ حي اصله الماء، وكلا المدلولين يطابق المعارف العلمية الحديثة تمام المطابقة، والواقع هو ان للحياة اصلاً مائياً، وهم حينما يناقشون امكان وجود حياة في احد الكواكب فانهم يلقون على الفور هذا السؤال : هل يحتوي هذا الكوكب على كمية من الماء فالماء المذكور في الآية القرآنية هو ذلك السائل المعروف الذي ينهمر من رحمة الله وتفيض به المحيطات والبحار والانهار والعيون والذي عرفه العلماء بعد جهد جهيد بانه السائل الذي يتألف كل جزء من جزئياته من ذرة واحدة من الاوكسجين

---

(١) انظر الله والعلم الحديث ص ١٦١-١٦٢.

وذرتين من الهايدروجين.

ومعنى الآية ان الله سبحانه صير كل شئ حي متصلا بالماء ومخالطا له غير منفك عنه وبعبارة اخرى انه لا يحيا بدونه. وقد اكدت العلوم الحديثة هذا التفسير وافاضت في بيان فوائد الماء وطرق استعمالاته. ومن تحاليل الكائنات الحية المختلفة اتضح ان الماء يكون من ٨٠ الى ٩٠ بالمائة من وزنها، فهو اذن عنصر اساسي في الكائن الحي اذ لابد من وجوده ليحيا الكائن. فهو اكثر من ثلاثة ارباعه، وهذا هو التفسير العلمي الذي تفسر به الآية قبل عصر الذرة ويقرر العلم الحديث أن جميع المواد الغذائية اللازمة للاحياء على اختلاف أنواعها ناتجة اصلا من النبات وهذه المواد الغذائية تكونت في النبات من اتحاد كيمياوي حيوي بين الماء وثاني اوكسيد الكاربون. ويقول تعالى في آية اخرى مبيناً ذلك : «ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج»(١).

يتضح من هذا كله ان من اقوى الدلائل على وحدانية الخالق واظهرها ان تكون سنته في الخلق واحدة دون تغيير او تبديل، فقد بين تعالى بهذه الآية ان العالم المادي غير الحي في السموات والارضين قد خلق بنظام واحد : رتق ثم فتق. وان العالم المادي الحي خلق ايضاً بسنة واحدة وهي جعل الماء سبباً في خلق كل شئ حي. وان هذا وذاك يثبتان وحدانية الله ولهذا بدأ تعالى الآية بقوله : «او لم ير الذين كفروا» اي وهل

---

(١) سورة ق الآيات ٩-١١.

يجهل الذين اشركوا بالله مضمون هذه الآية الذي يدل دلالة قاطعة على انه اله واحد لا شريك له، وهو استفهام انكاري ينص عليهم فيه اهمالهم وامتناعهم عن النظر والتبصر في آياته وفيما تدل عليه ثم ختمها بقوله : «افلا يؤمنون» اي ألا يؤمنون بوحدانية الخالق بعد أن أقام الدليل على صدقها بهذه الآية وهو استفهام انكاري ينص عليهم فيه عنادهم من انكار الحق بعد العلم به[1].

---

(١) انظر التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن للاستاذ حنفي احمد ص ٢٢٦-٢٢٧ الطبعة الثانية بدار المعارف بمصر.

المبحث الثالث

في حركة الشمس

من سورة يس الآيات ٣٨-٤٠

قال الله تعالى : «والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون».

مكانة هذه الآيات ومناسبتها لما قبلها

بعد ان استدل سبحانه قبل هذه الآيات على امكان البعث والنشور باحوال الارض وما طرأ عليها من تغير مما هو دليل على قدرة الله الشاملة، اردف ذلك بذكر جريان الشمس والقمر وتسخيرهما للقيام بما هو مقدر لهما حيث يقوم على جريانها نشوء الليل والنهار والفصول الاربعة وغير ذلك.

تفسير المفردات

١- لمستقر لها : أي حول مستقر لها وهو مركز مدارها.

٢- وقدرناه : أي صيرنا مسيره في منازل، والمنازل واحدها منزل وهو المسافة التي يقطعها القمر في يوم وليلة.

٣- عاد : أي صار في اواخر سيزه وقربه من الشمس كالعرجون في رأي العين.

٤- والعرجون : هو العود الذي عليه الشماريخ فاذا اتى عليه الحول تقوس ودق واصفر.

٥- ينبغي لها : اي لايتيسر لها.

٦- ان تدرك القمر : اي تجتمع معه في وقت واحد فتداخله وتطمس نوره.

٧- السباحة : الجري في الماء للسمك ونحوه ثم استعمل في سير الكوكب في الفضاء في مداره الخاص.

التفسير

ان الشمس والقمر يقومان بدور خطير في خدمة عالم الحياة، فالشمس مصدر الحرارة التي تبث الحياة في الكون كما تضيئ الكون باشعتها المنيرة فيتسنى للانسان والحيوان ان يسعى في مناكب الارض طلبا للرزق كما تقدم الدفء والماء العذب للكائنات الحية.

اما القمر ذلكم الكائن العلوي الذي يعمل دائبا كما تعمل الشمس يجري على سنن واحد في كل شهر انه لا يدري ماذا يعمل ولا يقصد اليه ولكن الله هو الذي وضعه في مكانه من نظام الطبيعة ليؤدي مهمته.

فالآية الاولى تؤكد جريان الشمس حول مركز مدارها الثابت الذي تسير حوله بحسب وضعها النجمي، فقد ثبت ان لها حركة رحوية حول هذا المركز تقدر بمائتي ميل في الثانية وهذا الوضع العجيب من تقدير العزيز القاهر لعباده القابض على زمام مخلوقاته العليم باحوالها الذي لا تخفى عليه خافية من امرها.

لقد جمعت هذه الآيات الثلاث علما اعتبر اكتشافه في العصر الحديث نصرا للعلم والعلماء، اذا تقول هذه الآيات ان المجموعة الشمسية

وما حولها تتحرك في الفلك وان الشمس تجري الى بعيد فيه وليس الى قريب اذ لا ينبغي لها ان تلحق القمر بالنزول الى فلكه، وانها تجري لمستقر لها وبهذا يكون القرآن قد سبق هذا العلم بما يزيد على الف عام، ولم يصل العلم الحديث الى ما قرره القرآن من حركة الشمس الا اخيرا واعتبر العلم اكتشاف هذه الحركة حدثا جديدا في كتاب الدنيا(١).

«والقمر قدرناه منازل» أي جعلنا السير للقمر ثمانية وعشرين منزلا ينزل في كل واحد منها كل ليلة ثم يستقر ليلتين او ليلة اذا نقص الشهر فاذا كان في آخر منازله دق وتقوس وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : «حتى عاد كالعرجون القديم».

«لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر» اي لا يصح للشمس ان تدرك القمر في سرعة سيره، لان الشمس تجري مقدار درجة في اليوم والقمر يسير مقدار ١٣ درجة في اليوم، ولان لكل منهما مدارا خاصا لا يجتمع معه الآخر فيه.

«ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون» والليل والنهار يؤديان مهمة كونية لاغنى عنها لعالم الاحياء فالنهار للعمل والليل للراحة والسكون فلا يمكن ان تسبق اية الليل وهي القمر آية النهار وهي الشمس فيحل سلطانه محلها اذ كل منهما يجري بحساب منتظم في نظام الوجود لا يتغير ولا يتبدل. كما ان كلا من الارض والشمس والقمر يسبح في فلكه

---

(١) انظر الله والعلم الحديث ص ١٦٨.

كما يسبح السمك في الماء، فالشمس تجري في مدارها، والارض تجري حول الشمس في سنة وحول نفسها في يوم وليلة والقمر يجري حول الارض كل شهر، ولكل منها مدار مستقل يسبح فيه. فهذه الآيات تحمل من العلوم الكونية الجديرة بالتفكير للاستدلال بها على عظمة الخالق القدير المبدع جل جلاله.

ويلاحظ انه تعالى أتى بواو العطف في قوله : «وكل في فلك يسبحون» فعطف حركات عدم لحاق الشمس للقمر، وعدم سبق الارض للشمس على حركاتها في سبحها ليدل على ان الحركات الأولى غير الحركات الثانية، لأن عطف شئ على آخر يدل على مغايرته له وبما ان الحركات الاخيرة هي حركات سبحها في افلاكها فتكون الحركات الاولى مقصوداً بها حركات جريها لا حركات سبحها.

والخلاصة ان سرعة جرى الشمس لا تزيد على سرعة جرى القمر الملازم للارض وان سرعة جرى الارض (الملازمة للقمر) لا تزيد على سرعة جرى الشمس وان جرى الشمس لا يزيد على جرى الارض.

وبعبارة اخرى ان الشمس والقمر والارض يجرى بعضها مع بعض بسرعة واحدة في الفضاء الى اجل مسمى فوق سبح كل منها فلكه الخاص دون ان يتقدم او يتأخر احدهما عن الآخر اي انها تجري لمجموعة بسرعة واحدة مشتركة وفي هذا بيان لقدرة الله تعالى في تسيير هذا الكون بنظام دقيق وسنن لا تتخلف فالشمس لها مدار والقمر له مدار وكل كوكب من

الكواكب له مدار لا يتجاوزه في جريانه او دورانه. ولا يطفى احدهما على الآخر وهذا دليل قاطع على قدرة الله تعالى الاله العظيم مالك الملك ومدبره جل جلاله.

المبحث الرابع
في الرياح لواقح النبات
من سورة الحجر الآية ٢٢

قال تعالى : «وارسلنا الرياح لواقح فانزلنا من السماء ماءً فاسقيناكموه وما انتم له بخازنين».

مكانة الآية ومناسبتها لما قبلها

بعد ان بين سبحانه فيما سلف من آيات سورة الحجر انه انزل النبات وجعل لنا فيه معايش في هذه الحياة اتبعه في هذه الآية بذكر ما هو كالسبب في ذلك وهو انه سبحانه جعل الهواء من أهم وسائل تلقيح النباتات.

تفسير المفردات

١- اللواقح : واحدها لاقح اي ذات لقاح وحمل. يقول الراغب الاصفهاني: اللقاح ما يلقح به، يقال : لقحت الناقة او الشجرة لقحاً فهي لاقح، وألقح الناقة، والقح فلان النخلة فهو ملقح وملقح، وارسلنا الرياح لواقح اي ذات لقاح وهو ما يلقح به.

٢- اسقيناكموه : اي جعلنا لكم سقياً لمزارعكم ومواشيكم. تقول العرب اذا سقت الرجل ماء او لبنا اسقيه واذا اعدوا له ماء لشرب ارضه او ماشيته قالوا اسقيته او اسقيت ارضه او ماشيته.

التفسير

يشير سبحانه وتعالى في هذه الآية الى بعض نعمه على عباده واحسانه اليهم انه ارسل اليهم الرياح لواقح ويكون ذلك على ضروب عدة :

أولا - ان يرسلها حاملات للسحاب فتلقح بها الاشجار بما نزل عليها من الامطار فتغيرها من حال الى حال فتحيلها حياة جديدة اذ تزدهر ازهارها وتثمر اغصانها بعد ان كانت قد ذبلت واصبحت في مرأى العين كأنها ميته لاحياة فيها كما قال تعالى«وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلدٍ ميتٍ»(١)

ثانيا - ان يرسلها ناقلة لقاح الازهار الذكور الى الازهار الاناث لتخرج الثمر والفواكه للناس.

ثالثا - ان يرسلها لتزيل عن الاشجار ما علق بها من الغبار لينفذ الغذاء الى مسامها فيكون ذلك رياضة للشجر والزرع كرياضة الحيوان.

«فانزلنا من السماء ماء فاسقيناكموه» اي فانزلنا من السحاب مطرا فاسقيناكم ذلك المطر لسقي زروعكم وشرب مواشيكم وفي ذلك استقامة امور معاشكم وتدبير شؤون حياتكم الى حين كما قال : «وجعلنا من الماء كل شئ حي»(٢).

«وما انتم له بخازنين» اي ولستم بخازني الماء الذي انزلناه فتمنعوه من ان اسقيه من اشاء لان ذلك بيدي وهو خاضع لسلطاني ان شئت

---

(١) سورة الاعراف الآية / ٥٧.

(١) سورة الانبياء، الآية / ٣٠.

حفظته على سطح الارض وان شئت غورته في باطنها فلا ينتفع الناس والحيوان منه شيئا. ويهلكون عطشاً كقوله تعالى : «أرأيتم ان أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين»(١).

فهذه الآية التي تصور قدرة الله المتتابعة في عملية الخلق تشير الى ما قرره العلم الحديث في ان الرياح لواقح للسحب التي يتم بها نزول الماء من السماء فالرياح هي حركة الهواء الموجود في الطبقات السفلى من الجو، اذا سارت متوازية مع سطح الارض وقد ثبت ان الهواء من اهم وسائل تلقيح النباتات، بل ان هناك قسما كبيرا من النبات لا يتم تلقيحه الا بالهواء كالصنوبر وهكذا يتضح لكل انسان جاحد من هذه الآية قدرة الله على الخلق والابداع. وانها لدليل واضح وبرهان ساطع ينتفع بها كل ذى عقل سليم في الهداية الى معرفة الخالق جل وعلا والاقرار بعظيم حكمته وواسع رحمته بعبادة وسائر مخلوقاته.

---

(١) سورة تبارك، الآية / ٣٠.

المبحث الخامس

كل ما في السموات والارض مسبح لله

من سورة الاسراء الآية ٤٤

قال تعالى : «تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شئ الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا».

مكانة الآية ومناسبتها لما قبلها

هذه الآية من سورة الاسراء ذكرها الله بعد ان انب عبدة الاصنام الذين يقولون بانها تقربهم الى الله زلفى، لانها لو كانت كما يقولون لطلبت لانفسها قربة الى الله وسبيلا اليه ولكنها لم تفعل ذلك، وكيف تقربهم الى الله وكل ما في السموات والارض يسبح بحمده بدلالة احواله على توحيده وتقديسه وكمال قدرته ؟

التفسير

«تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن» ان السموات السبع والارض وكل من فيهن من المخلوقات تعظمه وتنزهه عما يقول المشركون وتشهد بالوحدانية في ربوبيته والوهيته كما قال الشاعر :

وفي كل شيء له آية تدل على إنه واحد

« و ان من شئ الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم» وما من شئ في هذا الوجود الا يسبح بحمده فالسموات تسبح الله في في زرقتها وصفائها والحقول في خضرتها والبساتين في نضارتها والاشجار في

حفيفها والمياه في خريرها والطيور في تغريدها والشمس في شروقها وغروبها والسحب في امطارها ولكننا لا نفقه تسبيحها لانها من جنس غير ما نعهده وغير العاقل لا يسبح الا بالطريق الثاني فهي تدل بحدوثها دلالة واضحة على وجوب وجوده تعالى، ولهذا قال سبحانه بانه ما من شئ من المخلوقات الا يسبح بحمد الله.

«انه كان حكيما غفورا» ولولا حلمه سبحانه لما امهلكم ولعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء جهلكم بهذا التسبيح باشراككم بالله سواه وعبادتكم معه غيره ومن مغفرته لكم انه لا يؤاخذ من تاب منكم وبهذا يعتبر القرآن الكريم أول كتاب تعرض لوجود الاحياء في السموات، واما العقول البشرية فقد انتابتها الرغبة منذ القديم الزمان في استجلاء غوامض الطبيعة وتفهم اسرارها والتعرف على خفايا الاكوان وما استغلق من امورها لذلك عبر معظم الفلاسفة الاغريقيين كطاليس ولوسيوس وديمقريطوس وتوقريطوس كلهم يتكلمون عن ذرات تتركب منها المواد المتباينة. ولما انتقلت المدنية والحضارة الى العرب اشاد فلاسفتها بماهية الجوهر الفردي والجزئي الذي لا يتجزأ. وقد ذكر الفيلسوف العربي فريد الدين العطار ان ذرات العالم في عمل مستمر وهياج مستعر وانه توجد في كل ذرة شمس. ظاهرة وروح باطنة وفي العصر الحديث تقدم علم الكيمياء فتكمن العلماء من اكتشاف معادن ذات نشاط اشعاعي كاليورانيوم والراديوم وغيرهما وثبت ان طاقة اشعاعها ناتجة عن تحطيم الذرات نفسها وينتج عن ذلك ذرات عناصر اخرى.

وبدراسة الذرة ثبت ان كل ذرة تشابه المجموعة الشمسية في تركيبها ونظامها فكما ان المجموعة الشمسية تتكون من بروتينات مركزية موجبة الشحنة والكترونات سالبة الشحنة وتدور حول البروتونات كما تدور كواكب المجموعة الشمسية حول الشمس، وان سرعة هذه الالكترونات تعتبر في ذاتها سرعة خيالية، فقد افتتح في باريس في اوائل عام ١٩٥٦ معرض للسرعة ثبت أن سرعة الدم في عروق الانسان هي ٣٠ سنتمترا في الثانية وسرعة أسرع كائن حي وهو نوع من الذباب اسمه سيفينوميا بلغت ١٣٠٨ كيلو مترا في الساعة أما سرعة الالكترونات في ذرة الهيدروجين فقد بلغت الفي كيلو متر في الثانية، وهذا فيما يعرفه العلم والعلماء اقصى سرعة امكن او يمكن معرفتها على وجه الارض اطلاقا.

عرفنا اذن ان وحدة الوجود التي تتكون منها السموات والارض ومن فيهن ومن عليهن هي كهارب او الكترونات تسبح هذا السبح السريع بسرعة لا تتصور، وان النظام واحد في حركة السموات وما فيها والارض وما عليها والكل يسبح سبحا متواصلا حول مركز واحد وفي عبادة متصلة للخالق الازلي مهما صغر الحجم وقل الوزن فهذه الحركة الدائبة الطواف حول مركز موحد في كل شئ في الوجود ويمكن ان تسمى تسبيحا من الوجود للموجود. وانه لمشهد كوني فريد حين يتصور القلب كل حصاة وكل حجر وكل حبة وكل ورقة وكل زهرة وكل ثمرة كل نبتة وكل شجرة، كل حشرة وكل زاحفة، كل حيوان وكل انسان، كل دابة على الارض وكل سابحة في الماء والهواء ومعها سكان السماء كلها تسبح الله وتتوجه اليه

في علاه وحين تشف الروح وتصفو تدرك من اسرار هذا الوجود ما لا يدركه الغافلون[1].

---

(١) في ظلال القرآن ١٥/٣٩.

المحبث السادس

في كيفية خلق الانسان

من سورة طارق الآيات ٥ - ٧

قال الله تعالى : «فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب».

مكانة هذه الآيات ومناسبتها لما قبلها

بعد ان بين سبحانه ان لكل نفس رقيبا يحفظها ويدير شؤونها في جميع اطوار وجودها حتى ينتهي اجلها وان ذلك الحافظ هو ربها القادر على خلقها واماتتها لفت في هذه الآيات نظر الانسان الى كيفية خلقه ومنشئه لكي يؤمن بقدرة الله على بعث الخلق كرة اخرى.

تفسير المفردات

١- دافق : اي منصب بدفع وسيلان وسرعة.

٢- الصلب : فقار الظهر. ويسمى سلسلة الظهر وكنى بالصلب عن الرجل وبالترائب عن المرأة.

٣- الترائب : عظام صدر المرأة من بين صلب الرجل وترائب المرأة.

التفسير .

«فلينظر الانسان مم خلق ؟» أي فلينظر بعقله وليتدبر في مبدأ خلقه ليتضح له قدرة الله، وانه اذا قدر على انشائه من مواد لم يشم رائحة

الحياة قط فهو على اعادته اقدر فليعمل بما به يسر حين الاعادة ثم اجاب بقوله : «خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب».

أي خلق من ماء مدفوق يخرج من الظهر والترائب لكل من الرجل والمرأة فهو أنما يكون مادة لخلق الانسان اذا خرج من بين الرجل والمرأة ووقع في رحم المرأة وقصة الماء مع الانسان طويلة تبدأ معه من نطفة سابحة في ماء ثم جنينا محفوظا في قراره المكين «الرحم» من كل اذى في قربة من الماء وتصله اسباب الحياة كلها من أمه في الحبل السري محمولة مع الماء، ثم وليدا يرشف اول غذاء له من ثدي امه لبنا سائغا قوامه الماء كما قال تعالى «خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب» وهذه الآيات لمن المعجزات القرآنية اذ فيها حقائق علمية تأخر العلم بها والكشف عن معرفتها واثباتها اكثر من ثلاثة عشر قرنا حيث لم يثبت الا في الخمسين سنة الماضية فقط. ان مني الرجل انما يتكون من صلبه اي ظهره وان بويضات النساء تتكون من عظام صدرها، وهكذا اوضح القرآن قبل العلم باربعة عشر قرنا وكان افراز المني والبويضات في الانسان ثم يمضي القرآن في بيان الحقائق الطبية والنظريات العلمية في خلق الانسان فيقول : «ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما فتبارك الله أحسن الخالقين»[1]. ففي هذه الآية الكريمة يذكر القرآن مسألة تطور الجنين داخل الرحم بكيفية تطابق تمام المطابقة ما

---

(١) سورة المؤمنون، الآية / ١٢.

نعرفه اليوم عن بعض اطوار نمو الجنين والقرآن لم ينطق في هذا بشئ يخالف العلم الحديث.

هكذا خلق الله الانسان من نقطة ماء لا أقل ولا أكثر، ويذكر سبحانه هذه الحقيقة احدى عشرة مرة من ذلك قوله تعالى :

«الم يك نطفة من مني يمنى» وقوله :

«ألم نخلقكم من ماء مهين» وقوله :

«ثم جعلناه في قرار مكين». ولكن هذه النقطة لا تلبث ان تتدرج في مراحل متتابعة فتصير دما ثم يتحول الدم قطعة لحم وتتحول قطعة اللحم الى عظام تنسج عليها يد البارئ المصور كسوة من اللحم فاذا خلق جديد رائع قد انبثق من هذه النطفة الساذجة، ففي عملية خلق الانسان يوجه الله عز وجل نظرنا الى طبيعة الخلق في اروع مظهر واقوى دلالة لنحس بوجود الخالق ونؤمن به بعظم قدرته وبديع صنعه من ثناياها[١]. ويقول ايضا

«وانه خلق الزوجين الذكر والانثى من نطفة اذا تمنى»[٢] ويقول :

«يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في اي صورة ما شاء ركبك[٣] ويقول :

(١) انظر العلوم البيولوجية في خدمة القرآن الكريم منهاج وتطبيق للاستاذ عبد الحافظ حلمي وهو بحث منشور في عالم الفكر الكويتية ص٦١ المجلد الثاني عشر عام ١٩٨٢ والله والعلم الحديث ص ١٨٦.

(٢) سورة النجم، الآيتان / ٤٥-٤٦.

(٣) سورة الانفطار الآيتان ٦-٨.

«ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم اطوارا»[1]

اخي القارئ هذا تفسير لبعض الآيات الكونية التي وردت في القرآن الكريم عرضت لنا صورا رائعة لعملية الخلق توالت علينا مشاهدها وتزاحم في النفوس اثرها فزادتنا ايمانا بقدرة الله عز وجل، فمن بناء السموات والارض ومن فتق الارض عنها الى جعل كل شئ حي من الماء ثم الى بيان حركة الشمس والى جعل الرياح لواقح للنبات ثم الى تسبيح كل ما في السموات والارض واخيرا الى كيفية خلق الانسان فما اجدرك يا اخي بالايمان بالله والاعتراف بوجوده والتسليم بقدرته اللامحدودة ولا سيما بعد هذا التطور العلمي والتقدم التكنولوجي الذي شهده هذا القرن وصدق الله العظيم الذي يقول :

«سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق»[2]

والحمد لله اولا وآخرا.

---

(١) سورة نوح، الآيتان / ١٣-١٤.

(٢) سورة فصلت، الآية / ٥٣.

المراجع

١- القرآن الكريم.

٢- اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث للدكتور عفت محمد الشرقاوي طبع مطبعة الكيلاني بالقاهرة.

٣- اتجاه التفسير في العصر الحديث لمصطفى محمد الحديدي اصدار مجمع البحوث الاسلامية بالقاهرة سنة ١٣٦٥-١٩٧٥م.

٤- الاتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي : عبد الرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١هـ) وبهامشه اعجاز القرآن للباقلاني طبع مطبعة الحجازي.

٥- الاحكام في اصول الاحكام لابن حزم : محمد بن علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٢هـ) الطبعة الاولى بمطبعة السعادة سنة ١٣٤٥هـ.

٦- احياء علوم الدين لابي حامد بن محمد بن محمد الغزالي (ت٤٧٨هـ) طبع دار المعرفة للطباعة والنشر ببيروت.

٧- ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الاصول لمحمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٥هـ) وبهامشه شرح الورقات لامام الحرمين، الطبعة الاولى سنة ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

٨- الاسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لمحمد محمد أبي شهبة طبع الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية بالقاهرة.

٩- اصول التشريع الاسلامي للاستاذ علي حسب الله الطبعة الرابعة سنة ١٣٩١هـ-١٩٧١م مطبعة دار المعارف بمصر.

١٠- اعلام المحدثين لمحمد محمد أبي شهبة طبع القاهرة.

١١- اعلام الموقعين لابن قيم الجوزية : محمد بن ابي بكر (ت٧٥١هـ) مراجعة طه عبد الرؤوف سعد طبع الشركة الفنية سنة ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

١٢- الله والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل الطبعة الاولى بدار مصر للطباعة.

١٣- الامالي في التفسير والحديث والادب لابي القاسم احمد الحسين الطبعة الاولى بمطبعة السعادة سنة ١٣٢٥هـ-١٩٠٧م.

١٤- البرهان في علوم القرآن للزركشي : بدر الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤هـ) تحقيق محمد أبي الفضل الطبعة الاولى ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م.

١٥- التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن احمد بن جزئ الكلبي الطبعة الاولى سنة ١٣٥٥هـ مطبعة مصطفى محمد بمصر.

١٦- تطور تفسير القرآن الكريم بحث للدكتور محسن عبد الحميد، منشور ضمن سلسلة دراسات عربية واسلامية العدد ٢ مطبعة الاوقاف - بغداد.

١٧- تفسير البغوى (معالم التنزيل) للبغوي : ابى محمد الحسين بن مسعود البغوي المتوفي سنة ٥١٦هـ الطبعة الثانية بمطبعة مصطفى، البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٩٥٥م على هامش الخازن.

١٨- التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن للاستاذ حنفي أحمد الطبعة الثانية لدار المعارف بمصر.

١٩- تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا طبعة سنة ١٣٤٦هـ.

٢٠- تفسير القرآن العظيم لاسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ) طبع دار المعرفة ببيروت سنة ١٣٨٨هـ.

٢١- تفسير المراغي لاحمد مصطفى المراغي الطبعة الاولى والثالثة بمطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م.

٢٢- تفسير آيات الاحكام للشيخ محمد علي السايس وجماعة طبع محمد علي صبيح سنة ١٩٧٢هـ-١٩٥٣م القاهرة.

٢٣- التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي طبع دار الكتب الحديثة بالقاهرة سنة ١٩٦١م.

٢٤- التفسير ورجاله للشيخ محمد الفاضل بن عاشور من سلسلة البحوث التي يصدرها مجمع البحوث الاسلامية بالقاهرة طبع مطبعة الازهر.

٢٥- تهذيب التهذيب لابن حجر : احمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) الطبعة الاولى بمطبعة دار المعارف النظامية بالهند ١٧٣٢هـ.

٢٦- جامع البيان عن تأويل اي القرآن لابي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ).

٢٧- الجامع لاحكام القرآن لابي عبد الله محمد بن احمد الانصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ) طبع دار الشعب بالقاهرة.

٢٨- جمال الدين الافغاني للدكتور محمود قاسم نشر مكتبة الانجلو المصرية.

٢٩- حلية الاولياء وطبقات الاصفياء لابي نعيم احمد بن عبد الله بن احمد

(ت ٤٣٠هـ) الطبعة الاولى بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م.

٣٠- خطوات التفسير البياني للدكتور محمد رجب البيومي من سلسلة مجمع البحوث الاسلامية طبع سنة ١٩٧١ بمطابع الشركة المصرية للطباعة والنشر.

٣١- دراسات في اصول تفسير القرآن للدكتور محسن عبد الحميد طبع مطبعة الوطن العربي سنة ١٩٧٩ بغداد.

٣٢- دراسات في القرآن للدكتور السيد احمد خليل طبع دار المعارف.

٣٣- ديوان الامام الشافعي ابي عبد الله محمد بن ادريس (ت٢٠٤هـ) جمعه وعلق عليه محمد عفيف الزعبي طبع دار الجليل للنشر والتوزيع بيروت.

٣٤- روح المعاني لابي الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي (ت ١١٢٧هـ).

٣٥- زاد المسيد لابي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي.

٣٦- سنن الترمذي : سليمان بن الاشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ) محمد عبد المحسن طبع المطبعة السلفية بالمدينة المنورة.

٣٧- صحيح مسلم بشرح النووي الطبعة الثانية.

٣٨- طبقات الحفاظ لجلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي الطبعة الاولى القاهرة سنة ١٩٧٣م.

٣٩- طبقات المفسرين للداودي بن احمد الطبعة الاولى القاهرة سنة

١٩٣٦م.

٤٠- العقائد الاسلامية لسيد سابق الطبعة الاولى ١٣٨٣هـ بمطابع دار الكتاب العربي بالقاهرة.

٤١- العقائد النسفية للشيخ نجم الدين ابن حفص عمر بن محمد النسفي (ت ٥٣٧هـ) مع شرح العلامة مسعود بن عمر التفتازاني (ت٧٩٣هـ).

٤٢-القرآن والتفسير للدكتور عبد الله شحاته طبع مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة.

٤٣- قصة التفسير للدكتور احمد الشرباصي نشر دار العلم بالقاهرة ١٩٦٢م.

٤٤- الكشاف لجار الله الزمخشري محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ) طبع مطبعة افتاب طهران.

٤٥- لسان العرب لابن منظور : محمد بن مكرم الانصاري (ت٧١١هـ) طبعة مصورة عن طبعة بولاق.

٤٦- المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم للدكتور محمد حسين الصغير، ملزمة مطبوعة على الآلة الكاتبة لطلبة السنة الرابعة بكلية الفقه بالنجف الاشرف.

٤٧- المجتمع الاسلامي كما تنظمه سورة النساء للشيخ محمد محمد المدني من منشورات المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية طبع مطابع الاهرام بالقاهرة.

٤٨- المثل السائر لضياء الدين الموصلي تحقيق الدكتورين احمد الحوفي وبدوي طبانة الطبعة الاولى بمطبعة النهضة بالقاهرة ١٣٧٩هـ-١٩٥٩م.

٤٩- مجمع البيان في تفسير القرآن للفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٣٨هـ).

٥٠- محاسن التأويل للقاسمي، تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي الطبعة الاولى بمطبعة دار احياء الكتب العربية بالقاهرة.

٥١- محاضرات في اصول الفقه على المذاهب اهل السنة والامامية للشيخ بدر المتولي عبد الباسط الطبعة الاولى بدار المعرفة ببغداد.

٥٢- مسند الامام احمد بن حنبل مطبعة المعارف ١٩٦٨ القاهرة.

٥٣-المعجزة الكبرى للشيخ محمد أبي زهرة طبع ونشر دار الفكر العربي بالقاهرة.

٥٤- مقدمة في اصول التفسير لابن تيمية احمد بن عبد الحليم (ت٧٢٨هـ)، تحقيق الدكتور عدنان زرزور الطبعة الثانية ١٣٩١هـ-١٩٧٢م بدار القرآن الكريم بالكويت.

٥٥- مقدمتان في علوم القرآن لابن عطية عبد الحق بن ابي بكر بن عبد الملك الغرناطي (ت ٩٧٢هـ) نشر آرثر جفري طبع مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة سنة ١٩٥٤م.

٥٦- مقدمة ابن خلدون لعبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ) طبع المطبعة الاميرية بالقاهرة.

٥٧- مناهل العرفان للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني طبع مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بالقاهرة.

٥٨- مناهج المفسرين للدكتور منيع عبد الحليم اصدار دار الكتاب المصري، طبع نهضة مصر.

٥٩- منهج الامام محمد عبدة للدكتور عبد الله شحاته طبع المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة ١٣٨٢هـ.

٦٠- منهج الزمخشري في تفسير القرآن لمصطفى الصاوي الجويني، طبع دار المعارف بمصر في سنة ١٩٥٩م.

٦١- منهج ابن القيم في التفسير للاستاذ محمد احمد السنباطي من مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية سنة ١٣٩٢م.

٦٢- الموافقات للشاطبي : ابراهيم بن موسى الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) شرح الشيخ عبد الله دراز طبع مطبعة الشرق الادنى.

٦٣- النهاية في غريب الحديث للامام مجد الدين ابي السعادات المبارك ابن محمد الجزري الملقب بابن الاثير (ت ٥٤٤-٦٠٦هـ) تحقيق طاهر احمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه.

((آثار المؤلف من الكتب والابحاث المطبوعة))

اولا - آثاره من الكتب المطبوعة

١ -زفرين الهذيل اصوله وفقهه، نال المؤلف درجة الماجستير بتقدير (امتياز) من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة طبع مطبعة وزارة الاوقاف والشؤون الدينية سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٢- الحسن بن زياد وفقهه بين معاصريه من الفقهاء، حصل به المؤلف على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، طبع مطبعة دار الرسالة ببغداد سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٣- مباحث في علم التفسير. طبع مطبعة دار الرسالة ببغداد سنة ١٩٨٤م.

٤- احكام الوصية، طبع مطبعة الجامعة ببغداد سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٥- احكام انهاء النكاح مطبعة الجامعة ببغداد سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٦- تأليف ستة كتب في التربية الاسلامية والحديث الشريف واصول الفقه لمرحلة المتوسطة والمعاهد الاسلامية بالاشتراك مع الاساتذة الافاضل الدكتور حمد عبيد الكبيسي والدكتور رشدي عليان والدكتور قحطان الدوري والدكتور مصطفى الزلمي.

٧- من فقه احاديث الاحكام الطبعة الاولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م بمطبعة التعليم العالي ببغداد.

٨- واقعية الاسلام بين العزوبة والطلاق، الكتاب الذي بين يديك.

ثانيا - آثاره من الابحاث المطبوعه

١- العرف واثره في بناء الاحكام نشر بمجلة كلية الشريعة في العدد الخامس سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢- الفقه الاسلامي وتطوره منذ نشأته حتى العصر الحاضر نشر بمجلة دراسات عربية واسلامية التي تصدرها اللجنة الوطنية لاحتفالات القرن الخامس عشر الهجري في العدد الاول السنة الاولى سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨٢م.

٣- العلاقات الدولية العامة في الشريعة والقانون نشر بمجلة كلية الشريعة في العدد السادس سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٤- ابو الحسن الكرخي واراؤه في اصول الفقه وفروعه نشر بمجلة كلية الشريعة في عددها السابع سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٥- اضواء على التفسير في عصر الرسالة نشر بمجلة الرسالة الاسلامية في عدديها (١٥٥-١٥٦) سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٣م.

٦- اضواء على التفسير في عصر الصحابة نشر بمجلة الرسالة الاسلامية في عدديها (١٦٢-١٦٣) سنة ١٣٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٧- اضواء على التفسير في عصر التابعين نشر بمجلة الرسالة الاسلامية في عدديها (١٦٤-١٦٥) سنة ١٩٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٨- اضواء على التفسير في عصر النضوج والازدهار نشر بمجلة الرسالة الاسلامية في عددها (١٧٢).

٩- محمد بن الحسن الشيباني من اوائل مؤسسي القانون الدولي في العالم نشر بمجلة الرسالة الاسلامية في العددين (١٨٤ ، ١٨٥) سنة ١٩٨٥.

١٠- المبادئ الانسانية في معاملة المحاربين في الاسلام، نشر في مجلة كلية الشريعة بالعدد التاسع سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١١- معاملة الاسير في الاسلام نشر في ندوة اسرى الحرب في الاسلام والقانون الدولي المقامة في كلية الشريعة سنة ١٩٨٦.

١٢- اسباب عزوف الشباب عن الزواج بحث ونشر في ندوة الانجاب وحقوق الاطفال المقامة في كلية الشريعة سنة ١٩٨٨.

١٣- اضواء على التفسير في العصر الحديث سينشر قريباً في الرسالة الاسلامية

١٤- بحث مصطلح (عذر) كتب للموسوعة الفقهية التي تصدرها الكويت.

١٥- بحث مصطلح (عقد موقوف) كتب للموسوعة الفقهية التي تصدرها الكويت.

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة